بيل فاوست

100 Mistakes That Changed History



خطأً غيرت مجرى التاريخ

ترجمة: مجدي كامل



الأخطاء تصنع التاريخ

مقدمة المؤلف

صناعة الأخطاء في التاريخ، أو بمعنى أكثر دقة «الأخطاء التي تصنع التاريخ». انظر حولك.. هل تعتقد أن العالم يسير على هذا النحو لسبب ما؟ وغالبًا ما تسير الخطط التي يضعها الفئران والبشر بشكل خاطئ.

هذا الكتاب يتناول الجزء الخاطئ الذي شكل الكثير من أحداث التاريخ ليس بسبب التخطيط الواعي للقادة الكبار، ولكن بسبب الأخطاء التي ارتكبوها هم وآخرون.

وفي هذا الكتاب سنقوم بإلقاء نظرة على 100 قرار وإجراء وصدفة محضة غيرت مجرى التاريخ وكانت خطأ. القرار أو الخطأ الذي لم يكن باليد حيلة في تفاديه لا يعتبر خطأً. ونحن ننظر اليوم إلى الماضي من خلال عدسات، حيث إن الناس ينظرون الآن إلى الماضي من منظور اليوم.

ففي روما القديمة، كانت الاتصالات بين المدن تستغرق أيامًا، وليس ثوانيَ وكانت نظرة العالم للنبيل السكسوني أو المحارب الصليبي تختلف تمامًا عن نظرتك لها اليوم، أو أي شيء شاهدته في الأفلام السينمائية.

فالشرف والإيمان بالنسبة لهؤلاء كان في نفس أهمية الثروة أو المكانة الاجتماعية اليوم. السياق الذي يتواجد فيه الأفراد وتقع فيه الأحداث مهم. ولكن ما جاء في هذا الكتاب فيما يتعلق بتفصيلات سياق الأحداث والاتجاهات والتوجهات التي وقعت فيها الأخطاء كان موجزًا لأسباب ضرورية.

وتبدأ قصة كل خطأ بوضعه للقارئ في سياقه لأن الأخطاء كانت أحداثًا مغيرة للعالم، تكتظ الكتب والمكتبات بإصدارات تتناولها ويمكن أن تستزيد بقراءة كتب أخرى إذا ما استثار شهيتك للقراءة خطأٌ ما. فالتاريخ يصبح أكثر سحرًا وجاذبية كلما خضت في أعماقه أكثر.

وفي هذا العصر، حيث يتم تسجيل كل شاردة وواردة وتعاد إذاعته مئات المرات، أصبح من السهل أن نرى أنه لا أحد منزَّه عن الخطأ، وأنه يتم تذكيرنا على طول الخط بأن الخطأ سِمة إنسانية. الناس ترتكب الأخطاء - بعضها كارثي - وقادة التاريخ نُسبت إليهم أخطاء كثيرة كما السياسيون الذين يتم اليوم التدقيق في كل أفعالهم. وبعض هذه الأخطاء غيَّر مجرى التاريخ بالنسبة للعالم بأكمله، أو على الأقل بالنسبة لقاراتهم.

وربما تكون هناك رسالة فلسفية تختبئ وراء هذا المسح التاريخي للخطوات الخاطئة والعثرات في مسيرة التاريخ. لك أن تشعر بأنك حر في البحث عنها ولكن الجزء الأهم هو ما إذا كانت أخطاء الماضي الكبرى في حرب أو في غرفة النوم هي موضوعًا ممتعًا للقراءة عنه.

وربما لا يكون هناك أيضًا تأكيد حول أن هناك كثيرين مغرمين بالتاريخ، ومن ثَمَّ كان هذا الكتاب.

وبالنظر إلى الطريق المعقد الذي قطعه العالم حتى وصل إلينا كما نراه يمكن أيضًا أن يقدم رؤية للعصر المنافي للمنطق والمربك والمحيِّر والمثير أيضًا الذي نعيشه الآن.

(المؤلف)

مقدمة المترجم

التاريخ ما هو إلا مجموعة من الأخطاء لرجال في مواقع المسؤولية، تولدت بسببها أحداثه الكبرى التي غيرت مجراه، ومعها وجه الحياة على الأرض.

هذا هو ما يمكن لنا أن نخرج به من هذا الكتاب الرائع، الذي يعيد كتابة تاريخ البشرية من خلال الأخطاء التي غيرت مجراه.

وكما سنرى في هذا الكتاب، فإن مؤلفه بيل فاوست يعتمد فيه على تحليل وقائع التاريخ الكبرى منذ عصر الفراعنة حتى يومنا هذا راصدًا أكثر الأخطاء تأثيرًا في أحداثه الجسام التي لولاها لما كان العالم كما نعرفه الآن. الانتكاسات التي أدت إلى سقوط إمبراطوريات، وقيام أخرى، وانهيار أنظمة حكم، وصعود أخرى، واندلاع حروب، وتخريب حضارات، واندثار أمم، وهلاك بشر، وزوال مدن.

وأحيانًا - كما سنرى في الكتاب - تكون هذه الأخطاء جسيمة، وأحيانًا أخرى تكون كارثية، وفي الحالتين تستجد معها ظروف جديدة، لا يعود معها العالم كما كان قبلَها.

وهذه الأخطاء عادة ما تكون نتيجة قصور في الرؤية، أو سوء تقدير للموقف، أو عدم التنبه للعواقب، أو عدم الإنصات جيدًا للتحذيرات.

وأحيانًا تكون الأخطاء بسبب السلبية والرعونة والتقاعس عن اتخاذ ما يلزم إزاء المستجدات على الساحة.

وقد تكون الأخطاء بسبب انقسام في القيادة أو سوء تقدير للذات، أو اللآخر، وتظهر أكثر ما تظهر في الحروب التي خاضتها البشرية عبر تاريخها.

وهناك أخطاء نتجت عن عدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب؛ سواء في قمة السلطة، أو في مراكز صنع القرار بوجه عام.

وهناك أخطاء تتعلق بالتلكؤ والتردد في اتخاذ القرار، أو تأخير اتخاذه أو اتخاذه بعد فوات الأوان، ومن ثم إعطاء الخصوم الفرصة لأخذ زمام المبادرة.

وقد تكون الأخطاء متعلقة بغرور القائد أو الزعيم وغطرسته مما يغمي عينيه عن قوة خصمه فتسقط بلاده ضحية أوهام العظمة التي تجتاح أوصاله، وتسيير أفعاله بعيدًا عن الواقع.

ومن الأخطاء أيضًا السماح بضياع الفرص، وقد تكون النتيجة الانجراف إلى حرب أو الذهاب إلى أزمة طاحنة، كان من الممكن تفاديها.

كما سنجد بالكتاب بعض الأخطاء غير المقصودة التي انتهت نهايات سعيدة، واستفادت منها البشرية، ولولاها ربما لم تكن خريطة العالم الآن مثلًا تضم دولًا كبرى لم تكن موجودة عليها من قبل.

هذا الكتاب يتناول الأخطاء (المائة) التي شكلت الكثير من أحداث التاريخ ليس بسبب قدرات القادة والزعماء

والأفراد الفذة، وإنما بسبب الأخطاء التي ارتكبوها هم وآخرون.

(المترجم)

1

الطموح الجامح..

«غلطة أريستاجوراس»

يمكننا أن نناقش طويلًا هذا الخطأ باعتباره المسؤول عن خلق الأحداث التي أنتجت الثقافة الغربية التي نعرفها اليوم، وطالما حفظتْها من الانهيار.

ولعل هذا هو السبب الذي جعلنا ندرج هذا الخطأ هنا في إطار تسلسل الأحداث التاريخي.

فالعالم الذي نعرفه اليوم بدأ بحكم خاطئ لطاغية مدينة ميليتوس بمنطقة كانت تُعرف باسم «أيونيا».

اسم هذا الطاغية هو أريستاجوراس وبدأت أخطاؤه بسلسلة من الأحداث، وهذه الأخطاء لا تزال تُرتكب حتى يومنا هذا.

كانت مدينة ميليتوس تقع على الساحل الشرقي لبحر إيجه في منطقة تُعرف ب «أيونيا».

وكان هذا الساحل بأكمله يخضع لسيطرة الفُرس والطاغية ومدينته يتبعون ملك الفرس داريوس الأول أو دارا الأول ويدفعون له الجزية.

وحتى نفهم غلطة أريستاجوراس علينا أن نلقي نظرة على العالم كما كان في عام 499 قبل الميلاد، أي قبل أكثر من 2500 سنة، حيث كانت أسرع وسائل الاتصال - آنذاك - هي تلك الرسائل التي كانت تبعث على ظهور الجياد، وكان الأمر يستغرق عدةَ أسابيع لتصل رسائل دارا الأول إلى مدينة بعيدة كمدينة ميليتوس.

وكان الأمر يتطلب أيضًا عدة أشهر لكي يحرك دارا الأول جيشه من قلب إمبراطوريته الفارسية إلى أية مدينة فارسية أخرى أو مدينة محتلة أو تابعة كمدينة ميليتوس.

وميليتوس كانت على أطراف الإمبراطورية الفارسية البعيدة في «بونيا»، وكان حكام دارا في تلك المناطق كميليتوس يعملون وكأنهم ملوك لمدنهم، رغم أنهم كانوا ولاة تابعين، ويطلق على كل منهم اسم «المرزبان «وهو لقب فارسي قديم بمعنى «والٍ».

وكان هناك تنافس وصراع كبير بين هؤلاء الولاة الفرس، كل يريد أن يتفوق على الآخر، ويعزز أسهمه، ويجني المزيد من المزايا والمناصب في عاصمة الإمبراطورية في بابل.

وكانت مشكلة هذا المرزبان الذي نتناوله هنا، ونقصد «أريستاجوراس» هي أن المدن اليونانية الواقعة على بحر إيجه لم تكن هامة أو تحظى بالمكانة لدى عاصمة الإمبراطورية أو الإمبراطور.

وقد كان يمكن لأريستاجوراس الطاغية أن يكتفي بوضعه كوالٍ على مدينته ولكن طموحه الجارف - ككثيرين ممن هم على شاكلته - كان يدفعه بجنون نحو أي شيء يمكن من خلاله أن يلفت نظر الإمبراطور

في عاصمة الإمبراطورية البعيدة، حتى يحظَى بمكانة رفيعة أو منصب كبير في البلاط الإمبراطوري.

وكانت هناك في بحر إيجه جزيرة اسمها «ناكسوس» يمكن أن نقول بتعبير اليوم إنها كانت في منطقة نفوذ فارس، وقام دارا الأول بتعيين والٍ عليها نيابة عنه ولجمع الضرائب.

ونظرًا لبعدها عن عاصمة الإمبراطورية فقد فكر سكان ناكسوس في الإطاحة بالطاغية الذي عينه دارا، وشعروا بأن دارا نظرًا لبعد المسافة بين بابل وناكسوس لن يكون بمقدوره عمل أي شيء.

ومن ثم فقد قررت ناكسوس الاستقلال، وأعدمت المرزبان الذي عينه دارا. وكانت الدوافع الاقتصادية والرغبة في الاستئثار بخيرات ناكسوس بدلًا من أن يتم إرسالها إلى دارا أكبر من أية أسباب فلسفية أو فكرية وراء إعلان الاستقلال كالحرية مثلًا أو الديمقراطية.

وقد حدث أن وجد أريستاجوراس في ثورة ناكسوس فرصة لانتزاع مكانة لدى دارا وعاصمة الإمبراطورية، إذا ما استطاع استعادة ناكسوس للفرس مرة ثانية. ورأى أنه على الأقل قد يتم تعيينه متى استعاد ناكسوس كمرزبان عليها إضافة إلى ميليتوس.

ولكن حاكم ميليتوس كانت لديه مشكلة فلديه جيش، ولكن ليس لديه سفن تحمل جنوده للوصول إلى ناكسوس، في ضَوء أنها جزيرة.

وتفتق ذهن أريستاجوراس عن حيلة من وجهة نظره، وهي أن يطلب من شقيق الإمبراطور، الذي كان يحكم ممالك منطقة ليديا جزءًا من أسطوله.

ورأى أن هذا سيلفت نظر الإمبراطور إليه بقوة لوجود شقيقه في الصورة.

وعين أريستاجوراس ميجابيتس وهو أحد القادة، الذين كان الطاغية قد استغنى عنهم من قبل- وأساء إليهم- قائدًا للأسطول لحاجته إليه، ولكن الأخير

وانتقامًا من أريستاجوراس حذر سكان الجزيرة من الهجوم الوشيك.

ومن ثمَّ شحذت الجزيرة أسلحتها وعززت تحصيناتها وتأهبت للرد على الهجوم وخزنت الطعام والمؤن تحسبًا لحربٍ طويلة الأمد.

وشن أريستاجوراس الحرب واستمرت أربعة أشهر انتهت بهزيمته شر هزيمة. وكانت صفقة الطاغية مع شقيق دارا الأول تقضي بأن يدفع ثمن الأسطول الذي حصل عليه في صورة نصيب كبير من الغنائم التي ستؤول إليه من ناكسوس. وكان قد اتفق أيضًا على أن يستخدم نفس الأسطول بعد استرجاع ناكسوس في غزو مدينة «يوبيا» «لحساب مرزبان أو والي ليديا، ولكن بعد هزيمته المنكَرة وتحطم أسطوله في ناكسوس لم يكن بمقدوره غزو «يوبيا».

وقد وضعت هذه الهزيمة أريستاجوراس في مأزق صعب، خاصة وأنه كان قد قدم وعودًا لشقيق

الإمبراطور وليس لأي حاكم محلي وبالتالي كان أمام خطر داهم.

وكان معنى هزيمته في ناكسوس وعدم وفائه بوعوده النفي أو الإعدام.

هنا، فكر أريستاجوراس في التمرد وإعلان الثورة على الإمبراطورية الفارسية، ودعا سكان ميليتوس ذوي الثقافة اليونانية، والذين تفوق روابطهم بالمدن اليونانية تلك التي تجمعهم بالمدن الفارسية، وطلب من حكام المستعمرات الفارسية الواقعة على بحر إيجه الانضمام إليه، ومحاربة الفرس تحت قيادته، ونجح أريستاجوراس، وأصبح قائدًا لثورة المدن اليونانية، وعلى رأسها أثينا وإفسوس على الحكم الفارسي. ولم ترفض الانضمام إليه سوى مدينة إسبرطة.

ولم يكن دارا الأول ولا شقيقه قادرَيْن على جمع الجيش بالسرعة المطلوبة لمواجهة الثورة اليونانية،

وسار الجيش اليوناني إلى سارا عاصمة ليديا واستولى أريستاجوراس عليها ونصَّب نفسه ملكًا لها.

وتوالت عمليات الغزو والسيطرة على المدن اليونانية وإنهاء سيطرة الفرس عليها مما حافظ على الثقافة الغربية والغرب نفسه من تسوُّد الثقافة الفارسية وتحويل أوربا إلى جزء من إمبراطورية الفرس. وكل هذا بدأ بسبب غلطة أريستاجوراس وما تبعها من أخطاء أنتجت مثل هذه الأحداث.

2

إخناتون..

المغالاة دمرت إرثه!

بعض المفكرين العظام يسبقون عصرهم بسنوات، وآخرون يسبقون عصرهم بألف سنة.

وقد أثبت الفرعون المصري إخناتون أنه ينتمي إلى المفكرين من النوع الثاني، حيث استطاع أن يجمع كل الآلهة، التي كانت تُعبَد في مصر القديمة في إله واحد هو قرص الشمس، وقبل ألف سنة قبل التوراة.

وقد استطاع إخناتون بنجاح دفع شعب إمبراطوريته الضخمة، التي ورثها إلى عبادة إله واحد هو آتون.

وكان الأب إمنحتب الثالث قد أسس هذه الإمبراطورية بعد وصوله السلطة في سنة 1390 قبل الميلاد.

وقد استطاع إمنحتب الثالث أبو إخناتون إقامة علاقات دبلوماسية مع الممالك المجاورة، وخلق مرحلة رائعة يعم فيها السلام وقيم الإخاء.

وقد أعطى هذا العصر الذهبي في التاريخ المصري دَفعة لجماعة آمون رع ليتسود جميع الآلهة.

وبينما ترتفع مكانة ونفوذ الإله آتون وكذلك كهنته، فقد سيطرت هذه الجماعة على ثلث ثروة البلاد وسريعًا أصبحت هذه الجماعة تحظى بقوة ونفوذ الفرعون الحاكم نفسه.

وآتون هو الإله الذي أعلن عنه الملك إخناتون واعتبر الشمس الإله الموحّد الذي لا شريك له، ونور آتون يفيد جميع الأجناس.

ويمثل آتون في شكل قرص الشمس، بأشعتها التي تنتهي بأيدٍ بشرية، لتمنح الحياة والرخاء للأسرة الملكية.

وبعد وفاة إخناتون، عاد آتون مرة أخرى لمكانته الأولى، كأحد الأرباب المصرية.

فقد عرف المصريون القدماء التوحيد قبلَ دعوة التوحيد التي تبناها الملك إخناتون ولكن كان هناك دائمًا إله مسيطر على باقي الآلهة، فدعوة التوحيد كانت قائمة منذ عصر تحتمس الرابع وفعلها إخناتون حيث كانوا يؤمنون بعدة آلهة أخرى بجانب الآلهة الرئيسية، والآلهة الرئيسية هي: أتوم في عين شمس (هيليوبوليس)، وبتاح في ممفيس، وتحوت في الأشمونين، وآمون في طيبة، وحورس في الأقصر، وخنوم في أسوان، وآتون في تل العمارنة.

هذه كانت أسماء الآلهة التي ظهرت في وجود الإله آتون الذي ظل بأسمائه القديمة الإله الأكبر لهذه الآلهة الأعظم خالق الكون والحياة.

فلقد كان قدماء المصريين ينظرون إليه على أنه إله واحد أزلي لم يكن قبله شيء وخالق الآلهة وكل شيء ونظم الدنيا، إلا أن قدماء المصريين أشركوا به

وشاركوا معه آلهة أخرى، إلا أن الإله آتون ظل بأسمائه القديمة الإله الأكبر لهذه الآلهة.

وربما يكون إمنحتب الثالث قد أدرك نفسه هذا الخطر الداهم الناتج عن تصاعد نفوذ جماعة الإله آتون وكهنته وسيطرتهم على ثروات البلاد، لأنه بدأ يبدي اهتمامه بعودة تعدد الآلهة والاهتمام بآلهة أخرى متوقِّعًا أن تسير خلفه الرعية كما جرت العادة، ولكن المنية وافته في عام 1352 قبل الميلاد ليخلفه ابنه إمنحتب الرابع «إخناتون».

ورغم وجاهة توحيد الآلهة التي عمل عليها إخناتون، وعظمتها أيضًا، إلا أن أكبر خطأ وقع فيه وتسبب في انهيار الإمبراطورية بعد موته هو أنه حاول تحقيق هدف نبيل بطريقة كارثية!

فقد حاول إخناتون فجأة، تغيير كل شيء في حياة مجتمع، هو من أشد المجتمعات التي عرفها التاريخ، تمسُّكًا بالعادات ومحافظة على التقاليد راضٍ عن تعدد الآلهة ويكره التغيير وتراه الأغلبية كارثة.

وأثناء بداية ثورته الدينية، تخلص إخناتون بصورة وحشية من رئيس وكهنة آمون لإبعاد هذه السلطة الدينية الكبيرة عن الأحداث في طيبة، حيث كان إخناتون يستبدل بالإله آمون الإله آتون.

في نفس الوقت، خصص الكثير من معابد الكرنك لعبادة الإله الجديد.

وقد أخطأ إخناتون عندما تجاهل بصورة غريبة تعدد آلهة المصريين، وبدلًا من إقناع المصريين بتوحيد آلهتهم في إله واحد استخدم القوة والخديعة والبطش بكهنة الآلهة الأخرى واستخدم سياسة التهديد والوعيد، فنزلت أفكاره هذه كالصاعقة، على شعب يؤمن بالتعددية الدينية، ويتعايش معها منذ آلاف السنين.

وهكذا أخطأ إخناتون عندما استخدم نفوذه وقوته وسلطته إلى حد الغلو في دعوة الناس إلى عبادة إله واحد أحد هو قرص الشمس «آتون» وهو ما كان

مخالفًا لما درج عليه قومه من تقديس معبودهم وقتها «آمون».

وفيما يُسجَّل لإخناتون الذي عاش وحكم نحو سنة 1390 قبل الميلاد أنه كان من رواد دعوة أو فكرة التوحيد حسب مقاييس زمانه إلا أن أكبر خطأ ارتكبه هو تلك المأساة التي شهدها العام الثاني عشر من عهده، حين استخدم كل نفوذه وكل إمكانات دولته في التدمير والهدم لكل رموز الآلهة القديمة لـ «آمون»، وفي نفي وتشريد الدعاة والكهنة وكل من كان يؤمن بها.

وانشغل إخناتون بالأمر لدرجة أنه أهمل احتياجات رعيته ورغبات شعبه، وهكذا فحين رحل عن الدنيا في عام 1336 قبل الميلاد كان طبيعيًّا أن تنتكس دعوته وأن يرتد الناس إلى طقوس المعبود القديم وأن تتراجع البشرية إلى الوراء عن فكرة الإجماع على معبود واحد.

3

قصور الرؤية

تشرذم اليهود

بدأ صعود اليهود كقوة في المنطقة تحت حكم الملك شاؤول في سنة 1020 قبل الميلاد.

وقد عزز خليفته الملك داود (ديفيد) مكانة اليهود كقوَى في المنطقة مستخدمًا مزيجًا من الدبلوماسية والنجاحات العسكرية.إنه داود الذي وحد فعلًا القبائل اليهودية الاثنتي عشرة في مملكة واحدة.

وعندما هزم داود إشبعل ابن الملك شاؤول في عام 993 قبل الميلاد خلفه سليمان الذي حكم كأحكم ما يكون حتى سنة 931 قبل الميلاد.

في تلك المرحلة كان اليهود أغنياء وأقوياء تربطهم معاهدة مع كل جيرانهم وكانوا أكثر من قادرين على حماية أنفسهم. وكان اليهود على مفترق طرق تجارية

في عهد سليمان وفي عهده تم بناء الهيكل في القدس.

وبعد وفاة سليمان كانت المشكلة التي ظهرت هي انقسام وتشرذم اليهود وأصبحوا يتنازعون على مَن يسود ويسيطر.

وبسبب هذا الانقسام ضعفت قوتهم وأصبحوا لقمة سائغة في فم جيرانهم.

4

الثقة المفرطة..

هزمت الفرس

هناك وقت كانت فيه الحضارة في الغرب تنقسم ما بين ثقافتين. الثقافة الكبرى كانت تتركز في الإمبراطورية الفارسية التي كانت تقوم على وجود حاكم قوي كل شيء يرتبط به، والكل يخدمه هو، ويطيع أوامره هو، دون الاهتمام بمواطني الإمبراطورية.

أما الثقافة الأخرى، فكانت أكثر ديناميكية، ولكن أصغر، وأكثر فقرًا، وتمثلها الديمقراطية الناشئة في بلاد اليونان أو الإغريق.

وعلى الرغم من حقيقة وجود مدن يونانية قديمة ذات حكم ديكتاتوري -كما إسبرطة- إلا أن مواطنيها كان يتم تكريمهم على أعمالهم البطولية.

حقيقة أخرى وهي أن اليونان -بوجه عام- كانت تنعم بديمقراطية، عكس الفرس الذين أنتجوا ديكتاتورية امتدت حتى اليوم كما في إيران والعراق ودول أخرى انحدرت من إمبراطورية الفرس. أما الثقافات الأوروبية فقد انحدرت من الثقافة اليونانية بعاداتها وتقاليدها.

وفي سنة 480 قبل الميلاد لم تكن الأحوال على ما يُرام بالنسبة لإمبراطور الفُرس (إكسريكسيس) خاصة في ضوء غزوه لليونان.

وكان هدفه هو الانتقام لخسارة أبيه في معركة «الماراثون»، وضم المدن اليونانية إلى إمبراطوريته الفارسية.

ووصل إكسريكسيس إلى أثينا ودمرها وهرب الأثينيون إلى المدن المجاورة واختبؤوا فيها.

واستمر الجيش الفارسي في الزحف باتجاه الجنوب ليهاجم بسهولة المدن الأصغر ومعه سفن كثيرة أبحرت

معه من موانئ الإمبراطورية عبر بحر إيجه، حيث كانت السيطرة على سواحل اليونان في غاية الأهمية.

فلم يكن هناك من الطعام والمؤن في شمال اليونان ما يكفي جيش إكسريكسيس الجرَّار.

وكانت هذه السفن التي تأتيه من الإمبراطورية هي المصدر الوحيد لإطعام الجيش الفارسي.

وبينما كان الإمبراطور الفارسي يجتاح مدينة ثيرموبليا هبت عواصف عنيفة على بحر إيجه، وفقد إكسريكسيس ثلث سفنه الحربية في هذه العواصف، ومع ذلك ظل الإمبراطور الفارسي يمتلك أربعة أمثال السفن اليونانية في أسطوله.

وعندما بدا الانتصار جليًّا للفرس، كانت المدن اليونانية تستجمع قواها وضمت كل سفنها المتفرقة في أسطول واحد يضم 370 سفينة تحت قيادة ثيموستوكليس.

كان ثيموستوكليس أحد أبرز الزعماء اليونانيين. كان شجاعًا، وداهية، ومخادِعًا، وماهرًا في الحرب.

ثيموستوكليس حث مواطنيه على بناء أسطول بحري ضخم وقد كان. فلما عاود الفرس هجومهم سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، أقنع القضاة اليونانيين بإخلاء مدينة ثيرموبيلاي قبل الهجوم الوشيك، بحيث ينجو معظمها من الدمار الذي يمكن أن تجرَّه عليها المقاومة.

وفي هذه الأثناء قاد ثيموستوكليس الحرب البحرية ضد الأساطيل الفارسية ودمرها في معركة سالاميس.

وكانت خطة ثيموستوكوليس تتلخص في أن ينسحب الأسطول اليوناني انسحابًا تكتيكيًّا إلى العمق والسيطرة على مضيق سلاميس وهذه الخطة ستجعل الأعداد الضخمة للسفن الفارسية غير ذات جدوي في موقع ضيق ومحدود.

وبالتالي تلاشت أي ميزة عددية للفرس أمام ضيق المكان حيث أصبح من الناحية التكتيكية غير قادر على الانتشار والمحاصرة، وهو ما استغله اليونانيون استغلالًا عبقريًّا.

وبهذا خدع ثيموستوكليس الأسطولَ الفارسيَّ، وقائده الملك زركسيز أو خشيار الأول أو لجره إلى معركة تصبح الغلبة فيها لقدرة سرعة السفينة وسهولة المناورة.
وبالفعل فقد قام القائد اليوناني بنشر قواته على رأس المضيق مما سمح للسفن الفارسية بالنفاذ إلى العمق.

ومن ثم قام بتطويقهم بشكل محكم، وفي هذه الأثناء قام القائد اليوناني الداهية بإرسال رسالة مخادعة إلى إكسريكسيس تتعهد بانضمام ثيموستوكليس إليه في حالة ما إذا هجم على اليونانيين.

وفعلا انطلت الخدعة على قائد أسطول إكسريكسيس، مما حفز القائد الفارسي على الإسراع في الهجوم على المضيق، وشن هجوما متسرعًا في غير صالحه.

فلقد استغلوا العمق التكتيكي لهم بالمضي قُدمًا صوب الأسطول الفارسي وكسر تشكيلاته وتدمير سفنه بهجوم رأسي مباشر كانت الميزة فيه لصالح السفن اليونانية التي كانت أكثر صلابة من ناحية وأكثر

تمركزًا وتجمعًا من ناحية أخرى، فتفتتت القدرة الفارسية على المقاومة وتمزق أسطولهم إربًا واضطر إكسريكسيس للانسحاب الفوري يجر أذيال الهزيمة معه.

وبعد الحرب راح ثيموستوكليس يضايق اليونانيين على نحو موصول من أجل الإبقاء على أسطول بحري جاهز دائمًا، في حال تجدد الهجوم الفارسي.

لقد دفع إمبراطور الفرس ثمن ثقته المفرطة في قدرة جيشه على اجتياح المدن اليونانية، وهذا هو خطأ رهيب في تقدير الموقف وعدم حساب بُعد جيشه عن عاصمة الإمبراطورية، مما يجعله رهينًا بما تحمله سفنه من مؤن.

ولم يحسب أيضًا تقلبات البحر مما يجعل سفنه رهينة باستقرار الأحوال الجوية في منطقة معروفة سلفًا بعواصفها العنيفة.

5

و

6

المخاطرة بكل شيء

سر تدهور الأمم

لقد تطلب الأمر ارتكاب خطأيْن مختلفين لتدمير قوة أثينا القديمة ولكن بصورة غير معقولة استطاع زعماء المدينة ارتكاب هذين الخطأين معًا.

وهناك بعض الحروب التي تنطوي على أخطاء عسكرية وسياسية، كما هو الحال هنا في الحرب البيوبونيزية.

وقد اندلعت الحرب بين أثينا وإسبرطة منذ البداية عندما أساءت إسبرطة تقدير رد فعل أثينا على قيامها

بغزوها. وكان هذا الصراع العسكري مفعمًا بالأخطاء الكارثية.

ونتيجة لأخطاء لا تنتهي وسوء التقدير والنرجسية المفرطة، استمرت الحرب عشرين عامًا وانتهت فقط عندما وجد الأثينيون طريقهم نحو خسارة الحرب.

ولكن حتى وسط هذه السلسلة من الأخطاء المنتقاة خطآن كانا السبب المباشر في نقل أثينا من موقف من يشرف على الانتصار إلى موقف من يتجرع الهزيمة قبل نهاية عام واحد من الحرب.

عام 435 قبل الميلاد، بدأت الحرب بسبب التجارة، وكانت أثينا مدينة عظيمة وغنية ومتحضرة.

وكانت تعيش الديمقراطية، وكان عندها الكثير من الفنانين والنجارين والتجار من بلدان أخرى، وكان لأثينا لمعانٌ فنيٌّ، وغارت إسبرطة منها كثيرًا فأرادت الحرب معها.

وكانت إسبرطة تمثل ديكتاتورية يحكمها أشخاص، وكانت أثينا تمثل الديمقراطية ويحكمها قرار الأكثرية.

كانت معركة ديليوم هزيمة برية كبرى مُني بها الأثينيون في النصف الأول من الحرب، كانت جزءًا من خطة أثينية لاحتلال أراضي جيرانهم البويدجيان.

كانت الخطة تضم ثلاثة هجومات متزامنة في اليوم نفسه، من الشرق والجنوب والشمال الشرقي، حيث تقع بويدجيا.

مع الأسف وقع الخطأ الأكبر حيث تسربت الخطة إلى بويدجيا وكان التوقيت خاطئًا، فبدأ القتال في الهجوم الجنوبي والغربي قبل وصول الأثينيين إلى «بويدجيا»، مما لفت النظر إلى جيش أثينا، عندها ظن الأثينيون بأن الأمور فسدت وكادوا ينسحبون.

خسر الأثينيون الكثير من قواتهم الخفيفة السلاح، وقد أعيدوا إلى مدينتهم، وبقي الجيش المؤلف بأكثره من المشاة الثقيلي السلاح.

وكان هذا الأمر ضد مصلحة الأثينيين المواجهين من جانب واحد، لكن سكان بويدجيا كانوا متطورين في التكتيكات المكوكية مع القتال الثقيل السلاح، لقد استطاعوا هزيمة الأثينيين بجمع جيشهم في جهة واحدة، وخرْق المدافعين الأثينيين مما جعل الأثينيين يلوذون بالفرار.

ترك أبوقراط نفسه في ميدان القتال في «ديليوم» مع ألف أثيني من المشاة الأشداء، خسارة القوة البشرية كانت صفعة لأثينا إضافة إلى كلفة الحرب المتزايدة.

كانت المشكلة أن الأثينيين يصرفون مالًا، هذا أدى إلى أزمتين: الأولى: كلفة طلب أسطول وإبقائه عائمًا طوال شهر.

كان الأثينيون يرسلون في السنة الواحدة 100 سفينة تبقى ثلاثة أو أربعة أشهر في البحر، كان هذا استنزافًا لها، والأسوأ أن عمليات الحصار كانت مكلفة جدًّا، الأزمة الأخرى: حصار «بوباديوا» في بداية الحرب

الذي كلف الأثينيين الكثير من أجل حصار مدينة صغيرة.

وكان الأثينيون يصرفون ما يمكن أن يكفي ألفي نسمة، نظرًا إلى شح الموارد بسبب ثورة الإسبرطيين على حلفاء أثينا، وتوقف المساهمة الإمبراطورية ستعاني أثينا من مشاكل خطرة.

بدأت أمواج الحرب تنقلب على أثينا، لكن المدينة الكبيرة لم تسقط بعد، عام 426 قبل الميلاد وجد ديموستينوس الأثيني طريقه إلى الشهرة المعاصرة، كان جنديًّا عنيدًا أنقذت أعماله أثينا في مناسبات عديدة، وكان هناك بعد البحرية الأثينية الخبيرة التي تمارس تفوقها في البحر.

وهنا الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الإسبرطيون وهو أنهم تجاهلوا أنه بينما هم متفوقون في القتال البري، فإن الأثينيين هم الأكثر مهارة وتفوقًا في القتال البحري.

وفي محاولة لهزيمة سيطرة أثينا البحرية حاول الإسبرطيون السيطرة على القواعد البحرية عند مدخل خليج «كورنيت»، وهذا خطأ فادح يتجاهل تفوق أثينا البحري.

وبعد هزيمتهم شر هزيمة، لأنهم حاولوا اللعب في ملعب أثينا البحري، وإثر هذه المعركة الطويلة اشترى الإسبرطيون سلامهم وتركوا كل شيء.

7

الخرافة..

المخاطرة بكل شيء

لقد تطلب الأمر ارتكاب أخطاء جسيمة لتدمير قوة أثينا ولكن بجهد عظيم لقادة المدينة أنفسهم لارتكاب هذه الأخطاء.

لقد دخلت أثينا حربًا مع إسبرطة تم فيها ارتكاب أخطاء كثيرة من كلا الجانبين ولكنها ولحسن الحظ انتهت بظهور فكرة الدولة.

فبحلول عام 431 ق.م كانت أثينا وإسبرطة قوتان كبيرتان في العالم الإغريقي بأسره، وكان لكل منهما حلفه الخاص ولكل منهما نظامه السياسي المختلف تمام الاختلاف عن الآخر، ولكل منهما مصالحه الاقتصادية المتباينة عن مصالح الآخر.

وخلال الفترة ما بين 431 و404ق.م نشبت حرب ضروس بين أثينا الراغبة في تأسيس إمبراطوريتها وعدَدٍ من المدن المناهضة لهذه الرغبة بزعامة إسبرطة.
وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز، وكانت أحداثها سجالًا في مراحلها الأولى إذ كانت معظم المعارك البحرية تنتهي بتفوق أثينا، والبرية بتفوق إسبرطة.

لكن المرحلة الثانية شهدت نجاحًا إسبرطيًّا في إنشاء أسطول بحري تمكن من حصار أثينا وإكراهها على إنهاء الحرب وقبول شروط التسليم، وأهمها الاعتراف بزعامة إسبرطة وهيمنتها.

على أن إسبرطة لم تكن مؤهلة للدور القيادي الذي آل إليها في بلاد اليونان، ووقعت، نتيجة عزلتها السابقة، في الأخطاء نفسها التي وقعت فيها أثينا من قبل.
وكان طبيعيًّا أن تؤدي معاملتها حلفاءها معاملة قاسية إلى تدهور علاقاتها معهم، وبرزت من بين الحليفات مدينة طيبة التي لم تعد تحتمل صلف إسبرطة

وغرورها وخاضت ضدها معركة قضت على كل آمال إسبرطة وأحلامها السياسية والعسكرية وهي معركة لوكترا التي فتحت المجال لبروز أثينا مرة أخرى.

فمن ناحية تنامي القوة كانت أثينا قد تمكنت من تشكيل تكتل كبير عُرف في التاريخ باسم «حلف ديلوس» نسبة إلى جزيرة ديلوس التي وضعت فيها خزانة الحلف المالية.
وكان هدف أثينا من تشكيل هذا الحلف الاحتفاظ بأسطول قوي يقوم الحلفاء بتمويل تكاليفه والتكفل بصيانته والإنفاق عليه ودفع نفقات الجنود اللازمين له.

وكان لأثينا بحكم قوتها الكبيرة ومكانتها العالية وثروتها الطائلة وريادتها الحضارية حق قيادة هذا الحلف. وكان لها شرف إمداده بالجنود فيما انحصر دور الحلفاء في الإنفاق المالي.

وأكدت هذه الآلية في عمل الحلف نزعة السيطرة الأثينية على دول الحلف والتي تنامت إلى الحد الذي

قامت معه أثينا بإرغام بعض المدن على الانضمام قسرًا إلى حلف ديلوس، مثلما كان الحال مع مدن كاريسنوس وناكسوس، وكذلك مدينة ثاسوس التي تم إخضاعها بقوة السلاح عندما أرادت الانفصال عن الحلف.

ومع تأكد أدوار حلفي أثينا وإسبرطة قامت أثينا بعقد تحالف مع مدينتي أرجوس وتساليا.

وكانت هذه الخطوة بالذات مؤشرًا خطيرًا دق ناقوس الخطر عند إسبرطة، لأن أرجوس وتساليا عدوتان كبيرتان لإسبرطة.

وكان لانضمامها إلى أثينا في الحلف معنىً خطيرٌ يؤكد نوايا أثينا السيئة ضد إسبرطة، وزاد الأمر سوءًا انسحاب مدينة ميجارا من حلف البلوبونيز وانضمامها إلى حلف ديلوس مما زاد في تردي العلاقات بين أثينا وإسبرطة.

وتبع ذلك قيام أثينا بالسيطرة العسكرية على كورنثا وإيجبينا والقيام بضم مدن أخرى إلى حلفها مثل زاكينثوس وكيفالينا مما جعل من أثينا الدولة الأقوى في كل بلاد الإغريق دون منازع.

وبالمقابل كانت إسبرطة قد تنامت بدورها بفعل نظامها العسكري الصارم وسيطرت تمامًا على مدن شبه جزيرة البلوبونيز مكونة قوة برية هائلة قوامها اقتصاد زراعي يعتمد على ملكية الأرض، متعارضةً بذلك مع مصالح أثينا التي كانت تعمل على تشجيع المد الديمقراطي المتعارض مع الديكتاتورية العسكرية الإسبرطية، بالإضافة إلى ما وصلت إليه أثينا من ازدهار اقتصادي وثراء فاحش جلب إليها الحسد من قبل إسبرطة التي حاولت جاهدةً أن تنافس أثينا بكل الطرق الممكنة.

وإن كانت أثينا قد ازدهرت على حساب حليفاتها ونمت فيها كل أوجه الحياة فإن إسبرطة حافظت على نظامها السابق الذي يتسم بالتقشف، ولم يتمكن

اقتصادها الزراعي من مقارعة اقتصاد أثينا الذي يعتمد على التجارة والصناعة وموارد المدن الحليفة.

فظلت إسبرطة مدينة فقيرة بالقياس إلى قرينتها أثينا، وظلت عملتها تصنع من الحديد ولم تتمكن أبدًا من إصدار عملة من الفضة مثلما فعلت أثينا.

ورغم أنها نجحت في قيادة الأساطيل الإغريقية ضد الفرس إلا أن ذلك لم يشفع لها بأن تكون القوة الاقتصادية الأولى لاعتمادها نظامًا اقتصاديًّا يميل نحو الملكية الجماعية والحد من ملكية الفرد.

انتهت حرب الإغريق مع الفرس بانتصار المدن الإغريقية المتحالفة وكانت أثينا هي المستفيد الأكبر من هذا الانتصار إذ تنامت القوة الاقتصادية بشكل كبير، وتمكن الإغريق من السيطرة تمامًا على التجارة البحرية.

وأصبحت مدينتا كورنثا وإيجبينا أكبر مراكز للتجارة في بلاد الإغريق، وانضم ميناء بيريوس إلى قافلة

الموانئ المزدهرة التي كانت تزدحم بالسفن والبضائع القادمة من كل أرجاء العالم القديم، وخاصة بعد أن أخلى الفينيقيون الساحة للتجار الإغريق بعد هزيمتهم العسكرية في البحر المتوسط، فتدفقت الثروات على إقليم أتيكا.وأصدرت أثينا عملتها الفضية التي تم تداولها في كل أسواق المتوسط.

على العكس من ذلك، لم تكن «إسبرطة» تتمتع بنفس الدرجة من الرخاء لكنها احتفظت بحلفها العسكري مع مدن البلوبونيز وحافظت كذلك على قوتها العسكرية، لكنها أصبحت تتخوف من قيام أثينا بتحريض مدن الحلف على الخروج على الطاعة، خاصة أن شعبية بركليس زعيم أثينا كانت طاغية وأنه بدأ بالقيام بتحصينات عسكرية وجعل من ميناء بيريوس مكانًا محصنًا تحسبًا لأية مواجهة مع إسبرطة.

وقد بدأت المواجهة فعلًا عندما اشتدت المنافسة التجارية بين أثينا وبين إيجينا حليفة إسبرطة الواقعة على الحدود مع أثينا.

وبدأت الحرب وقامت أثينا بحصار «إيجينا» ثم استولوا عليها وسيطروا بعد ذلك على ميجارات وبويوتيا رغم أن إسبرطة قامت بواجبها نحو حليفتيها دون أ ن تفلح في إنقاذهما من براثن أثينا.

وقد استخدم بركليس أسطول أثينا في العمليات العسكرية وفي حصار السفن التجارية التابعة لكورنثا حليفة إسبرطة.

وبلغ من ثقته في قوة أسطوله أنه بعث في نفس الوقت أسطولًا لمساعدة مصر في ثورتها ضد الفرس، إلا أن هزيمة أسطوله هناك جعلته مجبرًا على نقل خزانة الحلف من ديلوس إلى أثينا، إلا أن أثينا احتفظت في نهاية الحرب بإيجبينا وبسيطرتها على جزيرة بويوتيا مع اتفاق يقضي بأن تمتد الهدنة لثلاثين عامًا.

وإن كانت هذه الحرب قد انتهت فإنها خلفت وراءها مدنًا منهكة مثَقَّلة بالديون سواء كانت من حلف ديلوس أم من حلف البلونيز، بالإضافة إلى أن بركليس

لم يظهر بنفس مواهبه كقائد سياسي محنك عندما تولى القيادة العسكرية، ولكنه رغم ذلك بدأ في العمل بكل جدية من أجل إعادة بناء أثينا وبعث القوة في اقتصادها حتى وصلت خلال نصف مدة الهدنة فقط إلى درجة عظيمة من التألق والعظمة في كل مجالات الحضارة.

وهكذا جعلها تتبوأ مكانًا كبيرًا في العالم القديم وعرفت مع بركليس عصر ازدهار لا مثيل له.

لكن بعض دول حلف ديلوس أرادت شق عصا الطاعة على أثينا التي عاملتها بقسوة وأجبرتها على العودة إلى الحلف بالقوة العسكرية وبالغت في معاملتها بما يشبه الاستعباد، حتى إنها كانت أحيانًا تطرد سكانها ليحل محلهم سكان أثينيون.

وأصدر بركليس قانونًا يقضي بمنح حق المواطنة للأثينيين فقط وحرمان سكان المدن الحليفة لأثينا من هذا الحق.

وجعل من أثينا مقرًّا للمعاملات الإدارية لكل مواطني المدن الحليفة لأثينا مما جعل مواطني هذه الدول يراسلون إسبرطة سرًّا طالبين عونها للتخلص من سيطرة أثينا.

وكانت هذه فرصة ذهبية لإسبرطة التي حسدت أثينا على ثرائها فيما كانت إسبرطة تعيش في وضع اقتصادي صعب تصاحبه أمية بين السكان، حيث لم يكن أغلبهم يعرف القراءة والكتابة فيما كانت علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات مزدهرة في أثينا، كما أنها كانت بلا أسوار ولا تحصينات.

ثم جاءت الحرب الثانية بعد أن أسست مدينة كورنثا مدينة تابعةً لها في مدينة كوركيرا كانت تملك أسطولًا قويًّا في ذلك الوقت.

ورغم أن كورنثا تعتبر هي المدينة الأم بالنسبة لكوركيرا إلا أن هذه الأخيرة احتجت عندما تدخلت كورنثا في شؤونها.

وكعادة المدن الإغريقية دخلت المدينتان في حرب كبيرة انتصرت فيها كوركيرا فلجأت كورنثا المهزومة إلى حليفتها إسبرطة، فيما لجأت كوركيرا إلى أثينا ومعها دول حلف ديلوس التي رحبت بدخول كوركيرا صاحبة الأسطول الكبير.

وهكذا نشبت الحرب وبادر بركليس إلى مهاجمة ميجارا وطرد تجارها من موانئ الإمبراطورية الأثينية فأفلست ميجارات واتهم أعضاء حلف البلوبونيز أثينا بنقض الهدنة.

وفي عام 432 ق.م، اتخذ حلف البلوبونيز قرارًا بإعلان الحرب، وطيلة عام كامل كان الاستعداد للحرب ودخلت مدينة طيبة على الخط وهي حليفة إسبرطة فهاجمت بلاتيا وساءت الأمور بين المدينتين ثم تبعتها العمليات العسكرية المتبادلة بين الحلفين حتى كان الهجوم الكبير لإسبرطة على إقليم أتيكا مما نتج عنه وباء كبير انتشر في أثينا وطال حتى بركليس زعيم أثينا.

ثم قامت جيوش إسبرطة وحليفاتها بتدمير مزارع إقليم أتيكا لتضرب بذلك مركز التموين وجانبًا من الاقتصاد الأثيني.

وتبع ذلك وفاة بركليس مما ألحق بأثينا خسارةً سياسية فادحة لم يتمكن ساستها من تغطيتها، ومع استمرار الهجوم الإسبرطي على أثينا وتركزه هذه المرة على بلاتيا التي لم يصلها عون أثينا فاستسلمت وتعرضت لانتقام جنود مدينة طيبة ثم ألحق الأسطول الأثيني هزيمة كبيرة بأسطول البلوبونيز.

ولكن ذلك لم يمنع جزيرة ليزبوس من الثورة على حلف ديلوس فأحكمت أثينا عليها الحصار واحتلتها من جديد.

وتبع ذلك الكثير من الاضطرابات داخل حلف ديلوس أنهكت قوة أثينا، ثم كانت الهدنة الثانية التي نصت على معاهدة سلام يستمر لمدة خمسين عامًا وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين وهو ما عرف باسم سلام نكياس.

وجاءت الحرب الثالثة بعد أن رفضت كورنثا وميجارا وبيوتيا أن توافق على المعاهدة فأدى ذلك إلى تغير في التحالفات توج بتوقيع إسبرطة معاهدة دفاع مع أثينا حلت على إثرها العصبة البلوبونيزية وتغيرت خارطة التحالفات بين المدن إلا أن أثينا نقضت اتفاقها مع إسبرطة فوقعت الحرب مجددًا بينهما.

وهذه المرة عبر سيراكوزا التي انتصر أسطولها على أسطول أثينا مما أنهك أثينا تمامًا وعرضها للفوضى وأفقدها الحلفاء فهاجمتها إسبرطة هجومًا نهائيًّا وكان بإمكانها تدميرها تمامًا وبيع أهلها كعبيد في الأسواق إلا أنها اكتفت بإجبارها على التنازل عن أسطولها والاكتفاء باثنتي عشرة سفينة فقط وأن تصبح حليفة لإسبرطة.

ويمكن القول إن أخطاء الحرب بين أثينا وإسبرطة هي التي أدت إلى نشوء فكرة الدولة.

فهذه الحرب بالذات هي التي أدت بالإغريق إلى ابتكار نظام المدينة الدولة أو الدولة المدينة، وهو النظام

الذي كان وليد عوامل الجغرافيا بالدرجة الأولى وساهمت في تعزيزه اتجاه الإغريق النفسي وميولهم وتقبلهم الكبير لفكرة استقلال كل جزء عن الآخر استقلالًا سياسيًّا وعسكريًّا، بل واتخاذ مواقف متباينة تصل في الكثير من الأحيان إلى حد الاختلاف بل إلى إعلان الحرب وتكوين الأحلاف ذات الطابع العسكري أو الاقتصادي العسكري.

ومع فقر بلاد الإغريق في مجال الموارد الزراعية وإنتاج الحبوب كان لا بدَّ أن يستخدم سلاح الاقتصاد في الحروب والمنازعات التي كانت تقع بين المدن الإغريقية وبعضها فأثر ذلك على السياسة بينها، حتى إن إسبرطة لجأت في حربها ضد أثينا إلى تخريب المحاصيل الأثينية وسد المنافذ التجارية لأثينا، مما كان له الأثر الكبير في تدهور أوضاع أثينا العسكرية. هكذا كانت إذًا بدايات فكرة المدينة الدولة وبعض من ملامحها.

8

الجبن..

كيف تفقد إمبراطورية؟

في عام 331 قبل الميلاد، اتخذ إمبراطور الفرس داريوس الأول أو دارا الأول قرارًا أثناء معركة جوجاميلا (وقعت قرب ما يعرف اليوم بمدينة أربيل شمالي العراق) أدى في النهاية إلى انهيار إمبراطوريته وانهيار حكمه هو وسقوطه سقوطًا ذريعًا، وسقوط عاصمة الإمبراطورية.

فقد كان عدد جنود جيشه يفوق كثيرًا عدد جنود خصومه وكان يسمح له هذا التفوق بأن يقاتل وقتما يريد. وفي مرحلة ما من الحرب خسر كل شيء بسبب قرار خاطئ.

فقد كان لا يزال لدى الإمبراطورية الفارسية أعداد كبيرة من القوات التي لم تنخرط في القتال بعدُ، بينما

خصومه كانوا يقاتلون بآخر ما لديهم من قوات الاحتياط.

وكان وضع دارا أفضل مما كان قبل سنوات قليلة، عندما فر أمام قوات الإسكندر في موقعة إيسوس، بعد أن أدرك أنه خسر المعركة.

فقد عاد أدراجه إلى بابل دون أية آثار سلبية على سيطرته على إمبراطوريته.وهناك راح يجهز جيشًا أكبر وأقوى.

وكان هدفه الأساسي من ذلك الرغبة القوية في هزيمة جيوش الإسكندر في الصراع العسكري الدائر.

وكانت نجاة دارا من هذا الصراع مهمة للغاية للحفاظ على الإمبراطورية المتمركزة حول شخص الإمبراطور.

أما الإسكندر فقد كانت لديه رغبة قوية في هزيمة دارا الثالث وأسره أو قتله. وكانت مشكلة دارا الثالث أنه جبان ورعديد عندما يتعلق الأمر بأمنه الشخصي

وسلامته الشخصية لدرجة الجنون، وعندما انسحب أمام الإسكندر كان فأرًا مذعورًا.

وقد أصابته هذه المسألة بخوف رهيب أصابه بجبن أفقده كل ما كان لديه من شجاعة تعرف عنه.

فبمجرد أن أدرك أن قوات الإسكندر اقتربت من عاصمة إمبراطوريته حتى ركب عربته الإمبراطورية الحربية وفر هاربًا من المعركة رغم أن قوات الإسكندر كانت قليلة بالنسبة لقواته، ولو صمد لكان المقدونيون قد لقوا شر هزيمة.

وكان كل شيء هذه المرة الثانية والأخيرة، أي الفصل الثاني والنهائي من الحرب، لصالح دارا.

ولكن دارا كانت لديه مشكلة شخصية تتمثل في الذعر، الذي كان يجتاح أوصاله من مواجهة الإسكندر الأكبر القائد الذي كان مسؤولا مباشرة عن قوات خصمه، وخوفه المبالغ فيه من الوقوع في الأسر الأمر

الذي لم يجعله يرى كم هو جيشه أقوى وأكثر عددًا وقدرة على تحقيق النصر.

فقد كان الإسكندر الأكبر وانتصاراته تُمثل -نفسيًّا- كابوسًا مروِّعًا لدارا، ولكن الميزان كان لا يزال لصالح دارا.

وكانت قواته تضغط بقوة لدفع قوات الإسكندر للتقهقر والعودة إلى بلادهم بقيادة قائد الإسكندر بارمينيون.

وكان دارا دفاعًا عن عرشه يقود الجيش بنفسه. ولكن خوفه على نفسه المبالغ فيه هو السبب في هروبه وانسحابه ولو ثبت لهزم المقدونيين شر هزيمة.

ففي معركة جاوجاميلا، كان جيش الإسكندر الأكبر مكونًا من 40 ألف جندي مشاة منهكين بعد أن عبروا نهري دجلة والفرات وقابلوا دارا على رأس جيشه الذي كان يقدر بنحو مليون جندي.

ومع ذلك، فقد استطاع جيش الإسكندر التغلب على هذا الجيش وهزيمته هزيمة ساحقة بسبب افتقار دارا

للشجاعة في هذه المعركة التي جرت في أكتوبر عام 331 ق.م. فيما فرَّ داريوس مرة أخرى كما فعل في «أسيوس».

ومن أسوأ ما فعله خوف دارا الثالث على نفسه المبالغ فيه أنه في خضم المعركة وكان حسب مشورة قادته لا بد من إرسال القوات لمحاصرة ميمنة جيش الإسكندر، رفض لحرصه على إبقاء معظم القوات على مقربة منه لحمايته في المعركة فكان الثمن أن أطبقت عليه قوات الإسكندر من الميمنة والميسرة وكانت النهاية.

وقد حوصرت مدينة بابل بعد معركة جاوجاميلا وكذلك مدينة سوسا حتى فُتحت فيما بعد.

وبعد ذلك، وفي منتصف فصل الشتاء اتجه الإسكندر إلى بيرسبوليس عاصمة الفرس، حيث قام بحرقها بأكملها انتقامًا لما فعله الفرس في أثينا في عهد سابق. وبهذا الاجتياح الأخير الذي قام به الإسكندر أصبحت سيطرته تمتد إلى خلف الشواطئ الجنوبية لبحر الخزر

متضمنًا أفغانستان وبلوشستان الحديثة وشمالًا من باكتريا وسوقديانا وهي الآن غرب تركستان وكذلك تعرف بآسيا الوسطى.

وهكذا سقطت إمبراطورية الفرس بيد الإسكندر بعد أن احتل بابل من دون معركة.

وتابع سيره إلى عاصمة الفرس في برسيبولس حيث أحرق قصر الملك داريوس. حاول الملك داريوس إعادة تنظيم قواه وبعث القوة في أنصاره لمتابعة الحرب، ولكنه اغتيل العام 330 ق.م على يد أحد مساعديه.

9

نقص التخطيط

وفاة الإسكندر الأكبر

قليل جدًّا من شخصيات التاريخ الكبرى يمكن أن نطلق على أحدها «الأكبر» أو «الأعظم».

ويظل الإسكندر المقدوني هو الشخصية التاريخية التي تستحق هذا اللقب الذي حملته وعن جدارة، فلا يوجد رجل آخر في التاريخ قد عبر الحدود الثقافية للعالم كما فعل هو.

كما لا يوجد من استحوذ على اهتمام زعماء وقادة العالم كما فعل هو. وحتى يومنا هذا، يتم تدريس تكتيكات الإسكندر وخططه الحربية في أكاديميات العالم العسكرية، كما كان هو القائد العسكري الذي يمثل النموذج الذي يتم عليه قياس مدى عظمة القادة العسكريين.

وعندما كان يوليوس قيصر يمر بتمثال الإسكندر الأكبر، كان يجثو عند قدمَيْ التمثال ويبكي، ويقول لمساعديه: كيف حقق هذا القائد العظيم كل هذه الإنجازات في حياته القصيرة قبل وفاته في سن الثانية والثلاثين.

ولكن لماذا يحظَى الإسكندر الأكبر بكل هذا الخلود ولماذا لا يزال يستحوذ على اهتمامنا وإعجابنا حتى يومنا هذا؟

ومع هذا السؤال الذي قد يكون من السهل الإجابة عليه من خلال سرد إنجازات هذا القائد المقدوني، يثور السؤال الأهم وهو: إذا كان الإسكندر بكل هذه العظمة فلماذا انهارت إمبراطوريته؟!

الإجابة وببساطة هي أن الإسكندر لم يسمِّ خليفته وهذا هو أعظم أخطائه التي أطاحت بإمبراطوريته؟

الإسكندر الأكبر هو ابن الملك فيليپ الثاني من زوجته الرابعة أوليمپياس. وعلى الرغم من أن فيليپ كانت له

زوجات كثيرات، إلا أن أوليمپياس كانت المفضلة لديه وهذا هو سبب إنجابها بمباركة الملك لوريث عرش دون أبناء الزوجات الأخريات، وهو الإسكندر ويعني «الأسد».

وفي عام 336 ق.م، كان فيليپ قد توجه إلى إيجة لحضور حفل زفاف ابنته كليوپترا على إسكندر الأول ملك إيپروس، أخ زوجته أوليمپياس، فاغتاله قائد حرسه الشخصي.

وبعد مقتل فيليپ بايع النبلاء الإسكندر ملكًا على عرش مقدونيا وقائدًا عامًّا لجيشها، وهو لم يتخطَّ العشرين من عمره.

وقد كانت لدى الإسكندر رغبة قوية في تحقيق حلم والده بتوسعة مملكته لإقامة إمبراطوريته، وإسقاط إمبراطورية الفرس، ومع الوقت ذهب حلم الإسكندر إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث كان يمني النفس بأن يحكم العالم أجمع.

وبالفعل استطاع الإسكندر اقتحام المدن والقلاع الحصينة في آسيا الصغرى، وتابع زحفه جنوبًا وهزم الفرس عند إسوس يقودهم دارا الثالث بنفسه، حيث حقق الإسكندر نصرًا حاسمًا، انكسر على أثره الجيش الفارسي وفرار دارا ناجيًا بحياته.

وقد أتبع الإسكندر نصره هذا بفتح أبواب الشام على مصراعيها، بأن أنشأ مدينة في شمال البلاد على حدود الأناضول، هي الإسكندرونة.

وكان أمام الإسكندر، الآن، أن يختار إحدى خطتين: إما أن يتعقب الفرس إلى بلادهم نفسها، وإما أن يزحف جنوبًا لفتح المدن الفينيقية ومصر قبل أن ينقض على فارس.

وقد وقع اختيار الإسكندر على الخطة الثانية لكي يصون خطوط مواصلاته، ولكي يُحبط كل محاولة قد يقوم بها الأسطول الفارسي لتحريك اليونان إلى الثورة عليه.

وكانت المدن الفينيقية رازحة تحت نير الاستعمار الفارسي الثقيل، ففتحت أبوابها للإسكندر واستقبلته كمنقذ مخلِّص.

بعد تدمير صور، خضع معظم مدن الشام للإسكندر دون قتال، أثناء مروره بها متجهًا إلى مصر، حيث وصل في عام 332 ق.م وكلف أحد معاونيه ويدعى دينوقراطيس لكي يشرف على بناء مدينة تحمل اسم القائد المقدوني، ألا وهي الإسكندرية.

وسار الإسكندر بجيشه متجهًا إلى عقر دار الفرس معتزمًا القضاء على قوتهم العسكرية، فوصل بلاد ما بين النهرين، حيث كان لقاء دارا الثالث وهزمه في معركة جوجاميلا ليفر دارا الثالث ثانية ويكون السقوط المدوي لإمبراطورية فارس وسقوط مدن وعاصمة الإمبراطورية في يد الإسكندر.

ثم حول الإسكندر أنظاره إلى شبه القارة الهندية لفتحها، ثم سار الإسكندر بجيشه وعبروا نهر السند لمواجهة قوات إقليم البنجاب، في معركة ملحمية -

سميت معركة «هيداسبس» الهائلة، وانتصر الإسكندر ثم عاد بجيشه نزولًا على رغبة قواده وجنوده الذين تاقوا للوطن بعد سنوات من الحروب بعيدًا عنه.

وقد توفي الإسكندر في سنة 323 ق.م، في قصره ببابل، في سن الثانية والثلاثين.

وكانت وفاة الإسكندر مُفاجئة، لدرجة أنه حينما وصلت الرسائل إلى اليونان حاملة النبأ، لم يُصدقها الكثيرون من الناس وزعموا أنها إشاعة لا أساس لها من الصحة.

خطيئة الإسكندر أو قُلْ غلطته الكبرى التي أدت إلى انهيار إمبراطوريته التي استمات لإقامتها هي فتحه باب الصراع على حكم الإمبراطورية على مصراعيه مما أدى إلى انقسامها وتقطيع أوصالها وتحولها إلى ما يشبه الممالك الصغيرة المتنازعة والمتصارعة والمتقاتلة.

الإسكندر عند وفاته لم يسمِّ وريثًا يجلس على عرش الإمبراطورية، بل عندما سأله أصحابه وهو على فراش الموت أي الرجال يترك لهذه الإمبراطورية الواسعة، فأجابهم باختصار «إلى الأقوى» مما فتح الباب على مصراعيه لصراع مميت على السلطة كانت نتيجته انهيار ما قام به في حياته من إنجازات مذهلة.

10

القيادة المنقسمة

روما تنحني أمام هانيبال

أحد أسوأ الهزائم في التاريخ العسكري الروماني لم تكن بسبب القيادة السيئة، وإنما بسبب نظام القيادة المهترئ والبالي والمتحجر الذي كان كمن يسعى وراء كارثة ونجح في بلوغها.

وهذا الخطأ كلف روما القديمة 50 ألفًا من أفضل المحاربين في عام 216 قبل الميلاد، والمدينة ذات التلال السبعة التي تمنح السيطرة على إيطاليا.

وفي أوقات الحروب يتم وضع قيادة الجيش في عهدة رجل واحد. ولكن اليونانيين كان لهم رأي آخر أخذ به الرومانيون وهو أن وضع السلطات في يد قائد واحد كارثي، إذ يحوله إلى ديكتاتور وعندما يخطئ يدمر كل شيء لأنه صاحب الأمر والنهي مما يضع

مصير الأمة في يد رجل واحد إن أخطأ أضاع كل شيء.

ولذلك، ومن أجل تفادي هذا الفخ، خلق مجلس الشيوخ في روما نظام قيادة مزدوجة للجيش الروماني، قنصلين على رأس الجيش لكل منهما سلطات تساوي سلطات الآخر، هما باولوس وترينتوس وكان كل منهما بالفعل نصف ديكتاتور.

وقد كانت هذه القيادة كارثية حيث كان هناك تضارب في القرارات، وكان كل قائد يريد أن تنفذ أوامره هو وليس الآخر.

ولم يستطع أيٌّ من القائدين بسبب سلطاتهما المتساوية أن ينزل على إرادة الآخر حتى عندما يكون على صواب.

وكان كل منهما في وقت ما لا يطيق أن يرى الآخر مساويًا له، أو نظيرًا، وهذا هو ما كلف روما الكثير في موقعة كاناي.

معركة كاناي واحدة من المعارك الرئيسية في الحرب البونيقية الثانية، التي جرت في عام 216 ق.م بالقرب من بلدة كاناي جنوب شرق إيطاليا، حيث استطاع الجيش القرطاجي تحت قيادة هانيبال تحقيق نصر حاسم بهزيمته الجيش الروماني تحت قيادة باولوس وترينتيوس.

وجرت العادة حسب القانون الروماني أن يعطي الحق لكلا القنصلين بتبادل القيادة العامة على الجيش يوميًّا.

وأدرك هانيبال ذلك لذا بنى مخططه وفقًا لذلك. وبحسب الدور كانت قيادة المعركة يومًا للقنصل ترينتوس وآخر للقنصل باولوس.

وكانت القيادة في اليوم الأول للقنصل ترنتوس والذي كان رجلًا متهورًا ومغرورًا، وكان يصور هانيبال كصيد سهل يمكن هزيمته ببساطة.

وبينما كان الرومان يقتربون من كاناي، نصب جزء صغير من قوات هانيبال كمينًا لقوات الجيش الروماني.

واستطاع ترنتوس بنجاح صد الهجوم القرطاجي واستمر في طريقه إلى كاناي. هذا الانتصار، وإن كان في جوهره مجرد مناوشة دون أية قيمة إستراتيجية تذكر جعل ترنتوس المتهور والأحمق يتصور وكأنه سيلتهم خصمه ومن ثم كانت الثقة مفرطة عند هذا القنصل.

على النقيض من ترنتوس، كان باولوس من الحكمة والحذر، أنه كان يعتقد أن من الحماقة القتال في الأرض المفتوحة، على الرغم من قوة الرومان العددية.

كان هذا صحيحًا خاصةً لتفوق فرسان هانيبال من حيث العدد والمهارة. بالرغم من تلك الهواجس، اعتقد ترنتوس أنه ليس من الحكمة أن ينسحب الجيش بعد نجاحه في البداية.

عسكر ثلثا الجيش على الضفة الشرقية لنهر «أوفيديوس»، بينما أرسل ما تبقى من الرجال للضفة المقابلة. كان الغرض من هذا المعسكر الغربي حماية مؤن المعسكر الرئيسي وتشتيت انتباه العدو ومناوشته.

وبقى الجيشان في مواقعهما ليومين. في اليوم الثاني، أدرك هانيبال أن القيادة ستكون لترنتوس في اليوم التالي، والذي قرر خوض المعركة.

ورغم معارضة ترنتوس لذلك القرار إلا أن باولوس قابل طلبه بالرفض.

وأرسل هانيبال فرسانه إلى المعسكر الأصغر غرب النهر لمهاجمة الجنود الذين يحملون المياه للمعسكر. وتسبب فرسان هانيبال في إحداث فوضى شاملة وتعطيل إمدادات المياه إلى المعسكر الروماني.

كان توزيع القوات تقليديًّا كوضعية الجيوش في المعارك في تلك الفترة بوضع المشاة في الوسط ونشر

سلاح الفرسان في الجناحين.

كانت خطة الرومان ترتكز على الضغط بقوات المشاة الرومانية لاختراق قوات «حنبعل» من المنتصف.

اعتقد «فارو» أن الأمرَ سيكون سهلًا لتفوق الرومان العددي، كما أنه لن يكون هناك مساحة أمام هانيبال للمناورة أو أي وسيلة للتراجع وخاصة لأن نهر «أوفيديوس» سيكون من خلف جنود هانيبال وسيتسبب ذلك في حالة من الذعر في صفوف القرطاجيين.

ونظرًا لما لاقاه الرومان من مرارة هزائمهم السابقة بسبب حيل وخدع هانيبال، فقد تعمد ترنتوس اختيار ساحة مفتوحة للحرب.

وعلى الجبهة القرطاجية، نشر هانيبال قواته على أساس القدرات القتالية لكل وحدة، مع الأخذ في الاعتبار كلا من نقاط القوة والضعف لكل وحدة في وضع استراتيجيته.

وقام هانيبال بنشر الأيبيريين والغاليين والسيلتك في الوسط، مع وضع المشاة الأفارقة على أطراف جناحي الجيش والذين كانوا متمرسين على القتال، وسيكونون قادرين على الهجوم على الأجنحة الرومانية.

كان هدف هانيبال من ذلك، الضغط على فرسان الرومان الضعفاء ومن ثم تطويق المشاة الرومان والذين حاولوا الضغط على مشاة هانيبال من العمق.

ثم تقوم قواته الإفريقية المخضرمة بالضغط من الأجنحة في اللحظة الحاسمة، وتطويق الجيش الروماني.

وعندما هاجم الفرسان القرطاجيون الرومان في القلب، وهاجم المشاة الإفريقيون أجنحة الرومان، توقف تقدم قوات المشاة الرومانية فجأة.

وأصبح الرومان محاصرين بلا وسيلة للهرب. وعندئذ بدأ القرطاجيون في قهر الرومان.

وهكذا لقي عدة آلاف من الرومان مصرعهم.

ولم تكن الهزيمة المروعة في كاناي هي الأولى فبعد خسائرهم السابقة في معركة تريبيا عام 218 ق.م ومعركة بحيرة تراسمانيا عام 217 ق.م، قرر الرومان مواجهة هانيبال في معركة كاناي، يقود جيشهم باولوس وترنتوس التي دمر هانيبال فيها الجيش الروماني بالكامل، وأسقط مدينة «كابو» والعديد من المدن الإيطالية بسبب انقسام القيادة وعدم وحدتها وافتقار أحد قائدي الجيش للحكمة والخبرة وتوزع قيادة الجيش عليهما، لكلٍّ يومٌ يتولى فيه قيادة الجيش.

11

الغرور..

العرض الذي لا يمكن رفضه

في عام 204 قبل الميلاد لم تكن الحرب مع روما تسير على ما يُرام بالنسبة للقرطاجيين.

فقد فقدوا معقلهم الأخير في صقلية وجزر أخرى.وقد سقطت المدينة الإسبانية التجارية الرئيسية التي كانت تعد المصدر الأساسي لجيوش المرتزقة.

وفي تلك الفترة هبط جينوس كورنليوس سكيپيو نفس القائد الروماني الذي كان قد هزم جيوش قرطاج في إسبانيا، هبط بجيش روماني جرار قرب مدينة قرطاج نفسها.

ومما زاد الطين بلة هو قيام أحد أقوى حلفاء قرطاج في إفريقيا وهو ماسينيسا بالانقلاب على قرطاج

والتحالف مع خصومها الرومان، وجمع جحافل فرسانه بخيولهم لتقاتل إلى جانب الرومان.

وجمعت قرطاج جيشًا كبيرًا، ودعت حليفها القوى الباقي من حلفائها سيفاكس وجيشه للانضمام وبالفعل تحركت القوات لهزيمة سكيبيو.

ولكن ليلة الهجوم قام الجيش الروماني الأصغر عددًا وحليفه بتطويق جيش قرطاج والقوات الحليفة له وذبحوا جنود قرطاج في ثكناتهم.

ولم يكن أمام قرطاج إلا طريق واحد لمواجهة الرومان وهو الاستعانة بهانيبال وبقية جيشه الذي عاد به من إيطاليا.

واستطاع هانيبال العودة إلى قرطاج متفاديًا الأسطول الروماني. وفي تلك الأثناء قدم سكيبيو لمدينة قرطاج اقتراحًا.

فقد كان تحت ضغط من مجلس الشيوخ في روما وأعضائه الحاقدين وغير الجديرين بالثقة، وأراد إنهاء

الحرب بنفسه قبل أن يأمروه بالعودة إلى روما حتى لا يحقق المزيد من الانتصارات مما يعزز أسهمه في الإمبراطورية الرومانية.

ومن ثم قدم سكيپيو عرضًا سخيًّا يسمح لقرطاج بالاحتفاظ بأسطولها التجاري مصدر ثراء المدينة الرئيسي ومنحها درجة كبيرة من الاستقلالية وأسطولًا صغيرًا من السفن الحربية.

وهذا العرض وإن كان لا يسمح لقرطاج بأن تشكل تهديدًا عسكريًّا لروما، إلا أنه يجعلها تحافظ على مركزها التجاري وثرائها من تجارتها وصناعتها.

وفي تلك الأثناء، كانت قرطاج في خضم حرب مع روما التي أحكمت قبضتها على غرب البحر المتوسط بأكمله.

ومن ثم فلم يعد لديْ قرطاج مصدرٌ للجنود مما يضعف قوتها وفي ضوء أن أقوى حلفائها انقلب عليها وانضم لخصومها.

وحتى إذا تمكنت قرطاج من هزيمة سكيبيو فإنها لن تكسب الحرب. فسوف ترسل روما إذا شعرت بجرح في كرامتها بفعل الهزيمة جيشًا آخر ثم آخر إلى أن تفوز بالحرب.

ولكن عودة هانيبال وجيشه أعطت قرطاج الأمل، فاجتمع قادة المدينة وبغرابة رفضوا عرض القائد الروماني.

وبعد أيام قليلة، التقى الجيشان، جيش سكيبيو وجيش هانيبال وجهًا لوجه في معركة زاما.

وكان جيش الأخير يضم الفيلة وخيرة فرسانه، أما الجيش الروماني فكان يتكون من وحدات أصغر ولكنها تتمتع بمرونة في الحركة ومدربة جيدًا، وتفوق في نوعية السلاح ومعنويات أعلى.

قسم سكيبيو مشاته إلى ثلاثة صفوف متوازية، ووضع قليلي الخبرة في المقدمة، والمحاربين المحنكين في المؤخرة.

ووقف الفرسان على الجناحين. وأجرى القائد الروماني تعديلًا واحدًا على هذا التشكيل، فترك مسافة فاصلة تمتد من 10-20 مترًا بين كل سرية مؤلفة من 120 رجلًا وأخرى.

ونظم هانيبال جيشه بطريقة مماثلة، ولكن دون فواصل، ووضع صفًّا من الفيلة في مقدمة مشاته. عندما بدأت مجموعة الفيلة بدأ هانيبال بالتقدم، نفخ الرومان أبواقًا وضربوا بسيوفهم على تروسهم، وخلقوا ضجة كبرى بأقصى ما يستطيعون ففزعت الفيلة، واتجه بعضها نحو الفواصل المتروكة بقصد في الصفوف الأمامية الرومانية، وهربت الأخرى إلى الخلف أو نحو الجناحين.

وقام الفرسان الرومان بهجوم مقابل على الخيالة القرطاجيين، وردوهم إلى الوراء. ورغم فشل فيلته وتقهقر فرسانه، تقدم جيش هانيبال.

وما إن اخترق القرطاجيون خط الدفاع الأول للرومانيين حتى انقض الفرسان الرومان عليهم من

الخلف.

وقد أتاحت هذه المناورة لصفي سكيپيو الثاني والثالث إحكام تطويق مشاة هانيبال.

وفي نهاية اليوم، وقع قرابة نصف الجيش القرطاجي صرعى على حقول زاما. وأسر الرومان أكثر من ذلك وكانت هذه نهاية ما يعرف بالحرب البونية الثانية.

وفر هانيبال وقلة من رجاله من أرض المعركة. وتحرك بعدها سكيپيو نحو مدينة قرطاج.
ورغم نقص معدات الحصار، كان باستطاعته تدمير المدينة ولكنه فضل بدلا من ذلك منح أهلها سلامًا، وحفظ قرطاج من الخراب والدمار، وسمح لهانيبال بالعودة واستلام القيادة فيها وكان هذا أيضًا عرضًا لا يمكن رفضه من جانب المهزوم.

لكن هانيبال رفض طلب روما. وفي النهاية أطبق الرومان الخناق عليه فاختار الانتحار بدلًا من

الأسر.واستمر السلام بين روما وقرطاج مدة خمسين عامًا ، قبل أن يستل القرطاجيون سيوفهم مرة أخرى.

لم تستمر الحرب البيونية الثالثة طويلا، ولم تحصل حرب رابعة. فبعد حصار لمدة أربعة أعوام، سقطت قرطاج بيد روما في 146 ق.م.

وقَتل الجيش الروماني كل رجال المدينة وباع النساء والأطفال في سوق الرقيق، وسحقوا المدينة. وبذلك انتهى وجود المدينة التي كانت تسمى قرطاج وإمبراطورية الفينيقيين الغربية.

12

الطموح الشخصي

الانتحار السياسي

وُلد تيبيريوس جراسيوس في عائلة من عائلات النبلاء. فقد كانت أسرته عريقة وثرية.

وكان جده لأبيه هو بوبيلوس كورنيليوس سيسبيو بطل الحرب البونية الذي هزم هانيبال.

وقد تزوج أبوه من سيدة تنتمي أيضًا إلى طبقة النبلاء، وتجري في عروقها الدماء الزرقاء وتدعى إيميليا، وكان المستقبل أكثر من واعد أمام الشاب تيبيريوس جراسيوس.

وفي عام 137 قبل الميلاد تم تعيين هذا الشاب النبيل في وظيفة مسؤول التموين ثم المسؤول المالي في الإمبراطورية عندما ذهب أخوه غير الشقيق إيميليانوس في حملة لإسبانيا.

ولم تسر الحرب كما كان يأمل الرومان وقُتل الأخ في الحرب وتم إسناد عملية التفاوض لإقرار اتفاق سلام إلى جراسيوس مع القبائل المحلية ونجح في مهمته وتم إنقاذ حياة آلاف الجنود والفرسان من خيرة الجيش الروماني.

ورغم نجاحه إلا أن معظم أعضاء مجلس الشيوخ وبدلا من الثناء عليه كالوا له الإدانات وصوتوا على نقض المعاهدة.

وكانت هذه هي بداية الحرب بين جراسيوس ومجلس الشيوخ، وهي الحرب التي جعلت أحوال الإمبراطورية تسوء وللأبد.

وتحت وطأة شعوره بأنه بات معزولا عن طبقة النبلاء التي تسيطر على مجلس الشيوخ تحول جراسيوس إلى عامة الشعب، حيث كان بالفعل متعاطفًا مع العامة التي وجد أن طبقة النبلاء تظلمها وتنكر عليها حقوقها وتُحكم عليها الخناق.

وكان جراسيوس يؤمن بأن النبلاء سرقوا أراضي العامة خاصة المزارعين الذين ذهب أولادهم إلى الحرب فلم يجدوا من يزرع الأرض، وهنا استدانوا من النبلاء، الذين استغلوا الفرصة لنهب أراضيهم لعجزهم عن السداد.

ومن ثم كانت هناك طبقتان واحدة تملك كل شيء وأخرى لا تملك شيئًا.واقترح جراكس أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح الذي لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاث القائمة وقتذاك في البلاد: الفقر في الريف، والفساد في المدن، وضعف روح المواطنة بسبب التفاوت الطبقي.

وفي عام 133 قدم جراسيوس لمجلس الشيوخ ثلاثة اقتراحات تقضي بألا يسمح لأي مواطن بأن يمتلك أكثر من 323 فدانًا- أو 667 فدانًا إذا كان له اثنان من الأبناء- من الأراضي المشتراة أو المستأجرة من الدولة، وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التي باعتها أو أجرتها للأفراد، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافًا إلى قدر

من المال نظير ما أنفقوه في إصلاحها، وأن تقسم هذه الأراضي التي ترد إلى الدولة إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فدانًا توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يتعهدوا بألا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأراضي، وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة.

ورفض مجلس الشيوخ هذه الاقتراحات ووصفها بأنها ليست في واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس، واتهم تيبيريوس بأنه يتودد للشعب حتى يكون زعيمًا ويهيمن على البلاد، وبأنه يعمل ليكون طاغية حاكمًا بأمره.

ولكن جراكس الذي كانت عامة الشعب معه ضغط بقوة فوافق مجلس الشيوخ ولكنه أضمر لجراكس شرًّا.

وما هي أشهر قليلة حتى اتهموه بالخروج على دستور البلاد وتحريض الشعب على العنف.

وتآمر الشيوخ عليه، وساروا إلى جراكس مسلحين بالهراوات. وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه، وأصيب تيبيريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعًا وهلك معه بعض من أتباعه.

وقد أدى ذيوع خبر مقتل جراكس إلى ثورة عارمة من جانب عامة الشعب في مدن الإمبراطورية.

وتحت وطأة هذه الثورة اضطر أعضاء مجلس الشيوخ إلى تنفيذ ما طلبه جركس من إصلاحات وأكثر وبسرعة.

وقد ساعد هذا على تهدئة الثورة. ولكن كان قتل الزعيم الشعبي جراسيوس هو الخطأ الذي أجبر مجلس الشيوخ إلى تقديم تنازلات والانصياع لكل طلبات الشعب.

وبسبب هذا الخطأ وما تبعه من أحداث بدأت السلطات في روما تتحول تدريجيًّا من طبقة النبلاء إلى الشعب

وأفراد الجيش من أبناء العامة.

وبدأ الشعب في روما يدرك أنه أقوى بكثير من طبقة النبلاء الذين يديرون بلادهم وأدرك جنود الجيش الذي يضم جنودًا من بسطاء وعامة الشعب أنهم أقوى من النبلاء الذين يحكمونهم، وأنهم يمكن أن يتغلبوا على أعضاء مجلس الشيوخ المتعنتين.

ومنذ ذلك الحين لم تنعم روما بحكومة مستقرة لمائة عام، بسبب تعنت الحكومات وثورة الشعب لإسقاطها.

وبعد ذلك بدأت الحروب الأهلية في روما، وفي عام 49 قبل الميلاد استخدم يوليوس قيصرحظوته لدى العامة لكي يصبح إمبراطورًا لروما.

ومن هنا انتهت سطوة وجبروت وهيمنة مجلس الشيوخ وللأبد.ومن ثم كان قتل جراسيوس بمثابة عملية انتحار سياسيٍّ لنبلاء مجلس الشيوخ.

13

إساءة تقدير قوة العدو

سرُّ انتصار يوليوس قيصر

كانت معركة إليسيا في عام 52 قبل الميلاد آخر حلقات الصراع الذي كان سيحدد إذا كان الرومان أو الكلتيون (القبائل الغالية نسبة إلى بلاد الغال) هم من سيشكلون طريقة حياة شمال أوربا.

كانت المعركة هي خاتمة خمس سنوات من غزو يوليوس قيصر لبلاد الغال (فرنسا وبلجيكا والدنمارك ولوكسومبرج).

وكانت هذه الحرب بأكملها سر شهرة يوليوس قيصر وكيف أنه فاز بها لشجاعته وقدرته على القيام بالأعمال الاستخباراتية المطلوبة لأي تحرك يتخذه ضد خصومه الغاليين.

كما كان جزءٌ من انتصاره يعود للهالة الكبيرة التي كانت تسبق اسمه وتشكل جانبًا مهمًّا من الحرب النفسية اللازمة قبل مواجهة أعدائه.

وفي عام 60 قبل الميلاد، اتفق ثلاثة رجال على اقتسام السيطرة على روما. هؤلاء الثلاثة هم جراسيوس وبومبي ويوليوس قيصر.

وبينما كان الثلاثة - نظريًّا - متساوين، إلا أن كلًّا منهم كان يناضل من أجل أن يكون الأول بين متساوين.

كان قيصر ثريًّا للغاية وكذلك جراسيوس وقد أثبت جراسيوس أنه جنرال محنك بعد أن أخمد ثورة العبيد وهزم زعيمهم سبارتكوس.كما أثبت بومبي أيضًا أنه جنرال محنك بعد إحرازه عددًا من الانتصارات باسم روما.

وكان يوليوس قيصر الذي يصغرهم في السن في حاجة ملحة لا ليثبت نفسه فقط وإنما ليتفوق عليهما ويصبح الأول بين ثلاثتهم.

لذلك، سار جراسيوس بجيش إلى سوريا حيث تمكن من السقوط قتيلا هناك بعد خسارة ثلثي جيشه. أما بومبي فقد فضل البقاء في روما حيث يتمتع بالثراء وسجله الحافل بالفعل بالانتصارات.

وهنا وجد قيصر نفسه مطالبًا بعمل عسكري هائل يرفع أسهمه فاختار أن يجتاح بقواته مقاطعة ترانسلابين غال.

وكانت هذه المقاطعة هي أهم مقاطعات إيطاليا الشمالية وأهم جزء على ساحل فرنسا الجنوبي.

وكان انتصاره هنا يعني منحه نقطة انطلاق مهمة للغاية لكي يغزو الأراضي الغنية بالثروات لقبائل الغال.

ومنذ عام 58 قبل الميلاد وحتى اندلاع معركة إليسيا، كان قيصر يمضي في هزيمة قبيلة غالية تلو الأخرى، ولكنه في تلك الأثناء شعر بعدم الرضا عن موقفه العسكري في شمال إيطاليا بعد أن عقدت بقية القبائل الغالية تحالفًا عسكريًا يفوق جيشه عددًا وعتادًا.

واختارت قائدًا كاريزميًا لها هو فيرسينجيتوريكس ولكن أكبر خطأ ارتكبه هذا القائد الكاريزمي أثناء المعركة هو أنه أساء تقدير قوة الخصم فنظر لجيش قيصر على أنه أقل قدرة على القتال من جنود جيشه الذين رآهم أكثر بسالة وشجاعة، ونسى أن جيش قيصر أكثر تجهيزًا من حيث العتاد العسكري الذي يفوق عتاده من حيث النوعية والتطور ناهيك عن براعة قيصر الاستخباراتية والقيادية والتنظيمية.

وحدث أن توجه قيصر بجيشه الذي يقدر بنحو 50 ألف مقاتل إلى المدينة الهامة أليسيا التي تسيطر على خطوط المواصلات للرومان.

علم فيرسينجيتوريكس بذلك فتوجه لتلك المدينة مع جيشه الذي يقدر بنحو 90 ألف مقاتل وسبق الرومان إليها وحصنها جيدًا وهي بالأساس حصينة لأنها تقع فوق تَلٍّ.

ثم وصل قيصر وضرب حصارًا على المدينة وقام بتطويقها بسور كبير على مدى عدة كيلو مترات

فعزلت المدينة تمامًا عن العالم الخارجي.

كان القائد الروماني يعتقد بأن المدينة سرعان ما يصيبها الجوع وتستسلم له، فهناك 90 ألف مقاتل بالإضافة لسكان المدينة من الناس العاديين.. فيرسينجيتوريكس بدوره كان يخرج من المدينة من حين لآخر مع مجموعة من المقاتلين ويقوم بغارات سريعة على الرومان ثم يعود داخل الأسوار.

أيضا قام بإرسال عدد من الفرسان إلى كل الغاليين لينضموا إليه ويهاجموا الروم من الخلف بينما يخرج هو من المدينة ليهاجمهم من الأمام.

ووصلت تلك الأنباء المريعة لقيصر، فماذا فعل؟ بل بالواقع ماذا بيده أن يفعل سوى أن ينسحب سريعًا إلى مكان آمن؟

رفض قيصر الانسحاب من حصار أليسيا، وقام ببناء سور خارجي ليحيط بجيشه ويحميه في حال قدمت جحافل الجاليين من الخارج.

أما السور الخارجي فهو لحماية جيشه من الجيوش الغالية التي ستلبي نداء زعيمها فيرسينجيتوريكس، وهذا ما حدث. نحو 200 إلى 300 ألف مقاتل غالي

وصلوا إلى أليسيا وضربوا الحصار حول الروم.. أصبح قيصر الآن بين فكي الكماشة، بين فيرسينجيتوريكس ومقاتليه ال 90 ألفًا داخل المدينة، ونحو 200 ألف مقاتل غالي خارج المدينة.. إنه حصار مزدوج.

وفي ليلة هادئة استيقظ الرومان على صرخات الغاليين التي بدأت تقترب منهم أكثر فأكثر.

لقد نجح ال 200 ألف غالي في اقتحام أحد الأسوار الخارجية وهجموا كالسيل على الرومان، وبنفس الوقت فتح فيرسينجيتوريكس أبواب المدينة واقتحم مع ال 90 ألف مقاتل الذين معه أسوار الرومان الداخلية ودار قتال غير متكافئ.

وانهارت الروح المعنوية للجنود الرومان وبدؤوا يفقدون التوازن وانضباط صفوفهم فما هي إلا

سويعات ويكونون قد دُمروا عن آخرهم.

ولكن كان هناك شخص واحد لم يفقد اتزانه وتماسكه وهو قائدهم قيصر، فأمر قوة من خيالته أن يخرجوا ويستديروا حول المدينة ليهاجموا الغاليين من الخلف، ثم أمر كل الفرسان الذين معه أن يتبعوه وقاد بنفسه الهجوم على ظهر جواده.

التحم قيصر مع الغاليين وقاتلهم بنفسه يدًا بيد فعادت الروح المعنوية للجنود الرومان وقاموا بتنظيم صفوفهم مرة أخرى وقاتلوا قتال المستميت خجلًا من قائدهم الذي يخاطر بحياته ويقاتل بجانبهم كأي جندي عادي.

أثناء ذلك وصلت الخيالة الذين أمرهم قيصر بالالتفاف حول المدينة والقيام بهجوم من الخلف، على الفور ظن الغاليون أن هناك إمدادات كبيرة قد وصلت لقيصر فانهارت مقاومتهم وانسحبوا إلى خارج الأسوار، أما فيرسينجيتوريكس فصعق من ذلك وتراجع إلى داخل أسوار أليسيا.

في اليوم التالي سلم زعيم الغال نفسه لقيصر وسقطت معه كل بلاد الغال.

مهدت هذه الحروب الطريق ليوليوس قيصر ليصبح الحاكم الوحيد للجمهورية الرومانية.

وظلت بلاد الغال ذات أهمية عسكرية كبيرة بالنسبة للرومان، حيث كان الرومان يتعرضون للعديد من الهجمات من قبل القبائل المحلية سواء من قبل السكان الأصليين في بلاد الغال أو القبائل الأخرى القاطنة في الشمال.

وقد أدى غزو بلاد الغال إلى السماح لروما بتأمين الحدود الطبيعية لنهر الراين.

14

جهل الحاكم برعيته..

قيصر وفاروس

أسوأ خسارة تعرضت لها فيالق الرومان في تاريخ إمبراطوريتهم كانت بسبب سوء حكم خاطئ لرجل واحد. هذا الرجل هو كوينكتيليوس فاروس.

في عام 9 ميلادية، كانت الإمبراطورية لا تزال تستكمل توسعاتها. وقد قام يوليوس قيصر بغزو بلاد الغال عبر نهر الراين.

ثم توسع فيما بعد باقي القادة العسكريين تحت قيادة قيصر ليستولوا على ما نسميه اليوم بألمانيا.

وكان احتلال ألمانيا وضمها للإمبراطورية الرومانية هو قمة توسع وتعاظم هذه الإمبراطورية، ولكن احتلال ألمانيا لم يدم طويلا.

كان كوينكتيليوس فاروس حاكمًا على ولاية سوريا الرومانية، وكان قد قام بعدد من الأعمال العسكرية الصغيرة الناجحة.

وكانت عادة الحكام الرومان جمع كل ما يستطيعون من مغانم (ذهب وأموال ضرائب) وإرسالها إلى قيصر في روما لخطب وده، وهو العمل الذي يمكن أن يعد جريمة بمقاييس اليوم، ولكن في تلك الحقبة كان الأمر عاديًّا.

وكان فاروس ماهرًا جدًّا في جمع ضرائب باهظة من الأثرياء والتجار في ولايات سوريا وإرسالها إلى قيصر.

وكانت مكافأة فاروس على ذلك عندما انتهت مدة خدمته في سوريا هي إعطاءه ولاية أخرى ليحكمها. ولسوء الحظ لروما أن هذه الولاية كانت ألمانيا.

وكان السبب في الخطأ الذي كلف روما فيالق جيشها هو في الحقيقة الفرق بين الولايتين، سوريا وألمانيا.

فقد كانت سوريا ولاية مستقرة ومتحضرة للغاية وغنية، أما ألمانيا فقد كانت على النقيض من هذا تمامًا.

وفي الوقت الذي كانت فيه سوريا تضم مدنًا كبيرة يعود بعضها إلى ألف عام، كانت ألمانيا عبارة عن قبائل همجية.

وأخيرًا فقد كانت سوريا مليئة بالذهب والفضة، فقد كانت ألمانيا بلاد حديد وتستخدم فيها الماشية بدلا من العملات كوسيلة بيع وشراء.

وكان الخطأ الذي وقع فيه فاروس هو أن حاول أن يحكم ألمانيا بنفس الأسلوب الذي حكم به سوريا.

وراح يضغط على حكام المقاطعات الألمانية لكي يرسلوا إليه الضرائب التي لم تكن متاحة أصلا لكي يرسلها إلى قيصر.

والحقيقة أن هذه المسألة لم يكن يتوقف عندها قيصر، أو ينتظرها حتى، ولكن فاروس كان يراها ضمانة

لبقائه في منصبه.

وكان في ألمانيا نبيل ألماني يتعاون مع الرومان يدعى أرمينيوس وكان زعيم قبيلة الشيروسكيين إحدى القبائل الألمانية، وكان يزين لفاروس أنه يتمتع بالشعبية ولكنه لم يكن كذلك، وكان يتحين الفرصة للتخلص منه.

فقد كان سعيه لفرض ضرائبَ لا يستطيع الألمان دفعها يثير عليه غضبهم وسخطهم.

وقد استغل أرمينيوس هذا الغضب لكي يدفعهم للتمرد على سلطة فاروس ولكن من خلف ظهر فاروس الذي وضع ثقته فيه حتى اكتشف خيانته.

وقد ساعد فاروس بخطأه أرمينيوس في التخطيط للتخلص من الاحتلال الروماني، فقد استغل أرمينيوس غضب القبائل فعمل على توحيدها تحت قيادته للاستعداد للقضاء على الفيالق الرومانية بقيادة فاروس.

وفي سنة 9 ميلادية وقعت معركة غابة تويتوبورج بولاية سكسونيا الألمانية اليوم والتي سميت معركة فاروس السفلى بين الجيش الروماني بقيادة الجنرال فاروس وتحالف للقبائل الجرمانية بقيادة أرمينيوس.

وكانت هذه المعركة إحدى أسوأ الهزائم التي مني بها الرومان، حيث أبيدت ثلاثة فيالق كاملة، بالإضافة إلى 6 كتائب مشاة و3 أجنحة فرسان تشكل كلها ثُمن الجيش الروماني.

وبعد المعركة بدأت حرب دامت سبع سنوات لاسترداد شرف الجيش الروماني وفي النهاية تخلى الرومان عن محاولة أخرى لاحتلال المناطق الجرمانية على الضفة اليمنى لنهر الراين وصولا إلى نهر الإلبه، من أجل الوصول إلى الهدف الاستراتيجي بتقصير طول حدود الدولة الرومانية في وسط أوربا وجعل خط الإلبه - الدانوب هو الحدود الجديدة.

واعتبر الراين حدودًا نهائية للإمبراطورية من الجهة الشمالية الشرقية لأربعة قرون لاحقة.

وهكذا كان لهزيمة فاروس أثر بعيد المدى على التاريخ اللاحق لكل من القبائل الجرمانية القديمة والإمبراطورية الرومانية، وأخيرًا على أوربا بأسرها بعد أن جعل يوليوس قيصر يخسر ولاية مهمة هي ألمانيا.

15

لا مجال للعوْدة

مقتل يوليوس قيصر

في عام 458 قبل الميلاد، عندما قام الإكوينز بحصار جيش روما، أعلن مجلس الشيوخ الروماني حالة الطوارئ وانتخاب ديكتاتور لإنقاذهم من هذا الخطر الداهم.وقد اختار لوسيوس كوينتوس سينسيناتوس لكي يضطلع بهذه المهمة النبيلة.

وقد استطاع هذا الرجل بالفعل هزيمة الإكوينز في يوم واحد وقاد انتصار روما، وبعد وقت قصير عاد إلى حياته الهادئة كمزارع.

وعلى الرغم من أن معظم الناس اليوم لم يسمعوا عن كوينتوس (رغم وجود مدينة تحمل اسمه) فقد قام بدور مهم في التاريخ.

وفي عيون الجمهورية الرومانية، يعتبر كوينتوس هو المواطن النموذجي. فقد تولى القيادة عندما كانت البلاد في أمسِّ الحاجة إليه، وتخلى عنها بمجرد انقشاع الخطر.

وفي الأيام المجيدة للإمبراطورية، كان الناس يتذكرون كوينتوس كنموذج لأولئك القادة الذين يتنزهون عن التشبث بالسلطة، ويقارنون بينه وبين الساعين نحو السلطة المطلقة، ولكن لم يحذُ معظم القادة للأسف حذو كوينتوس.

فمثلا لم يهتم يوليوس قيصر بقائد عظيم سجل نصرًا عظيمًا ثم تخلى عن القيادة والسلطة مثل كوينتوس، وإنما كان اهتمامه ينصب على قصص القادة العسكريين الآخرين الذين تشبثوا طويلًا بالسلطة مثل إكيليس أحد أبطال حرب طروادة والإسكندر الأكبر.

فقد آمن قيصر بأن القيادة تعتمد في المقام الأول على القوة. وفي عام 49 قبل الميلاد مارس هذه القوة لكي

يحكم قبضته على مقاليد الأمور في روما حيث سيطر على المدينة والتفَّ حوله عامة الشعب.

وبعدما حقق قيصر انتصاراته في مصر، ازدادت قوته وتنامى نفوذه في روما.

وهنا توصل أعضاء مجلس الشيوخ إلى أن قيصر أصبح يمثل خطرًا داهمًا على سلطاتهم بفعل تنامي قوته، وأنه أصبح قريبًا من انتزاع كل سلطاتهم لنفسه، وأنه يتوجب عليهم إيقافه بأسرع وقت، ومهما كان الثمن، قبل أن يتغول عليهم ويزيحهم جانبًا.

ولهذا، تمكن أعضاء مجلس الشيوخ من قتل يوليوس قيصر في عام 44 قبل الميلاد بطعنات خناجرهم في ساحة مجلس الشيوخ، ومن ثم إنهاء حكم الرجل الذي كان في طريقه لأن يتحول إلى ديكتاتور.

ومن ثم حالوا بقتلهم له بينه وبين الانفراد بحكم إمبراطوريتهم، بحيث يأخذون هم مكانه وتصبح

الغلبة والكلمة العليا في حكم الإمبراطورية للمجلس وأعضائه.

ولكن هذا الهدف لم يتحقق. فقد أدى مقتل قيصر إلى عكس ما كان يرجَى منه، فقد أنهى وللأبد العصر المجيد للجمهورية الرومانية.

فقد كانت روما قد أصبحت جمهورية في عام 509 قبل الميلاد عندما هب الشعب ضد تاركوين المغرور آخر ملوك الأتروسكان واستطاع خلعه.

ورغم أن الأتروسكان كانوا قد تمردوا على حكم ملكهم وثاروا عليه إلا أنهم كانوا لا يزالون في حاجة إلى سلطة عليا.

لذلك أعطوا السلطة لقنصلين لمدة عام. وكان لكل منهم الحق في استخدام حق رفض قرارات الآخر، ولا يحق لأحدهما إلغاء قانون قائم أو إصدار قانون جديد دون موافقة الآخر.

كما تم تشكيل مجلس شيوخ يتكون من قادة الرأي في المجتمع وبعض الأرستوقراطيين.

كما تم استحداث مجلس نيابي يدافع عن حقوق الشعب ويراقب أعمال الحكومة أقرب إلى مجلس العموم البريطاني اليوم، لإرضاء العامة الثائرين على استثنائهم من التمثيل في الحكم.

وانتخب المجلس رئيسًا له (محامي الشعب) حصل على حق الاعتراض والرفض للقرارات التي يتخذها أي من القنصلين الحاكمين.

ولكن مقتل قيصر - كما ذكرنا آنفًا - أدى في النهاية إلى تدمير كل هذه المكاسب عكس ما كان يرجى منه وهو حماية مكاسب الجمهورية من الديكتاتورية والطغيان.

وهكذا كان قتل قيصر خطأً ثبت أنه غير التاريخ للأسوأ وليس للأفضل، أي خطأ في التقدير.

فقد اعتبر أصحاب المؤامرة أنفسهم كمحررين للجمهورية الرومانية، لكن ما قاموا به لم يلقَ ترحيبًا

من طرف سكان روما، مما أجبرهم على الهرب إلى اليونان.

وتنتقل قيادة روما بعد ذلك إلى تحالف ثلاثي كونه أقرب حلفاء قيصر، ويسمى ذلك ب «الثلاثية »و التي كانت تضم أوكتافيان ابن الثامنة عشرة، وهو ابن قيصر بالتبني كما أنه كان وريث العرش، واثنين من بين أكثر الموالين لقيصر، ماركوس أنطونيوس وماركوس ليبيدوس.

وكان أولُ شيء ينجزه الثلاثية هو التغلب على بروتوس وكاسيوس اللذين كانا قد استوليا على معظم شرق المتوسط آنذاك.

وكانت إدارة الإمبراطورية الرومانية الشاسعة بالمتوسط تنقسم آنذاك إلى ثلاثة أقسام، ماركوس ليبيدوس في إفريقيا، أوكتافيان في إيطاليا وباقي أوربا الغربية، ثم ماركوس أنطونيوس في شرق المتوسط.

وكانت لا تزال هناك مقاومة كبيرة خلال الثلاثية، حيث إن سكستوس بومبي كان لا يزال يتحكم في صقلية وكان العديد من معارضي النظام الحالي يلجئون هناك.

وفي عام 40 قبل الميلاد، قامت قوات سكستوس بومبي باحتلال جزيرة سردينيا، كما أن أسطول أوكتافيان انهزم مرتين عندما حاول غزو صقلية.

وأخيرًا في معركة نولوكوس في العام 36 قبل الميلاد، تمكن أوكتافيان من التغلب على سكستوس بومبي بصفة نهائية، كما أنه قام بتقليص قوة ماركوس ليبيدوس متهما إياه بمحاولة الاستيلاء على صقلية لنفسه.

وبهذا يصبح أوكتافيان الحاكم الوحيد لمعظم الإمبراطورية الرومانية الغربية.

في نفس الوقت، كان ماركوس أنطونيوس في الشرق قد بدأ علاقة مع كليوباترا السابعة ملكة مصر وأنجب

منها ثلاثة أولاد.

وفي العام 34 قبل الميلاد، أعلن ماركوس أنطونيوس أن أبناءه من كليوباترا سوف يرثون السلطة من بعده على المناطق الرومانية في شرق المتوسط، وسوف يتم تسليم سلطة مصر إلى ابن كليوباترا الوحيد من يوليوس قيصر: قيصرون.

وبعودته إلى روما، قام أوكتافيان بنشر ادعاءات بأن ماركوس أنطونيوس قد تخلى عن زوجته الرومانية واندمج مع السكان الأصليين في مصر.

وكانت الظروف مهيأة الآن كي يخوض ماركوس أنطونيوس وأوكتافيان حربًا مباشرة ستحدد مصير كل البحر المتوسط آنذاك.

وانهزم تحالف كل من أنتوني وكليوباترا في المعركة البحرية في أكتيوم في العام 32 قبل الميلاد، فقام أوكتافيان بشق طريقه من آسيا نحو مصر.

وعندما وصل أوكتافيان إلى الإسكندرية، كان كل من ماركوس أنطونيوس وكليوباترا قد انتحرا.

ومع هزيمة كليوباترا وأنتوني، أصبح أوكتافيان، والذي غير اسمه إلى أغسطس، إمبراطورًا على روما، كما أن مصر أُلحقت بهاته الإمبراطورية الرومانية الجديدة.

وهكذا انتهت الجمهورية الرومانية، وبدءًا من هذا التاريخ، أصبحت روما وكل المناطق الخاضعة لها تحكم بواسطة إمبراطور ديكتاتور.

16

تجاهل الحقائقَ..

أضاع الإمبراطورية

أحيانًا خطأ واحد، واحد فقط يغيرى مجرى التاريخ ويأتي بسبب الجهل وليس الحماقة أو الحكم الخاطئ على الأمور. ولكن حتى وإن كانت النوايا سليمة إلا أن هذا الجهل يمكن أن يكون كارثيًّا.

لقد كان جهل قادة مدينة روما سببًا في ارتكابهم أكثر الأخطاء التي تسببت في المشاركة في انهيار الإمبراطورية الرومانية مع غيرها من الأسباب أو الأخطاء التي ذكرنا منها آنفًا.

ثم هناك أخطاء الجهل، فضلا عن الإمعان في تجاهل الحقائق والنتائج، هنا ينقلنا المؤلف عبر التاريخ إلى زمن الإمبراطورية الرومانية وبالتحديد إلى عاصمتها الزاهرة في روما التي كانت قد استقطبت آلافًا من السكان الذين زادوا عددًا على المليون وهو رقم مهول

في ذلك الزمان.
وشاء رؤساء المدينة أن يدخلوا إصلاحات غير مسبوقة كان أهمها سحب المياه من أعالي الجبال كي تصبح سائغة للسكان في بيوتهم، وهو ما استوجب شبكة أنشأوها، ولأول مرة في تاريخ العمران البشري لتوصل إلى صنابير البيوت وتشكّل من ثَمَّ نقلة ثورية في الحضارة الإنسانية.

وقد عثر الرومان على معدن صلب اسمه الرصاص كان مطوعا للسحب والطرْق والتشكيل فضلا عن تكاليفه الزهيدة.

المأساة أن هذا المعدن جاء وفي أذياله كارثة التسمم التي أصابت سكان روما القديمة من جراء مادة الرصاص، بعد أن أدى إلى تلويث المياه وإصابة شاربيها بالفشل الكلوي والوباء الكبدي وتلف أعصاب المخ.

ومن ثم جاء انخفاض المواليد وإصابات فقر الدم واعتلال سكان عاصمة الإمبراطورية وهو ما شكّل

واحدًا من أخطر المعاول التي أدت إلى تصدع كيان الإمبراطورية الرومانية في نهاية المطاف.

التسمم بالرصاص كان سببًا رئيسيًا في ذلك، فقد كانت المدن الرومانية تستقي مياهها من عيون جبلية منقولة بسواقٍ وقنوات مصنوعة من الرصاص أيضًا.

كذلك اعتمد أهل روما على استعمال محلول سكري يحتوي على أملاح الرصاص لإضافته إلى النبيذ أو في صنع الحلويات، والذي يتحول إلى ملح خلات الرصاص السامة.

سبَّب هذا الاعتماد الواسع النطاق على عنصر الرصاص السام حالةَ تسمم شديد لدى السكان آنذاك، ويعتقد بأن انتشار حالة التسمم تلك بين صفوف الطبقة الحاكمة وأفراد الشعب على حد سواء، قد سبب التعجيل بسقوط الإمبراطورية الرومانية.

17

خطأُ شخص واحد

انتهى بكارثة

كان الكيان الإمبراطوري الروماني الذي طالما سيطر على مقاليد عالم ما قبل الميلاد، كان عليه أن ينتظر لحظة النهاية الحقيقية التي شهدته وهو يلفظ النفس الأخير بسبب خطأ رجل واحد.

كان ذلك عام 378 للميلاد، وكانت غلطة ارتكبها جندي، مجرد جندي، وليس حتى ضابطًا بين شجيرات الإستبس في وسط آسيا.

وكانت قبائل الهون البربرية قد عبرت الحدود من تلك المناطق واتجهت غربا إلى إمبراطورية الرومان.

وكانت الأقوات قليلة وآلاف البشر من شعوب الشرق إلى أوربا وفي غربها يكادون يتضورون جوعًا.

وهكذا اتفق عقلاؤهم على اللقاء لبحث الأحوال والعمل على قسمة موارد الغذاء، واتخذ الوفد الروماني طريقه إلى ساحة التفاوض مع زعماء القبائل البربرية وخاصة الهون القادمين من فيافي آسيا.

وفيما كان الوفد يقترب، إذا بجندي من الوفد الروماني يشرع قوسه ليطلق سهمًا، فإذا بسيل هادر من السهام يتم إطلاقها وتندلع المعارك، ويُقتل وفد روما عن بكرة أبيه، وتبدأ القبائل المتوحشة في الإغارة على كيان الإمبراطورية إلى أن شكلت معركة أدريانول نهايتها عام 378 للميلاد وهُزم الجيش الروماني بقيادة الإمبراطور فالنزا وقُتل الإمبراطور.

18

طبع البنكنوت دون قيود..

يدمِّر اقتصادَك

هذا الخطأ ترتكبه الدول الصغرى والكبرى وحتى العظمى مرات ومرات. ومن المأمول أن يكون زعماؤنا الحاليون قد تعلموا من دروس التاريخ.

والخطأ هنا هو استخدام التضخم من جانب الحكومات لدفع الفواتير المستحقة عليها وتلبية الاحتياجات للإنفاق على السلع الأساسية والالتزامات ودفع الرواتب وتمويل عجز الموازنة العامة للدولة من خلال طبع المزيد والمزيد من أوراق البنكنوت.

ومن شأن ارتكاب مثل هذا الخطأ أن يؤدي إلى تدهور قيمة العملة الوطنية حتى تصل - كما حدث مؤخرًا في زيمبابوي - إلى أدنى معدل لها في مواجهة العملات الأخرى.

ففي زيمبابوي - هذه الدولة الإفريقية - كانت العملة مؤخرًا تشهد المزيد من انخفاض قيمتها كل نصف ساعة.

فطباعة النقود بدون غطاء من النقد الأجنبى أو الذهب ينذر دائمًا - كما يدلنا التاريخ - بكارثة اقتصادية تهدد الدول، حيث يؤدى ذلك إلى انهيار الاقتصاد نتيجة لتراجع الإنتاج وما يصاحبه من اضطرابات أمنية واقتصادية وإيجاد سيولة نقدية لا تقابلها زيادة في السلع، يرفع معدلات التضخم بمعدلات أكبر، وبالتالى زيادة الأسعار فضلا عن انهيار قيمة العملة الوطنية الذي تهوي إلى أدنى مستوياتها.

وعودة إلى التاريخ، سنجد جمهورية فايمار في ألمانيا التي تولت السلطة بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى راحت تعالج مشكلاتها الاقتصادية بعد الحرب بطبع أوراق البنكنوت دون ضابط أو رابط، حتى تدفع المرتبات ومديونية الحكومة وغيرها فخلقت أسوأ معدلات تضخم في تاريخها عندما عاشت مشكلات اقتصادية معقدة كان أخطرها تدهور

المارك الألماني (العملة الوطنية الألمانية) إلى الحضيض مع الاستمرار في زيادة طبع النقود وحجم النقد المتداول داخل السوق دون أن يقابله غطاء نقدي أو زيادة في الإنتاجية مما أدى إلى نشوء موجات تضخمية جديدة.

وقد دفعت حكومة فايمار ثمن هذا الخطأ بعد أن ساءت الأحوال الاقتصادية فأسقطها الشعب مانحًا صوته للنازي أدولف هتلر الذي ركز في دعاياته على إصلاح الاقتصاد، فانتخبه الألمان، على أمل تحسين الأوضاع الاقتصادية، وكانت النتيجة أن زج بهم هتلر في حرب أخرى عالمية انتهت بهزيمة مروِّعة، وكبد العالم ملايين الأرواح في حرب كارثية هي الحرب العالمية الثانية.

19

التطرف والسقوط

اليهود والرومان

ماذا فعل الرومان لنا؟.. هذا هو السؤال الذي طرحه اليهود على أنفسهم في بداية القرن الأول.

فعلى الرغم من المنافع الواضحة التي تظهر في المشاهد الافتتاحية لفيلم «حياة بريان»، فإن اليهود لم تكن لديهم الإرادة للتخلي عن كل هذه المنافع لتحقيق ما كانوا ولمئات السنين يريدون تحقيقه (السيطرة على القدس).

في عام 66 ق.م، كون اليهود جماعات مسلحة وحاولوا التخلص من الرومان ولكنهم انقسموا قبل أن يبدأوا توزيع غنائم الحرب، وتوزيع الممالك، بعد إجبار الرومان على التخلي عنها.

ولكن كانت هناك طوائف يهودية أخرى ولكنها أيضًا متطرفة وتتصارع على المنافع والمكاسب.

وقام اليهود في «جوديه» بفلسطين بتمرد ضد الحكم الروماني بقيادة الغيورين، وهي طائفة متطرفة. وكان الأثرياء اليهود موالين لروما ويتشبهون بغير اليهود، أما الفقراء فلم يكونوا كذلك.

وكان هناك في فلسطين سخط على اليهود، وهو ما خلق كثيرًا من التوتر.

وقد أخذ الحاكم الروماني فلوراس موقفًا معاديًا لليهود بتشجيع من أثرياء اليهود، فاندلعت بعض القلاقل وسمح فلوراس لقواته بدخول القدس ونهبها وصلب بعض اليهود البارزين فيها. وبعد خروج القوات الرومانية، ذبح اليهود المتمردون بعض أثرياء اليهود من حلفاء الرومان وأعضاء الحامية الرومانية الصغيرة.

وقد تَدخل أجريبا الثاني ونصح اليهود دون جدوى بالنزوع إلى السلام، ثم اضطر إلى الهرب. واتسع نطاق التمرد واستولى المتمردون على القدس والهيكل، كما أحرقوا الأوراق الخاصة بديون اليهود.

كانت قيادة التمرد في البداية في يد العناصر الفريسية المعتدلة، نجد أنها وقعت بالتدريج في يد العناصر المتطرفة التي تفرعت عن الفريسيين مثل الغيورين وعصبة الخناجر.

بل يمكن القول بأن الفريسيين كانوا يؤيدون السلام لخوفهم من الصراع الطبقي وازدياده. وإلى جانب كرههم العميق لروما.

وعندما هجمت القوات الرومانية بقيادة فسبسيان، استسلمت قوات الجليل بدون مقاومة كبيرة. واستسلم يوسيفوس، وتنبأ بأن القائد الروماني سيصبح إمبراطورًا. وبالفعل، مات الإمبراطور في روما فأوكل فسبسيان قيادة الحملة إلى ابنه تيتوس، حتى يمكنه العودة إلى روما ليفوز بخلافة الإمبراطور.

وعند هذه اللحظة، انفرد الغيورون الذين تحالفوا مع الحامية الأدومية في القدس بقيادة التمرد بعد أن قضوا على أعضاء الحكومة من حزب فلافيوس الفريسي.

وكان الرومان يعرفون أن القيادة المتطرفة منقسمة على نفسها، فبدأ الهجوم الروماني وهزموا المتمردين اليهود.

ثم استمر الرومان في تطهير بقية مقاطعة يهودا الرومانية من المتمردين، وخصوصًا في القلاع التي احتمى بها اليهود.

وقد استسلمت هذه القلاع كلها ما عدا ماسادا التي انتحر اليهود فيها خشية الإعدام على يد الرومان.

وفي عام 67 قبل الميلاد. انتهت حرب اليهود عندما قامت بتدمير مركز مقاومة اليهود في القدس عام 70 قبل الميلاد، وهُزمت المعاقل اليهودية المتبقية في وقت لاحق ثم تم تطهيرُ البلاد من اليهودِ.

20

اختيار الطريق الأسهل

يفتت الإمبراطورية الأعظم

عندما قرر ديوكلتيانوس حاكم الإمبراطورية الرومانية تقسيمها إلى إمبراطورية شرقية وإمبراطورية غربية، فعل ذلك حتى يسهل عليه حكم المقاطعات الأربع والأربعين.

ويبدو أن هذا الإمبراطور لم يقرأ أي شيء عن التاريخ الروماني، وإلا كان سيعرف أن كل مرة كانت تتشرذم الإمبراطورية تكون على شفا الانهيار، أو التعرض لغزو أو حرب أهلية.

ولكن من غير المحتمل أن يكون ديوكلتيانوس قد قرأ تاريخه لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

فقد تدهورت معايير اختيار الإمبراطور بشدة منذ عصر ماركوس أوراليوس. وأثبت ديوكلتيانوس قدرته

كقائد عسكري ولكن قدرته على التعلم من أخطاءمن سبقوه قد كلفت رعيته ثمنًا باهظًا فاحش الغلاء، وبالتالي أدت إلى حرب أهلية ومهدت لانهيار الحكم الروماني للنصف الغربي من الإمبراطورية.

وكان ديوكلتيانوس قد أصبح قلقًا من تصاعد أعداد الغزوات البربرية في بلاد الغال.

وقد كون جيشًا كبيرًا للتعامل مع الموقف ولكنه قرر أن أسهل وسيلة للتعامل معها هو أن تكون لديه قاعدة عسكرية كبيرة وقوية.

وقد عين أقرب أصدقائه ماكسيميان كإمبراطور ثانٍ على بلاد الغال بينما يحكم هو من نيكوميديا في آسيا الصغرى.

وبذلك، فقد أقام نظامًا يفترض أن يؤمن خلافة هادئة لكل منصب.وكان على كل إمبراطور منهما - وأصبح يطلق عليه أغسطس - أن يختار خليفة لا يكون ابنه مهما كانت كفاءة هذا الابن.

بعد ذلك اختار ديوكلتيانوس خليفتين للعرش ويطلق على كل منهما «قيصر». وأصبح جلاريوس يحكم مع قيصر الشرق، بينما حكم قسطنطين مع قيصر الغرب وأصبح ذلك يعرف بالحكم الرباعي.

وكانت هناك بجيوش منفصلة وقادة مستقلين وحتى جامعي ضرائب مستقلين في كل إمبراطورية.

وهكذا أصبحت الإمبراطورية الرومانية إمبراطوريتين، الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وعاصمتها بيزنطة، والإمبراطورية الرومانية الغربية، وعاصمتها روما.

وبعد وفاة ديوكلتيانوس بدأت المصائب تجتاح الإمبراطورية الغربية من جهة القبائل الجرمانية.

في النهاية اضطر الرومان إلى الانسحاب إلى إيطاليا وحدها، لتوجه إليهم هناك الضربة القاضية وتنتهي أسطورة الإمبراطورية الرومانية، من الإمبراطورية البيزنطية تحديدًا، فتبقى الإمراطورية الشرقية

وحدها، عاجزة أمام هجومات قبائل البربر من الشرق والشمال لتنتهي أيضًا على يد القبائل التركية.

وكانت نتيجة خطأ التقسيم هذا في النهاية سقوط الإمبراطورية الرومانية. ففي سنة 1071، فتح النورمان جنوبي إيطاليا، واجتاح الأتراك آسيا الصغرى.

وطلب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس الذي اعتلى العرش سنة 1081 المساعدة من مسيحيِّي أوربا الغربية، للدفاع عن الإمبراطورية ضد الأتراك. وكان هؤلاء قد سيطروا على الأراضي المقدسة وهددوا الإمبراطورية البيزنطية كذلك.

وأصبحت الحملات العسكرية التي قام بها مسيحيو أوربا الغربية على الأراضي المقدسة تعرف باسم الحروب الصليبية. وخلال الحملة الصليبية الأولى، استولى الصليبيون على المناطق الساحلية من الأراضي المقدسة.

وخلال الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204، استولت جيوش الغرب على القسطنطينية، وكان ذلك يعود، جزئيًّا، إلى رغبة تجار مدينة فينيسيا الإيطالية في الهيمنة على التجارة في الشرق الأوسط.

ونجح بعض رجال البلاط من البيزنطيين المهزومين، في تأسيس قواعد لهم في آسيا الصغرى واسترداد القسطنطينية سنة 1261.

ولكن استولى الأتراك العثمانيون على أجزاء من آسيا الصغرى، كما تقدم الصرب في البلقان، في حين أضعفت الحروب الأهلية أركان الإمبراطورية.

وفي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، لم يكن قد بقي في حوزة الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) سوى القسطنطينية وجزء من بلاد اليونان. وسقطت عندما استولى الأتراك العثمانيون عليها سنة 1453.

ومات آخر إمبراطور روماني، وهو «قسطنطين» الحادي عشر، بينما كان يدافع عنها. وسقطت طرابزون

وكانت المعقل الأخير للسلطة الإغريقية بيد الأتراك العثمانيين سنة 1461.

21

أكذوبة الجنس المتفوِّق

أسقطت عاصمة الإمبراطورية

بحلول القرن الرابع الميلادي، كانت الإمبراطورية الرومانية تبسط نفوذها وتهيمن على أوربا وآسيا، وتضم أعراقًا وثقافاتٍ وأجناسًا مختلفة.

ورغم ذلك فقد استمر مسؤولو الإمبراطورية في تحفظاتهم على احتضان الشعوب البربرية الجرمانية «القوط الغربيون» المتحالفة معهم ودمج أفرادها في جيوش الإمبراطورية تحت وهم الحفاظ على نقاء عرق شعب روما القديمة رغم أن العالم في تلك الحقبة كان يتطور بسرعة.
وكانت هذه هي الغلطة أو الخطأ الذي جعل هذه الممالك تنقلب على الإمبراطورية وأجهزوا عليها.

وتبدأ القصة عندما أغارت قبائل «الهون» على أوربا في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، وفر

«القوط الغربيون» أمامهم وطلبوا من إمبراطور القسطنطينية فالانس أن يسمح لهم بعبور نهر الدانوب إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية فوافق على طلبهم وسمح لهم بالإقامة في إقليم «ميزيا» جنوب نهر الدانوب الأدنى، مقابل أن يكونوا حلفاء للرومان، ووعدهم «فالانس» بالإعفاء من الضرائب وميزات أخرى كثيرة.

ولكن سرعان ما نقض الإمبراطور وعوده، وسرعان ما فرض الرومان عليهم ضرائب باهظة، لذلك قاموا بالثورة وأوقعوا الهزيمة ببيزنطة وقتلوا الإمبراطور «فالانس» في معركة جرت عند مدينة «أدريانوبل» سنة 378 م.

ومرة أخرى يرتكب الإمبراطور الذي خلف فالانس نفس الخطأ. وهدد القوط الغربيون العاصمة البيزنطية في عهد الإمبراطور تيودوسيوس الأول، لذلك سمح لهم بالإقامة في منطقة «تراكيا» في الشمال الشرقي من البلقان.

وبعد وفاة «تيودوسيوس الأول» نقد «القوط» الاتفاق وهاجموا «مقدونيا» و«اليونان» بقيادة زعيمهم «ألارك»، لذلك طلب إمبراطور القسطنطينية أركاديوس المساعدة من أخيه «أونوريوس» (إمبراطور روما) فجاءت القوات العسكرية من «روما» بقيادة «ستيليكو».

لذلك انسحب القوط من اليونان وتجمعوا في شبه جزيرة «المورة»، وكان باستطاعة ستيليكو أن يطبق بقواته عليهم ولكنه لم يفعل ذلك ربما لتعاطفه معهم لأنه من أصل بربري أو ليترك سلطات القسطنطينية وروما في حالة ارتباك.

ولكي يتخلص أركاديوس القسم الشرقي من الإمبراطورية من خطرهم صالحهم ومنح زعيمهم ألارك لقب قائد في الجيش البيزنطي، وسمح لهم بالإقامة في القسم الشمالي من «إيليّريا» شرق البحر الأدرياتيكي.

وبناء على تشجيع من أركاديوس تحرك القوط بقيادة ألارك نحو إيطاليا.

ولكن ستيليكو أوقف زحف القوط وتعهد بإعطائهم مساعدة مالية سنوية مقابل امتناعهم عن مهاجمة روما، وردًّا على ذلك اتهم إمبراطور روما أونوريوس ستيليكو بالخيانة وأعدمه.

واستغل ألارك مقتل ستيليكو للضغط على روما فطلب من أونوريوس تعيينه حاكمًا على المنطقة الممتدة إلى الشمال من البحر الأدرياتيكي وأن يقدم له سنويًّا إعانات مالية.

لكن أونوريوس لم يوافق على مطالب «ألارك» فزحف القوط الغربيون إلى إيطاليا واحتلوا روما ونهبوها بينما هرب الإمبراطور من المدينة.

22

التضحية بالجبهة الداخلية

سر الهزيمة المروِّعة

في أوائل القرن الخامس عشر، انسحب المحتلون الرومانيون من بريطانيا حتى يذهبوا بجيوشهم للدفاع عن بلاد الغال ضد القبائل البربرية الغازية.

وبلاد الغال هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب كانت تقطن شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا.

وكان الرومان في عهد الإمبراطور كلاوديوس قد قاموا بغزو بريطانيا فأرسلوا جيشًا كبيرًا بلغ نحو أربعين ألف مقاتل بقيادة أولوس پلاوتيوس فاجتاح جنوبي البلاد ثم جاء الإمبراطور بنفسه في صيف عام 43م ليقود جيشه إلى مدينة كامولودونوم التي تزعمت المقاومة وليقبل خضوع 12 ملكًا بريطانيًّا، وعاد إلى روما للاحتفال بهذا النصر.

وتابع الجيش الروماني إخضاع المناطق السهلية الجنوبية والوسطى وتم تشكيل ولاية بريطانيا الرومانية يدعمها عدد من الممالك الصغيرة الدائرة في فلك روما.

وعودة إلى انسحاب الرومان فنجدهم قد تركوا خلفهم أراضيَ بدون دفاعات ذات مستقبل مجهول وغامض.

وقد أدى غياب الحكومة القوية والوجود العسكري إلى جر البلاد نحو الفوضى.

وهذا الخطأ الذي ارتكبه إمبراطور الرومان قسطنطين بترك أراضي الرومان دون تحصينات أو دفاعات أو حكام فاعلين وأقوياء سمح للعصابات باجتياح القرى والمدن ونهبها وذبح سكانها وحتى الكنائس لم تسلم من عمليات النهب والسرقة.

كانت هذه الأراضي هي الظهير الداعم للجيوش الرومانية، وتمثل خطوط تموينها، واستطاع الإنجليز اجتياز سور هادريان، الذي اضطر الرومان إلى إقامته

كخط دفاعي من التحصينات تحول في عهد الإمبراطور الروماني هادريان عام 122م إلى سور قوي بطول نحو 120 كم في أضيق جزء من الجزيرة وضم مجموعة كبيرة من القلاع والحصون والأبراج، وقد عرف باسم سور هادريان.

وهكذا تعرضت بقايا قوات روما التي تحتل إنجلترا لهجمات قبائل البيكت والسكوت في الشمال كما بدأت قبائل الساكسون تهاجمها بحرًا من الجنوب وحاقت الأخطار بالإمبراطورية من كل الجهات مما اضطر الرومان إلى سحب آخر قواتهم عام 410م تاركين إنجلترا لمصيرها.

وكان يحكم بريطانيا ولاة رومانيون بمرتبة قنصل تحت إمرتهم أربع فرق عسكرية نظامية إلى جانب القوات المساعدة، وكان مقر الوالي في مدينة كامولودنوم. وفي عهده قُسمت بريطانيا إلى ولايتين ثم صارت أربع ولايات.

كخط دفاعي من التحصينات تحول في عهد الإمبراطور الروماني هادريان عام 122م إلى سور قوي بطول نحو 120 كم في أضيق جزء من الجزيرة وضم مجموعة كبيرة من القلاع والحصون والأبراج، وقد عرف باسم سور هادريان.

وهكذا تعرضت بقايا قوات روما التي تحتل إنجلترا لهجمات قبائل البيكت والسكوت في الشمال كما بدأت قبائل الساكسون تهاجمها بحرًا من الجنوب وحاقت الأخطار بالإمبراطورية من كل الجهات مما اضطر الرومان إلى سحب آخر قواتهم عام 410م تاركين إنجلترا لمصيرها.

وكان يحكم بريطانيا ولاة رومانيون بمرتبة قنصل تحت إمرتهم أربع فرق عسكرية نظامية إلى جانب القوات المساعدة، وكان مقر الوالي في مدينة كامولودنوم. وفي عهده قُسمت بريطانيا إلى ولايتين ثم صارت أربع ولايات.

وانتهى الأمر ببسط الجرمان الساكسون سيطرتهم عليها ولينتهي عصر السيادة الرومانية على بريطانيا.

23

تنازع السلطة

وسقوط المملكة الجرمانية

يعد الاتحاد الأوروبي من نواحٍ كثيرة محاولة لإعادة عقارب الساعة للوراء قبل ألف سنة.

ففي عام 771، اعتلى الملك شارلمان حكم المملكة الجرمانية وانفرد وحده بالسلطة في تلك الإمبراطورية التي كانت عاصمتها آرتشين.

ومن خلال 53 حملة عسكرية، وبصفته واحدًا من القيادات الإدارية المتميزة، استطاع إقامة إمبراطورية كانت هي الأكبر من نوعها منذ الإمبراطورية الرومانية.

وقد عمل شارلز طيلة حياته لإقامة إمبراطورية أوروبية أو مملكة أوروبية موحدة وقد نجح بالفعل إلا أن العادات والتقاليد كانت وراء انهيار أول أوربا موحدة.

وأوربا الجرمانية هي المناطق من أوربا التي يتحدث فيها باللغات الجرمانية أو التي تكون فيها اللغات الجرمانية الأكثر شيوعًا.

وتشمل هذه المناطق الأجزاء الشمالية الشرقية والشمالية من القارة كما وتشمل بعض أجزاء أوربا الوسطى. كون الدول تابعة لأوربا الجرمانية لا يعني بالضرورة أن سكانها ذوو عرقية جرمانية.

ويُدين أغلب سكان أوربا الجرمانية بالبروتستانتية وتوجد العديد من التجمعات الدينية الأخرى كالكاثوليكية وخاصة في جنوب ألمانيا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وجنوب هولندا.

وتتضمن المنطقة الآن الدول التالية: المملكة المتحدة (بريطانيا) وآيسلندا وألمانيا والنمسا وهولندا والدنمارك والسويد والنرويج واللوكسمبورج وليخشنشتاين وجزر فارو والجزء المتحدث بالألمانية من سويسرا ومنطقة الفلاندر في بلجيكا والمناطق

المتحدثة بالسويدية في فنلندا ومنطقة الترايول الشمالي في إيطاليا.

وبعد وفاة شارلمان تم تتويج ابنه لويس، الذي خلفه في حكم الإمبراطورية حتى سنة 840.

ولكن لويس قسم المملكة بين أولاده، الذين تنازعوا فيما بينهم - كما كان الحال دائما في تلك العصور المظلمة - وحدثت حرب أهلية استمرت حتى عام 843، حين اجتمع أبناء لويس التقي في مدينة فردان، وعقدوا معاهدة قُسمت بموجبها الإمبراطورية إلى ثلاث ممالك مستقلة، صارت لاحقًا دولًا مستقلة، هي فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

وقد تعرضت أراضي الإمبراطورية المجزأة في هذه المرحلة إلى موجات فَتْح قادها المسلمون من الأندلس وغزوات خارجية شنها المجر والفايكينج.

وفي أواخر القرن التاسع الميلادي لم يبق للإمبراطورية الكارولنجية وجود. ومن الملاحظ أن

أوربا عانت الفقر وقلة السكان في الحقبة الواقعة مابين القرنين الخامس والعاشر الميلاديين، لقلة المساحات المزروعة بسبب كثافة الغابات ولوجود المستنقعات، كما أدت الأمراض والمجاعات والحروب وانخفاض معدل المواليد إلى عدم زيادة السكان.

وسيطر على أوربا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين شكل من الحكم عرف بالنظام الإقطاعي فقد أصبح المئات من المقطَعين الأرضَ التابعين، من حَمَلة الألقاب والنبلاء مثل أمير أو بارون أو كونت، حكامًا مستقلين في إقطاعاتهم الخاصة، وضعفت بالمقابل سلطة معظم الملوك في ممالكهم.

وتمتع النبلاء بسلطات سياسية واقتصادية وعسكرية وقضائية ولم يعد الملك في فرنسا يحكم سوى منطقة صغيرة قريبة من باريس في حين قسمت بقية فرنسا إلى إقطاعات.

وأصبحت إنجلترا في عهد وليم الفاتح أقوى إقطاعية في أوربا. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر

الميلاديين أتاح الحكم الإقطاعي القوي للحكام فرصة إقامة حكومات مركزية قوية في كل من فرنسا وإنجلترا.

أما في ألمانيا وإيطاليا فقد استمر النزاع بين الدوقات الأقوياء والملوك مئات السنين.

وقد حقق أوتو الأول ملك بافاريا السيطرة على الدوقات الآخرين وتمكن في القرن العاشر الميلادي من ضم أراضٍ جديدةٍ إلى دولته، وبسط نفوذه على النصف الشمالي من شبه الجزيرة الإيطالية.

وبتتويج أوتو الأول في عام 962 بمباركة البابا وُضعت اللبنة الأولى لما عرف فيما بعد بالإمبراطورية المقدسة إلا أن هذه الإمبراطورية كانت صغيرة وضعيفة شملت ألمانيا وإيطاليا الشمالية فقط.

وقد تعرضت مرات كثيرة للانقسام نزاعًا على السلطة بين البابوية والأباطرة من جهة، ونزوعًا من الأمراء

وأصحاب الإقطاعات إلى الاستقلال والسلطة من جهة ثانية.

24

الوعود الحمقاء..

غلطة وليام الفاتح

عندما أغار وليام الفاتح القادم من نورماندي في عام 1066 وهجم على إنجلترا وهزم قواتها، كانت صدمة كبيرة لكثيرين، خاصة مستشاره هارولد جودوينسون الذي كان أبوه يسعى لتنصيب إدوارد ملكًا.

ومع ذلك جاءت الصدمة الأكبر بعد المعركة عندما شن وليام حملة لاكتساح الثقافة الأنجلوساكسون والأنجلو دنماركية القائمة في إنجلترا وإحلال الثقافة النورماندية محلها.

وتعود إرهاصات هذه المعركة التي اندلعت في هاستينجس قبل سنوات من اندلاعها، وبالتحديد بعد وفاة الملك كانوت في عام 1035.

فقد غزا كانوت إنجلترا ولكنه تسبب في الإحراج للثقافة الأنجلوساكسون وأسلوب حياة أصحابها.

وكان موته بداية لنهاية الإمبراطورية الأنجلوساكسونية. وكان الأمل معقودًا على أبناء كانوت الثلاثة ولكنهم أثبتوا أنهم جهلاء وضعفاء.

ومن ثم تحولت أنظار معظم الشعب إلى أبناء «إيما» أرملة الملك السابق الميت إيثرريد وكان لديها أميران ينحدران من سلالة ألفريد الأعظم.

الابن الأصغر كان يحمل اسم جَده الأكبر «ألفريد» وبدا كمن ورث عنه أهم صفاته، فقد كان شجاعًا وكاريزماتيك ومحبوبًا.

على الجانب الآخر، كان شقيقه لا يعبأ بشيء، ومستهترًا وليس لديه أي استعداد للقيام بمهام إدارية وبسبب نفي عائلته إلى نورماندي، نشأ كنورماندي.

في ذلك الوقت كان رجل آخر يصعد إلى السلطة وهو جودوين إيرل ويسيكس قائد الحزب الدانماركي.

وكان يريد السيطرة الكاملة على الشعب الإنجليزي ويريد وضعه ضمن النظام الأنجلو دانماركي.

وعندما بدأ في تحقيق هذه الأهداف لم تكن خزانته فيها جنيه واحد. وعندما جاء الأمير ألفريد إلى إنجلترا لزيارة أمه الأرملة حديثًا سجنه جودوين. وذبح بعد ذلك خدم ألفريد وأعمى عينيه. وسوف لن ينسى إدوارد الحادث وكان يخطط لانتقامه منذ أول لحظة اكتشف فيها الأمر.

ورغم أن أبناء كانوت خلفوه فإن فترة حكمهم كانت قصيرة وماتوا خلال ست سنوات ومرة أخرى كانت إنجلترا بلا ملك. واستغل جودوين فراغ السلطة وراح يعد نفسه للحكم.

وكان لدى جودوين نفوذ سياسي كبير ولكنه كان يفتقر إلى تأييد الساكسونيين. لذلك أقدم على ما تراءى له أنه الحل الأمثل.

فقد قرر أن السبيل الوحيد لبلوغ ذلك هو توحيد الساكسون والدنماركيين وتعزيز وجعل إدوارد ملكًا، ملكًا من نسل ألفريد الأعظم، يجمع الناس حوله، ولكن جودوين، وظن أن إدوارد يمكن الرهان عليه.

وعندما بدأ إدوارد تعيين أصدقائه النورمان في مناصب عليا وضع جودوين حدًّا لها وجعلها لا تتخطى حدودًا معينة.

ولكي يثبت تحالفه مع الإنجليز وليس النورمان، تزوج إدوارد من ابنة إدوارد الجميلة «إيديث»، ومن خلال هذه الملكة سيرث أبناؤه منها المملكة.

25

أميرة الفايكنج

النهايات السعيدة للأخطاء

هناك أوصاف كثيرة للفايكنج كتبت عنهم في عام 1000. غزاة الشمال الذين يزرعون الخوف أينما حلوا أو ارتحلوا، غزاة بلا قلب، وغيرها من الأوصاف التي تشير إلى كل ما هو سلبي وشرير، بالإضافة إلى ما يوصفون به اليوم وهو أسوأ.

كان شغل الفايكنج الشاغل على مدى قرنين من الزمان هو الإغارة بهدف السلب والنهب والاستيلاء على أراضي الغير.

ولعل الدافع وراء ذلك هو فقر وقسوة الطقس وقلة موارد المناطق الإسكندنافية موطن الفايكنج.

كان الفايكنج غلاظًا قساة في حروبهم، أثاروا الرعب في أوربا، فكانوا يحرقون كل مالم يأخذوه، أو ينهبوه،

وكانوا في حروبهم شديدي الحرص على الاستيلاء على الخيول، ثم الماشية، وكذلك الأشياء الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة، وهي غالبًا ما توجد في الكنائس والأديرة.

وهذا يفسر لنا غزوهم المستمر لتلك الكنائس والأديرة في أيرلندا وأسكتلندا وفي غيرها من البلدان، وقد اتصفت حروبهم وغزواتهم تلك بالسرعة وعنصر المفاجأة تساعدهم في ذلك خفة سفنهم وسرعتها.

وقد تعرضت شواطئ إنجلترا الشرقية، وأيرلندا وأسكتلندا لغزوات الفايكنج النرويجيين خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، كما أنهم غزوا ونهبوا أجزاء من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، ووصلوا حتى آيسلندا وجرينلاند، بل إنهم وصلوا حتى أمريكا حيث استقروا لفترة من الزمن على شاطئها الشرقي، كما دلت على ذلك آثارهم الباقية هناك.

أما الفايكنج الدنماركيون فقد ركزوا هجومهم على بلجيكا وفرنسا، والأراضي المنخفضة (هولندا)،

وإنجلترا. واستقروا في شرقي إنجلترا حتى اضطرهم الملك الإنجليزي ألفرد الأكبر للانسحاب من هناك.

أما الفايكنج السويديون، فقد غزوا على امتداد الأنهار في أوربا الشرقية في القرن التاسع الميلادي، وأنشأوا هناك في أرض السلاف طرقًا ومراكز تجارية، كما أنهم سيطروا على طرق التجارة بين بحر البلطيق والبحر الأسود.

أدى وجود الفايكنج في ثلاثة مواقع في إسكندينافيا إلى ظهور ثلاثة شعوب هناك، هم الدنماركيون، والنرويجيون، والسويديون، كما أن هجماتهم المستمرة على إنجلترا أدّت إلى توحيدها.

وربما يكون الفايكنج غزاة الشمال فيهم ما فيهم، إلا أن واحدًا فقط منهم هو أكثر من جعل العالم يطلق عليهم كل ما هو فظيع من ألقاب. هذا الرجل هو أحد ملوكهم واسمه الملك إريك الدموي.

فقد تمكن إريك الدموي من دفع الفايكنج لنفيه مرتين خارج مملكتهم. ولكن بعد عودته اشترك معهم.

يعتبر أريك من أوائل من خططوا للسفر بحثًا عن أراضي غرب القارة الأوروبية حيث خطط لقيادة حملة إلى الغرب من جرينلاند، للبحث عن أراضٍ جديدة. ولكنه تراجع عن القيام بالرحلة بعد أن سقط عن حصانه وهو في طريقه إلى السفينة، حيث خشي أن يكون هذا نذير شؤم، وفي نحو سنة 1000م، قاد أحد أولاده الثلاثة، وهو ليف إريكسون، ما يرجَّح أن تكون أول رحلة إلى أمريكا الشمالية.

ويلقب إريك بإريك الأحمر ولكن هذا اللقب أقرب لاستخدامه من جانب أطفال المدارس واللقب الذي أطلق عليه ويعد أكثر صدقًا هو إريك الدموي.

ولكن بعد عودته من المنفى استطاع إريك جمع أتباع له واتجه بهم غربًا، ووصل إلى جزيرة تعرف اليوم بجرينلاند واستوطنها هو وأتباعه.

وهناك أنجب إريك ولدًا وبنتًا هما ليف الذي أصبح قائدًا ومستكشفًا وأطلق عليه إريكسون، وفريديس.

وعندما تقدمت به السن جمع طاقم بحارة وسار بهم من جديد صوب الغرب وقاد ما يمكن اعتباره أول حملة أوروبية إلى الطريق الرئيسي لأمريكا الشمالية. واستولى ليف على منطقة أطلق عليها فينلاند وتعني الأرض الخصبة.

وكعادة الفايكنج، كانوا يستوطنون ويستعمرون كل الأراضي التي يصلون إليها ببناء مدن ومنازل من الحجر.ويعيدون مجموعات صغيرة من جيشهم الغازي إلى جرينلاند.

وفي تلك الفترة كانت المرة الأولى التي نسمع فيها عن فريديس شقيقة ليف والتي كانت ثورة غضبها سببًا في تغيير مجرى التاريخ.

كانت فريديس فتاة قوية مشهودًا لها بقوة الشكيمة ومهارات القتال وكانت في أعين الفايكنج بطلة

قومية، فقد كانت تقاتل ببسالة ومهارة دفاعًا عن قراهم في جرينلاند عند خروج الرجال في غزواتهم وتقارع أشجع الرجال.

وحدث أن مات إريك الدموي بعد عودة جيشه يقوده ليف من فنلاند فتم تنصيب ليف ملكا على جرينلاند خلفا لوالده، الذي قاد فيما يعتقد أنها كانت أول رحلة إلى أرض أمريكا الشمالية في القرن الحادي عشر الميلادي.

رسا إيريكسون وخمسة وثلاثون رجلًا كانوا برفقته بادئ الأمر، في منطقة صخرية أُطلق عليها اسم هيلولاند (أرض الصخور المنبسطة)، ثم أبحر متوغلًا إلى الجنوب في منطقة تملؤها الغابات الكثيفة أسماها ماركلاند أرض الغابة، ثم تابع جنوبًا إلى موقع قرب الشاطئ حيث وجد العنب ينمو هناك. وصنع الرجال النبيذ من العنب. وأطلق إيريكسون على المكان اسم فينلاند أرض النبيذ. وعاد إيركسون دون أن يعرف أحد ماذا اكتشف.

وما هي إلا فترة حتى انقلب ليف على شقيقته فريديس، بعد أن ثارت ثورة غضبها عليه فقرر نفيها إلى الأرض التي كان قد وصل إليها. وهناك استطاعت فريديس أن تقيم أول مستوطنة أوروبية في أمريكا الشمالية ولولا غضبها ونفيها وتأسيسها تلك المستوطنة لما تم استيطان الجزء الشمالي من أمريكا الشمالية.

26

خطأ في الحساب

تسبب في اكتشاف أمريكا

في عام 1491 ارتكب كابتن السفينة الإسبانية خطأ في حساباتهم، ولكن ليس بالضرورة أن تنتهي كل الأخطاء في التاريخ بكوارث.

بعض الأخطاء تنتهي نهايات سعيدة ومنها هذا الخطأ الذي ارتكبه المستكشف الإسباني الأشهر كريستوف كولومبوس.هذا الخطأ سببه سوء تقدير كولومبوس ومساعديه لخط سير رحلتهم الاستكشافية التاريخية.

كان والد زوجة كولومبوس واحدا من كبار الملاحين المخضرمين، والذي زوده بمجموعة من الخرائط الهامة التي زادت من اهتمامه بالكشف الجغرافي وخصوصًا بكشف طريق إلى الشرق الأقصى بالملاحة نحو الغرب.

وقد عرض مشروعَه هذا على ملك البرتغال فرفضه بناء على توصية مستشاريه الذين رأوا أنه لا ضرورة للبحث عن طرق جديدة، وعلى أثر ذلك لم يجد من بد سوى التوجه لإسبانيا وبعد وصوله عرض المشروع على الملكة «إيزابيلا» ولكنها رفضت بدعوى أنها مشغولة بالحرب مع العرب إلا أنه لم ييأس من رفضها وانتظر إلى أن انتهت الحرب وعاد ليجدد طلب تمويل «إيزابيلا» لمشروعه، وبالفعل وافقت له ومولته في عام 1492.

أبحر كولومبس بعد أن نال موافقة إيزابيلا ملكة إسبانيا وتمويلها، حاملا معه رسائل منها لملوك آسيا والصين.

وفي ليلة 11-12 أكتوبر ظهرت لكولومبس ومن معه بعض معالم الأرض فظنها آسيا (وقد كانت تلك التي اقترب منها كولومبوس هي إحدى جزر «لوكايس» بالقرب من أمريكا الشمالية، عند مدخل مضيق لوريد؛ فأطلق عليها «سان سلفادور»).

وفعلًا أخذ يبحث عن مملكة «كاتي» التي هي الصين؛ ليقدم لملوكها الخطابات التي زودته بها ملكة إسبانيا، ولكن دون جدوى، هناك سارع بالعودة ليعلن نتائج اكتشافه في إسبانيا.

ومات كولومبوس وهو يعتقد أنه وصل إلى آسيا، وأن الجزر التي اكتشفها إنما هي تلك التي توجد بالقرب من الهند، ومن هنا ترجع تسميتها إلى جزر الهند الغربية، وكذلك تسمية سكانها الأصليين بالهنود.

ولم تلبث الأذهان أن أخذت تشك في أن هذه الأرض التي وصل إليها كولومبوس هي آسيا، ولا سيما بعد تلك الرسالة التي نشرها «أميركو فسبوتشي» الفلورنسي، فأشار إلى هذه الأرض المكتشفة بالعالم الجديد، ولذلك سميت هذه الأرض على اسمه «أمريكا».

27

الاندفاع غير المحسوب

والهرولة نحو الهزيمة

عندما مات الملك إدوارد ملك إنجلترا، والملقب ب «إدوارد المعترف» دون أن يترك وريثًا للحكم، قام مجلس النبلاء بتسمية هارولد جودوينسون «هارولد الثاني» كملك. لم يكن القرار بالإجماع، ولم ينجح في تهدئة الشعب الناقم على العرش.

وعند وفاة الملك إدوارد عام 1066 لم يكن له ابن يرث عرش إنجلترا حدث تنازع على العرش الإنجليزي.

وكان هناك مرشحان لمنصب الملك الأول وليام من نورماندى وهو قريب الملك والثانى هارولد جودوينسون قريب زوجته.

وكان ويليام ذا صلة دم ضعيفة إذ إن عمته إيما النورماندية هي أم إدوارد.

كما اعتبر أن إدوارد الذي قضى معظم حياته في المنفى في نورماندي أثناء الاحتلال الدنماركي لإنجلترا كان قد وعده بولاية العرش أثناء زيارة قام بها ويليام إلى إنجلترا سنة 1052.

كما ادعى أن هارولد قد تعهد بالولاء له سنة 1064 حيث أنقذ ويليام سفينة هارولد من الغرق ضد كونت بونثيو.

كما أنهما هزما معًا كونت بريتاني كونان الثاني وفي ذلك الموقف خدع ويليام هارولد بأن جعله يقسم بالولاء على عظام القديس. ولكن مجلس النبلاء توج هارولد ملكًا ليلة وفاة الملك إدوارد.

وفي نفس الوقت، قدم ويليام ادعاءه بأحقية العرش إلى البابا ألكسندر الثاني والذي بدوره أرسل كتابًا له،

مكرسًا له: الدعم البابوي.وشكل بعد ذلك مجلس حرب في ليلابونا.

وبدأ علنًا في يناير بتجميع الجيش النورماندي وقدم الوعود بتوزيع الأراضي الإنجليزية والألقاب.

وشكل أسطولًا ضخمًا مكونًا من 696 سفينة، كما شملت قواته على أعداد كبيرة من المرتزقة والحلفاء من بريتاني وشمال شرق فرنسا وفلاترز، إضافة إلى أعداد أخرى من أجزاء مختلفة من فرنسا ومستعمرات النورماندي في إيطاليا.

في حين كان هارولد قد جمع جيشًا كبيرًا على الساحل الجنوبي لإنجلترا وعددًا كبيرًا من السفن لحماية القنال الإنجليزية.

وتأخر عبور ويليام عدة أشهر بسبب عدم ملاءمة الطقس وقد استطاع خلال هذه الفترة المحافظة على تماسك جيشه.

وعلى العكس من جيش هارولد الذي عانى من نقص الإمدادات وتضاءل الروح المعنوية لجنوده خصوصا مع قدوم موسم الحصاد.

كما أنه قام بتجميع سفنِه قبالة لندن تاركًا القنال بدون حراسة.

ومن ثم جاءت الأنباء أن متنافسًا ثالثًا على العرش وهو هارالد الثالث ملك النرويج بدعم من شقيقه توستي قد حط على بعد عشرة أميال من يورك مما اضطر هارولد إلى تحريك جيشه.

وبعد عشرة أيام وقعت المعركة واستطاع الانتصار على هارالد في توستي في 25 سبتمبر 1066.

وأخيرًا استطاع أسطول ويليام التحرك والإبحار عبر القنال ليحط في خليج سوسكس في سبتمبر وقد فقد سفينتين من أسطوله.

وعند وصوله إلى اليابسة أخذ بيده حفنة من التراب معلنًا للجميع أنه ملك إنجلترا لينتقل إلى هاستينجز

وعلى العكس من جيش هارولد الذي عانى من نقص الإمدادات وتضاءل الروح المعنوية لجنوده خصوصا مع قدوم موسم الحصاد.

كما أنه قام بتجميع سفنِه قبالة لندن تاركًا القنال بدون حراسة.

ومن ثم جاءت الأنباء أن متنافسًا ثالثًا على العرش وهو هارالد الثالث ملك النرويج بدعم من شقيقه توستي قد حط على بعد عشرة أميال من يورك مما اضطر هارولد إلى تحريك جيشه.

وبعد عشرة أيام وقعت المعركة واستطاع الانتصار على هارالد في توستي في 25 سبتمبر 1066.

وأخيرًا استطاع أسطول ويليام التحرك والإبحار عبر القنال ليحط في خليج سوسكس في سبتمبر وقد فقد سفينتين من أسطوله.

وعند وصوله إلى اليابسة أخذ بيده حفنة من التراب معلنًا للجميع أنه ملك إنجلترا لينتقل إلى هاستينجز

مشيدًا قلعته الخشبية لإدارة العمليات منتظرًا عودة جيش هارولد من الشمال.

وقعت معركة هاستينجز واستمرت طوال اليوم وعلى الرغم من أن عدد الجنود في كلا الجانبين كان متساويًا إلا أن ويليام كان لديه سلاح الفرسان والمشاة إضافة إلى الرماة بينما كان لهارولد فقط سلاح المشاة وبعض الرماة.

وقام هارولد بتشكيل جدار من الدروع على طول التلال وقد استطاع النجاح في صد هجوم جيش ويليام وألحق فيه خسائر فادحة، مما اضطر وليام إلى لبس خوذته لينفي الإشاعة القائلة بموته.

وقد وقع هارولد في خطأ قاتل ولكنه شائع في التاريخ وهو الاندفاع غير المحسوب للمعركة، تحت تأثير كراهية الخصم واستعجال النيل منه.

فقد كان الجنود الإنجليز يلحقون بمشاة النورمان الفارين على الأقدام مما سمح للخيالة النورمان

المتمترسين خلف المشاة بشن هجمات متكررة على هؤلاء الجنود وإلحاق خسائر بهم.

وبدأ الأثر التدريجي لسهام النورمان بالظهور بإضعاف جدار الدروع الإنجليزية. وفي النهاية قام الفرسان بشن هجوم أدى إلى موت هارولد حاسمين المعركة وفر بقية الجنود الإنجليز خوفًا.

وانتظر ويليام مدة أسبوعين للحصول على استلام العرش، لكن عوضًا عن ذلك أعلن مجلس النبلاء السكسوني ادجار أثيلينج ملكًا على إنجلترا دون أن يتم تتويجه. بذلك أصبحت وجهة ويليام لندن وبدأ بالسيطرة على المناطق المهمة مثيرًا الخوف في قلوب الإنجليز.

لكن عند لندن تعرض جيشه لهجوم مجبرًا إياه للتراجع إلى جسر لندن، وعند ذلك قرر الزحف إلى الغرب ومهاجمة لندن من الشمال الغربي. وبعد وصول الإمدادات العسكرية لجيشه عبر ويليام نهر التايمز عند

والينجفورد وهناك استسلم له المطران ستيجناد. ووصل ويليام في أوائل ديسيمبر إلى بركهامستد.

وبعد أيام قليلة تنازل أدجار إثيلينج عن العرش وبذلك استنفدت طبقة النبلاء الإنجليزية خياراتها، وعند ذلك أُعلن ويليام ملك إنجلترا وقد أمر أن يكون تتويجه في لندن وبأن يُدعَى ويليام الأول ملك إنجلترا.

28

المصالح الشخصية

الحاكم قبل الدولة!

في عام 1186، كانت الأراضي الخاضعة لفرنسا فيما وراء البحار في أفضل أحوالها.

ومن بين هذه الأراضي المملكة التي أقاموها أثناء الحروب الصليبية في القدس في عام 1098.

وكان دخل هذه المملكة من التجارة هائلا.وكان يستخدم لبناء الحصون والقلاع التي تحمي المدينة من هجمات جيش صلاح الدين الأيوبي. وكان حاكم المدينة هو رينالد ابن هنري من شايتون المعروف باسم أرناط.

وكان أرناط قد قدم إلى القدس، عام 1147م ووضع نفسه أولًا تحت إمرة الملك بالدوين الثالث في القدس وبعد ذلك تحت إمرة كونستانز أميرة أنتيوخ، التي

مات زوجها في عام 1149م، ووقعت هذه في حب أرناط وتزوجته في عام 1153م، وبزواج أرناط منها أصبح أمير أنتيوخ.

كان أرناط متهورًا، عنيفًا. كان يعامل الأبرشية بوحشية لابتزاز المال الذي هو كل هدفه في الحياة. وبتحريض من الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس، هاجم أرناط سيلسيا الأرمنية (جنوب شرق الأناضول).

لكن بعد ذلك عقد اتفاق سلام مع نوروس الثاني من سيلسيا وشاركه باجتياح جزيرة قبرص البيزنطية عام 1156م، إلا أن مانويل انتقم في 1159م عندما خضع أرناط كتابع له.

بعد سنة أسر المسلمون أرناط في سوريا. وبعد سجن أرناط لمدة 16 سنة، خرج ليجد أن زوجته توفيت في عام 1163م، تاركة الإمارة لبومند الثالث ابن زوجها الأول، فعاد إلى القدس حيث توج الملك بلدوين الرابع ملكًا لبيت المقدس الإفرنجية في عام 1177م.

تزوج أرناط من ستيفاني أرملة لورد أوتر جوردن (لورد منطقة شرق وجنوب البحر الميت)، ليصبح أمير صحراء الكرك والشوبك ومونتريال.

وكان الملك بلدوين الرابع قد وقع هدنة مع صلاح الدين الأيوبي، تحددت مدتها بسنتين، بدءًا من مايو عام 1180م.

وكان من شروط الهدنة حرية التجارة للمسلمين والمسيحيين وحرية اجتياز أي من الطرفين بلاد الطرف الآخر.

لكن أرناط لم يقبل أن تمر قوافل المسلمين حاملة الثروات والأموال من منطقته بدون مقابل.

وفي صيف عام 1181م، خرج أرناط مع قوة كبيرة، متجهًا إلى تيماء، على الطريق التجاري بين دمشق والمدينة ومكة، حيث سطا على قافلة عربية واستولى على كل ما تحمله من ثروة وأسر من فيها، منتهكًا هدنة 1180م.

قام صلاح الدين بمراسلة بلدوين الرابع بغضب مذكرًا إياه بالهدنة وطالبًا التعويض. فقام بلدوين الرابع بمخاطبة أرناط في الأمر، فرفض أرناط طلبه.

استطاع المسلمون أن يأسروا أكثر من 2500 حاج إفرنجي كانت سفنهم قد جنحت إلى مصر، وكانوا في طريقهم إلى بيت المقدس.

وأمر صلاح الدين بحبسهم ثم راسل بلدوين عارضًا إطلاق سراحهم مقابل السلع والسبي التي نهبها أرناط. فرفض أرناط المبادلة، واندلعت الحرب في فبراير عام 1183م.

دعا أرناط فرسان الصليب للسيطرة على مكة والمدينة. بغرض إلهاء صلاح الدين عن القدس، أرسل بعضًا من رجاله لهذه المهمة، مما اضطر صلاح الدين لإرسال جيش من دمشق لإيقافهم.

قطع أرناط أشجار غابات الكرك ومعظم نخيل العريش وحمله إلى قلعة الكرك، حيث طلب من الرهبان صنع

بعض المراكب.

وطلب من صليبية عسقلان صنع البعض الآخر، منشئًا أسطولًا من خمس سفن حربية كبيرة، وعدد كبير من المراكب الصغيرة والخفيفة.

قام أرناط بنقل المراكب مفككة على الجمال إلى ساحل البحر الأحمر. ثم ركّب المراكب ودهنها بالقار الأسود، وجهزها بالرجال والآليات القتالية. وخصص مركبين لمحاصرة جزيرة قلعة أيلة، مانعًا السكان من الوصول إلى مصادر مياه الشرب، فيما أكمل باقي الأسطول طريقه إلى عيذاب، ووصل بعضهم إلى باب المندب وعدن.

أحرق الأسطول ستة عشر مركبًا للمسلمين، واستولى على مركب لنقل الحجاج في عيذاب، كما استولى على مركبين محملين بتجارة وبضائع من اليمن، ودمر مؤن الحجاج في ساحل عيذاب.

بعث صلاح الدين إلى مصر لبناء أسطول في مصر والإسكندرية، وقام قائد الأسطول يحمل المراكب مفككة على الجمال وأشرف بنفسه على تحميلها في كانون الثاني عام 1183م، وأحضر رجالًا من المغرب لهم خبرة بحرية للعمل على المراكب.

وتم تقسيم الأسطول قسمين الأول غادر قلعة أيلة.والقسم الثاني ذهب إلى عيذاب، لإنجاد المسلمين، ثم عاد لؤلؤ إلى رابغ، ليواجه الصليبيين في ساحل الحوراء.

كان عدد رجال أرناط أكثر من 300 بقليل، كما انضم إليهم بعض العربان. إلا أن هؤلاء تفرقوا لدى وصول لؤلؤ، وقتل معظم رجال أرناط. في حين قام الملك بلدوين الرابع بحماية قلعة الكرك مرتين من انتقام صلاح الدين في عامي 1183 و1184م.

بدأ صلاح الدين بتحضير الجيوش الإسلامية للحرب، والتجهيز على طول منطقتي مصر وسورية، وفي النهاية عقد صلاح الدين هدنة مع بلدوين الرابع، وفي

نهاية عام 1186م أعاد أرناط الكرَّة فسطا على قافلة ضخمة.

كانت أخت صلاح الدين من بين من أُسر في القافلة، على الرغم من الهدنة التي وقعها بلدوين الرابع مع صلاح الدين.

هذا الأمر سرّع بالتجهيز للحرب، خاصة بعد رفض أرناط مقابلة سفراء صلاح الدين أو الاستماع إلى الملك جي دي لوزينجيان، الذي لم يستطع إجبار أرناط على إعادة البضائع والأسرى بسبب دور أرناط في وصول لوزينجيان إلى الملك.

على أثر ذلك قامت معركة حطين بين المسلمين والصليبيين عام 1187م، وهُزم الصليبيون هزيمة حاسمة، وأسر كل من أرناط والملك لوزينجيان، والعديد من أمراء الصليبيين.

بعد انتهاء المعركة، نُصبت لصلاح الدين خيمةٌ ضخمة، وتم إحضار أمراء الفرنجة الصليبيين وملوكهم، وكان

من بينهم أرناط وجي دي لوزينجيان إليها، حيث كان صلاح الدين، فأوقف أرناط عن يساره وجي دي لوزينجيان عن يمينه.

طلب صلاح الدين عصير (الجلاب) المثلج، فشرب منه وأعطى جي دي لوزينجيان منه ليشرب، فقدم جي دي لوزينجيان - بعد أن شرب - العصير إلى أرناط، فغضب صلاح الدين وقال له: إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقيه.. هذا لا عهد له عندي.

دخل صلاح الدين إلى خيمة داخل الخيمة الرئيسية واستدعى أرناط. وعند مثوله بين يديه استل سيفه وقطع رأسه.

29

قصور الرؤية..

الغزو الصليبي الرابع

كانت البندقية في القرن الثاني عشر مكانًا فريدًا من نوعه. ومع أنها كانت ميناءً بيزنطيًّا نمت كقوة عالمية من خلال التجارة.

وفي الوقت الذي كانت فيه الوثنية في ذروتها عملت هذه المدينة كمركز تجاري أكثر منها كمدينة من العصور الوسطى.

ورغم وجود ملك للبندقية إلا أنه كان هناك مجلس حاكم يتكون من حكام المقاطعات، وكل عضو فيه يدعى الدودق، ومعظمنا سمع عن حاكم البندقية المنتخب الذي كان يختاره المجلس. وجميعنا يعرف الدور الذي كان يلعبه الدودق في العالم الغربي.

وكان هناك دودق بعينه يدعى إنريكو دندولو دوق البندقية تولى الحكم عام 1195. وهذا الدوق هو الذي اشتهر بتوجيه الحملة الصليبية الرابعة واتخذ طريقه الأول عبر مهاجمة البيزنطينيين ونهب القسطنطينية.

كانت البندقية تتمتع بحكم ذاتي أثناء العصور الوسطى وما بعد ذلك وكانت تسمى البندقية وتعد من أهم مرافئ أوربا تجاريًا أثناء الحملات الصليبية وتتمتع بقوة بحرية هائلة.

وخلال الحملة الصليبية الرابعة التي دعا لها البابا أنوسنت الثالث في عام 1189 قام حاكم البندقية الدوق انريكو داندولو بإبرام صفقة مع الصليبيين فوافق على تدبير سفن لهم إذا هم ساعدوا البنادقة في احتلال بلدة زارا في إقليم دالماشيا فقبل الصليبيون وتم الاستيلاء على زارا في عام 1202.

ثم عاد الدوج لاستغلال الصليبيين لتحقيق أغراضه وارتكب أبشع خطأ، وأسفر عن سقوط الإمبراطورية البيزنطية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، فبدلا من

نقلهم إلى القدس اتجه بسفنهم إلى القسطنطينية حيث كان الإمبراطور إيزاك أنجليوس قد خُلِع عن العرش لأنه كان يشجع تجارة البندقية مع الشرق.

وقد نجح الدوج إنريكو داندولو في إعادة الإمبراطور إلى العرش، بيد أن ثورة عنيفة لم تلبث أن نشبت في المدينة لقي فيها أنجليوس مصرعه.

وقد نجح داندولو في الاستيلاء على أفضل المواقع التجارية للبندقية، فبعد احتلاله أهم الجزر في بحر إيجه وسيطرته على مضيق البوسفور ومضيق الدردنيل جعل جمهورية البندقية واحدة من أقوى الدول في أوربا.

30

الغرور والصَّلَف
وسقوط خوارزم

هذا الخطأ يتعلق باثنين من الحكام الكبار الذين كانت أراضي بلادهما وطريقة حكمهما يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف.

إنها قصة تدور حول الكيفية التي يمكن لخطأ مهين واحد أن يغير حياة كل مواطن في أوربا وآسيا.

وتبدأ قصة هذا الخطأ باستعراض مميت للقوة وانتهى بملايين القتلى.

أول هذين الحاكمين هو علاء الدين محمد ملك خوارزم. وفي القرن الثالث عشر كانت مملكة خوارزم تسيطر على وسط آسيا بما فيها اليوم إيران والعراق وباكستان وأفغانستان.

وكانت هذه المملكة الغنية تسيطر على طريق الحرير الذي كان يتعين على جميع القوافل التجارية القادمة من الصين. وكان يتم تحصيل الضرائب على حركة انتقال هذه القوافل من جانب مملكة خوارزم.

كما كانت مملكة خوارزم قوى كبيرة بجيشها الذي كان يبلغ قوامه نصف مليون جندي مزودين بأقوى الخيول والدروع.وكانت سمرقند عاصمة خوارزم مركزًا للعلم والثروة والمروج الجميلة والعمران الرائع.

ولكن كل هذه القوة والثروة ليست كافية لضمان أن تفوز الأمم بكل معركة تخوضها.

فخطأ قاتل من علاء الدين محمد كان سببًا فيما حل بالمسلمين على يد التتار من ألوان الدمار والقتل.

فقد حدث أن جماعة من التجار المسلمين خرجوا إلى بلاد جنكيز خان دون إذن السلطان خوارزم شاه، فقابلهم جنكيز خان وأكرمهم غاية الإكرام، وردًّا على سؤاله لهم: لأي شيء انقطعتم عنا؟ فقالوا: إن السلطان

خوارزم شاه منع التجار من المسافرة إلى بلادك، ولو علم بنا لأهلكنا.

فأرسل جنكيز خان رسله إلى خوارزم شاه لإعادة العلاقات التجارية المتبادلة بين البلدين. وأرسل من جهته تجارًا معهم أموال لا تعد ولا تحصى.

فلما انتهوا إلى الأترار عمد نائب خوارزم شاه بها، فكتب إلى خوارزم شاه بأن يقتلهم ويأخذ أموالهم.

فأصدر خوارزم شاه مرسومًا بقتلهم وسلب ما كان معهم. فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه: هذا الذي جرى، أعلمني هل هو عن رضا منك؟ إن لم يكن برضاك فنحن نطلب بدمائهم من نائب الأترار.

فكان جواب خوارزم شاه: إن هذا كان بعلمي وأمري، وما بيننا إلا السيف. فقام ولده السلطان جلال الدين وكان عاقلًا وأشار على والده أن يتلطف في الجواب ويخلي بين جنكيز خان ونائب الأترار، ويسلطه على دم واحد يحمي به المسلمين من نهر جيحون إلى

قريب بلاد الشام، ومساجد لا تحصى عددها، ومدارس، وأمم لا يحصون، وأقاليم. فأبى والده إلا السيف وأمر بقتل الرسل. فيا لها من فعلة ما كان أقبحها! أجْرَتْ كل قطرة من دمائهم سيلًا من دماء المسلمين.

وكان هذا الخطأ القاتل هو السبب في إشعال ثورة غضب جنكيز خان فقام بغزو خوارزم.

وكانت حمامات الدماء والخراب والدمار في كل شبر من أرض خوارزم، ولما أدرك علاء الدين محمد «خوارزم شاه» الهزيمة المروعة هرب إلى خراسان ثم منها إلى جزيرة نائية، ومات ودفن بها عام 1220م وترك الحكم لابنه جلال الدين ليحارب التتار والمغول.

31

الارتكان للشائعات

وانتقام القطط

يعتبر الطاعون أو الموت الأسود أفظع الأوبئة التي فتكت بالإنسانية عبر تاريخها.

ويمكن القول إن الطاعون هو المسؤول الأول عن أكبر مذبحة بشرية في التاريخ.

وقد انتشرت شائعات تقول بأن القطط هي مصدر هذا الوباء.

وفي تلك العصور الوسطى المظلمة التي شهدت تفشي الوباء كانت هذه الشائعات تنطلق بقوة، لدرجة أنها لم تسمح بوجود مكان للعلم أو المنطق.

ومن ثم وتأثرًا بهذه الشائعات فقد تم ذبح جميع قطط المنازل في أنحاء أوربا.

ولكن ما حدث بالفعل أن الوباء تفشى بقوة بعد ذبح القطط.

فقد أدى ذبح عشرات الآلاف من القطط تلك المذبحة التي شجعت عليها الكنيسة الكاثوليكية إلى تنامي وانتشار الفئران التي ثبت أنها هي الناقلة للوباء وليس القطط.

وكانت النتيجة الكارثية تفشي هذا الوباء وأوبئة أخرى، وتفشي وتغول شتى أنواع الحشرات التي كانت تتخلص منها القطط.

وهناك تقديرات بأن نحو نصف سكان القارة الأوروبية إما ماتوا أو أصيبوا بأوبئة مميتة من جراء هذا الخطأ القاتل، الذي جعل الموت الأسود يجتاح أنحاء أوربا بين عامي 1347 و1352 وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة.

وانتشرت أوبئة مشابهة في نفس الوقت في آسيا والشرق الأدنى، مما يوحي بأن هذا الوباء الأوروبي

كان جزءًا من وباء عالمي أوسع نطاقًا.

وسبب الطاعون نوعًا من البكتيريا تسمى يرسينيا بستس نسبة إلى مكتشفها الأول أليكساندر بستس، وهذه البكتيريا تحتفظ بها القوارض مثل الفئران، وتتكاثر بداخلها وتنمو، وتنتقل عدواها إلى الإنسان عن طريق البراغيث التي تلدغ الفأر المعدِى ثم تلدغ الإنسان، أو نتيجة عض الفئران المعدية للإنسان بشكل مباشر، أو من إنسان إلى آخر بشكل مباشر أيضًا عن طريق الرذاذ والسعال والعطس في حالة الطاعون الرئويِّ.

32

المكابرة والغرور

ولينجتون ونابليون

عندما سئل دوق ولينجتون عن وصف انتصاره في معركة ووترلو على نابليون قال: «لقد جاء إليَّ بنفس الطريقة القديمة وأنا هزمته بنفس الطريقة القديمة».

في مارس 1815 واجه نابليون أربع قوى عظمى هي بريطانيا، أستراليا، بروسيا وروسيا الدول التي أعلنت بوضوح وحسم عزمها الإطاحة به.

وبتجمع جيوشهم الكبيرة ضد فرنسا، لم يبق لدى نابليون غير طريق واحد، هو مقاومتهم بشراسة لدحرهم واحدًا تلو الآخر، وكانت في النهاية معركة ووترلو قرب بروكسل.

المعركة هي آخر معارك نابليون بونابرت هزم بها هزيمة شديدة لدرجة أن الإنجليز يصفون الشخص

الذي يعاني من حظ سيئ جدًّا بأنه صادف ووترلو.

وهي معركة فرضها نابليون على الحلفاء بعد فراره من منفاه في جزيرة إلبا، واضطر أعضاء مؤتمر فيينا إلى إنهاء المؤتمر والتفرغ لحرب نابليون الذي اعتبروه مجرمًا. فوصلت إلى بلجيكا مباشرة جيوش إنجلترا وبروسيا، ومن الطرف الآخر جيوش فرنسا على أن تتوافد إلى جهة الراين جيوش بقية الحلفاء.

وكان في الجانب الأول القائد دوق ولينجتون الإنجليزي والمارشال بلوخر الألماني، وبالطرف الثاني نابليون.

وسبق معركة ووترلو الحاسمة معارك تمهيدية فرعية هي: معركة كواتر براس، ومعركة ليني.

أما في ووترلو فقد احتلت المدفعية قمم التلال التي يتمركز فيها الطرفان، واستطاع بلوخر أن يرفد بقواته ولينجتون الذي كان موقفه حرجًا أمام نابليون. وتم التحام القوتين في الوقت اللازم، وتأخر بدء المعركة

بعض الوقت بسبب الأمطار والوحول في اليوم السابق.

ثم زج نابليون بالصف الأول من جيوشه وتراشقت المدافع النيران بالتناوب، ولما حاول توجيه ضربة لقلب جيش الإنجليز مُني نابليون بخسارة كبيرة وتساقطت أمامه زهرة شباب جيشه، بينما اجتمعت قوات بلوخر وولينجتون معًا.

وتبدأ المعركة في الثاني عشر من يونيو عندما اجتاز نابليون الحدود البلجيكية مع 124 ألف رجل لمقابلة أقرب الجيشين: الجيش الاتحادي الإنجليزي لدوقية ولينجتون وجيش المارشال بلوثر البروسي.

وكان كلا الجيشين يفوق الجيش الفرنسي عددًا، لذلك كانت إستراتيجية نابليون هي تقسيمهما ثم دحرهما.

وكاد نابليون أن يفلح في خطته فتقدمه السريع نحو بروكسل في الخامس عشر من يونيو باغت ولينجتون وبلوثر.

وفي الأيام التالية، طارد نابليون البروسيين حتى مدينة «ليجني»، ولحسن حظ ولنجتون لم ينسحب بلوثر شرقًا باتجاه بروسيا، كما كان نابليون يتوقع، وإنما شمالًا لكي يبقي على اتصال مع الجيش الإنجليزي الاتحادي.

ثم كانت هناك ضربة أخرى من جانب ولينجتون في ذلك اليوم، حينما أوشكت قواته على هزيمة الفرنسيين في موقع إستراتيجي، وهو تقاطع طريق كوارته براس، مما مهد ذلك إلى المواجهة قرب ووترلو في اليوم الثامن عشر من يونيو من ذلك العام.

وبالنسبة لنابليون، كانت معركة ووترلو تمثل سباقًا ضد الزمن فبسبعة وسبعين ألف مقاتل و246 بندقية فاق رجال ولينجتون البالغ عددهم 73 ألف مقاتل و157 بندقية، إلا أن وضعه كان سيتغير إذا ما تدخل البروسيون، وسيكون وضعًا حرجًا من الناحية العددية.

لذلك كان من الضروري إلهاء ولينجتون بأسرع ما يمكن، وهكذا اختار نابليون أن يؤخر هجومه حتى

الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، لكي يكون هناك متسع من الوقت لجفاف الأرض الرطبة. وكان هذا هو أول خطأ من جملة الأخطاء الفرنسية التي ارتكبت.

أما الأخطاء الأخرى، فتتضمن خطأ المارشال جروشيه، وهو أحد قادة نابليون، حينما تقدم نحو ووترلو من دون استشارة القيادة، عند سماعه أول صوت من أصوات المعركة، كذلك خطأ استخدام المدفعية لاختراق حصن شاتو في هوجرمونت، أحد مفاتيح ولينجتون.

ثم إن نابليون ومساعديه قرروا شن الهجوم أولا بالمشاة، من دون دعم سلاح الفرسان وسلاح المدفعية، وبعد ذلك بسلاح الفرسان فقط.

وكما اتضح أخيرًا، فإن الهجوم الأخير الذي تم بواسطة عشرة آلاف فارس كان قد تم شنه عن طريق الصدفة.

ورغم وصول أوائل البروسيين عند وقت الظهر، فإن القتال كان لا يزال متعادلا عند الساعة السادسة والنصف مساء، حينما حاول الفرنسيون الاستيلاء على حصن مزرعة سانت لاهايه، ، وتلك اللحظة كانت أخطر لحظة في كل المعركة بالنسبة لولينجتون.

فلو أن نابليون أطلق حرسه الإمبراطوري الشديد المراس في تلك اللحظة، بدلا من إطلاقه بعد نصف ساعة على ذلك، لربما استمر في سيطرته وربح المعركة لذلك اليوم، إلا أنه لم يفعل.

وهكذا أخذ تدفق البروسيين يستمر على أرض المعركة وأصبح اندحار نابليون مؤكدًا.

وعاد نابليون المهزوم إلى باريس ليتنازل عن العرش، بينما كان ميدان ووترلو مليئًا بجثث القتلى والجرحى.

وقد أنهت ووترلو التفوق العسكري الفرنسي، وفي نفس الوقت كانت البداية الحقيقية لظهور الإمبراطورية البريطانية أو بريطانيا العظمى.

33

الخوف من النجاح

الصين تدمر إنجازَها

تعد الصين صاحبة الكثير من عجائب العالم كسور الصين العظيم، ومخترعاته مثل الصحافة الحجرية والبارود، وهذه مجرد أمثلة وهناك الكثير.

ورغم كل ذلك فإن أعظم إنجازات الصين عبر كل تاريخها والذي تغنى ولا يزال يتغنى به العالم هو أسطولها الأعظم في عصره والذي أسسه وقاده زينج هي الشهير.

وللأسف كانت هذه هي أعظم أيام مجد الصين التي جاءت ثم ولت تاركة فقط همس الوجود.

هذا الأسطول تم إنشاؤه عام 1403 بعد عام من تولي زو داي السلطة. فقد كان هذا الإمبراطور يختلف عن

سابقيه، حيث كان مصمما على إقامة إمبراطورية تقوم على الاختراعات والاستكشافات.

وقد أقام نهضة عمرانية كبرى وزاد من طول سور الصين العظيم وشجع البحث العلمي وروح الابتكار.

وفي إطار التطوير، نقل الإمبراطور العاصمة إلى بكين وأقام منظمة لجمع المعلومات وتوثيقها.

وقد تم وضع المعلومات التي تم جمعها في موسوعة تتألف من 11 ألف مجلد.

وبالإضافة إلى إنجازات كثيرة، أمر الإمبراطور ببناء أسطول ضخم أصبح فيما بعد الأعظم بعد سور الصين العظيم.

وقام الإمبراطور من أجل تحقيق هذا الغرض بتعيين الأميرال زينج هي وكان محل ثقته وكان الرجل على قدر الثقة، وبنى الأسطول وتولى قيادته.

الرحلة الأولى من رحلات زينج هي السبع قد انطلقت من سواحل الصين، وصولا إلى شواطيء إفريقيا، قبل مايزيد على 600 عام.

وكان جبروت الأسطول الصيني واضحًا، فكل من أسطول المستكشف كريستوفر كولومبوس والمستكشف فاسكو دا جاما مجتمعين كانا يمكن أن يوضعا في طابق من سفينة واحدة من سفن الأسطول العملاقة، المعدة لعبور المحيطات في سهولة ويسر ودون التأثر بالعواصف والرياح.

وكان أسطول زينج هي يتألف من 62 مركبًا عملاقًا، يقدر طول المركب الواحد ب 400 قدم، وعرضه ب 170 قدمًا، وفيه 9 صوارى، ومساحة سطحه الرئيسي50 ألف قدم مربع.

وكانت ترافق هذه السفن العملاقة مراكب سريعة ضخمة بطول 370 قدمًا وسفن لحمل المؤن بطول 280 قدمًا وسفن لنقل الجنود ومراكب خفيفة مجهزة للمواجهات الحربية.

وكانت أكثر من 300 مركب تبحر في رحلات زينج الرئيسية إلى ما كان الصينيون يسمونه بالمحيط الغربي.

وكانت طواقم هذه السفن تضم نحو 30000 بحار وجندي ومئات المسؤولين و180 طبيبًا وعشرات من المهنيين كالحدادين والنجارين والطهاة والخياطين فضلا عن حشود من المترجمين الذين يتقنون العديد من لغات العالم.

ومنذ البداية المبكرة جمع أسطول الكنوز كما كان يسمى بين التجارة والاستكشاف والدبلوماسية، حيث كان يحمل أكثر من مليون طن من الحرير الصيني والأواني الخزفية والعملات النحاسية لتتم مقايضتها لقاء التوابل الاستوائية والأخشاب العطرة والأحجار الكريمة وشبه الكريمة والحيوانات النادرة.

ولم يقتصر نشاط زينج هي على التبادل التجاري، حيث حمل أيضًا راية التبادل الثقافي بين الشعوب وتحقيق التآلف بينها، وصولا إلى سواحل إفريقيا.

ورغم كل إنجازات أسطول زينج، وشهرته المدوية في العالم، إلا أن خطأً قاتلًا جعل هذا الأسطول يتوقف عن الحركة.

أما السبب فهو موت الإمبراطور زو داي في عام 1424. وهنا انقض المحافظون على العرش. وجاءوا بإمبراطور جديد، سرعان ما اتخذ تدابير دمرت هذا الأسطول.

وكان موقف هذا الإمبراطور ضد الرحلات الاستكشافية، وضد خروج سفنه حول العالم، رغم المنافع الكبيرة التي تجنيها الصين.

وكان من الواضح أن الإمبراطور الجديد يريد طمس جهود وإنجازات سابقه بالإقلال من هذه الإنجازات وضربها في مقتل دون النظر للمصلحة الوطنية لبلاده.

وقبل موت الإمبراطور داي كان قد اتفق على أن يبحر الأسطول إلى العالم الجديد (أمريكا) ولكن الإمبراطور

الجديد أوقف الرحلة وحرم بلاده مِن التواجد في هذا العالم والانتفاع بخيراته كالإسبانِ وغيرهم.

34

الادخار الزائف

بوينت - بلاك

في عام 1452 تُوِّجَ قسطنطين الحادي عشر إمبراطورًا للإمبراطورية البيزنطية التي كان قد تدهور حالها فأصبحت مجموعة من الجزر بالإضافة إلى مدينة القسطنطينية نفسها.

ولكن المدينة كانت في ذلك الوقت مجرد ذكرى لمدينة عظيمة غنية وقوية تتبوأ مكانها كعاصمة لإمبراطورية عظيمة لم تعد، وعاصمة مفلسة توقفت حدائقها عن الازدهار، وخلت قصورها من مظاهر العظمة والأبهة ولم يعد لديها الجيوش التي كانت.

وقد كانت مدينة القسطنطينية أغنى مدينة في العالم على مدار ثمانمائة عام، وكانت مركزًا تجاريًا هامًا يربط بين آسيا وأوربا، وعندما سقطت روما في القرن

الرابع الميلادي تحولت القسطنطينية إلى عاصمة للإمبراطورية البيزنطية (الرومانية).

ومع ذلك، ظلت القسطنطينية مركزًا للكنيسة الأرثوذكسية بينما كانت روما مركزًا للكنيسة الكاثوليكية، وكانت كل منهما تغار من سلطان وتأثير الأخرى، وكان الانشقاق بينهما كبيرًا لدرجة أن الكنيسة الأرثوذكسية بالنسبة لروما كانت عدوة أكبر من الإسلام.

وكان للمدينة سور منيع صمد مئات السنين طويلا أمام الهجمات والغزوات واحدة تلو الأخرى مما جعله أقوى الحصون في العالم.

في شتاء عام 1451 قَطع الإمداد عن المدينة، وبنى حصونه الخاصة التي أسماها بالحصار الرملي، بلغت سماكتها خمسة وعشرين قدمًا وأنجزت بالكامل خلال أربعة أشهر، من هناك كان «محمد الثاني» يسيطر على مضيق البسفور من أضيق مناطقه.

استطاع السلطان من قلعته الجديدة أن يسيطر على سفن القسطنطينية فقبض على الخط الحيوي للمدينة، وما كانت السفن المحملة بالحبوب الأوكرانية قادرة على عبور المدافع العثمانية، عندما أمر «محمد الثاني» سفنه الحربية بدخول بحر المرمر كان الحصار مكتملًا وكانت القسطنطينية منقطعة عن العالم.

بلغ قسطنطين مرحلة اليأس حتى إنه طلب العون العسكري من الكنيسة الكاثوليكية المعادية له وبعث بالهدايا إلى السلطان واعدًا بأن يزيد من كميات الذهب، رفض «محمد الثاني» هذه الوعود ولكنه قدم عرضًا لقسطنطين بأن يمنحه الأراضي في اليونان وحرية العبادة للسكان مقابل المدينة.

رفض قسطنطين وكان يتشبث برمزية ما تعنيه هذه المدينة له وللنصارى من ميراث الإغريقية القديمة والرومان، وقد ورد في رسالته الأخيرة لمحمد الثاني أنه من الواضح تمامًا أنه عازم على مواصلة جهوده من أجل الحصول على القسطنطينية وأنذره بأوخم

العواقب وهدده بأقصى الحروب للحيلولة دون ما يريد.

وفي شتاء 1452 أكمل السلطان محمد بناء قلعة روم إيلي على الجانب الأوروبي من البوسفور تمهيدًا لحصار المدينة.

وفي تلك الأثناء استنجد قسطنطين بالغرب المسيحي للدفاع عن عاصمته وأكد التزامه بمبدأ الوحدة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وقد وصلته بالفعل فرق قليلة من المرتزقة من شمال إيطاليا وبعض المدن الأوربية الأخرى، إلا أن مشاركة أوربا المسيحية في واجب الدفاع عن القسطنطينية كان لا يضارع على الإطلاق جيش العثمانيين المتفوق عددًا وعدة في تلك المعركة.

كذلك استنجد قسطنطين بأشقائه أمراء المورة لكن مرة أخرى باءت محاولته بالفشل نتيجة تهديد العثمانيين لهم. وفي شتاء سنة 1453 بدأ الحصار العثماني لمدينة القسطنطينية.

واستنجد قسطنطين بالبابا، فدفع البابا من صندوقه الخاص الجزء الأكبر من أكلاف عشر سفن، لكنه وضعها تحت إمرة ملك نابولي الإسباني الأصل، فغدر الملك بالأمانة وأبحر بها إلى مكان آخر، إذ كان يطمح إلى أن يصبح هو نفسه إمبراطور القسطنطينية.

أما أهالي البندقية فقد تشدقوا بالحديث عن إرسال العون، إلا أن كلامهم لم يتجاوز الأقوال. ولم يكن أحد يعلم ما إذا كان الأسطول المرتقب سيبحر أم لا.

وكان سكان المدينة من الروم غاضبين غضبًا شديدًا من الوعود الغربية التي بقيت دون تنفيذ، خاصة بعدما اشترطت روما الخضوع لها والاعتراف بسلطة البابا اللاتيني على الكنيسة الرومية وتنازلات عقائدية مقابل تقديم العون.

وافقت القسطنطينية وأقيمت شعائر القداس باللاتينية في كنيسة آيا صوفيا، فجن جنون روم المدينة ونُقل عن دوق نوتاراس الكبير، وهو المسؤول الثاني في القسطنطينية، قوله: «رؤية عمامة السلطان في هذا

المكان أفضل عندي من رؤية قبعة الكاردينال أو تاج البابا المثلث».

وتمكن السلطان من وضع 70 سفينة حربية صغيرة داخل القرن الذهبي. فبعد شنه هجومين بحريين على القرن الذهبي وإخفاقهما في كسر طوق السلاسل الطافية فوق الماء، أمر السلطان بنقل سفنه برًّا على حاملات ذات دواليب جرتها الثيران مسافة 15 كيلومترًا فوق طريق رصفت بالألواح الخشبية على هضبة يبلغ ارتفاعها 75 مترًا.

وتم إنزال السفن إلى الميناء الأعلى من القرن الذهبي وسط مياه ضحلة يتعذر على السفن المسيحية الكبيرة عبورها من أجل شن هجوم.

وعزز السلطان سفنه بعدد من المدافع الثقيلة. وهو ويكاد يطير فرحًا إذ أصبح في إمكانه مهاجمة المدينة من ناحيتين في آن واحد.

وقد كانت وسائل الدفاع عن القرن الذهبي على الدوام أضعف كثيرًا منها في الخطوط الدفاعية الأخرى.

بعد وصول الجيوش العثمانية أمام أسوار القسطنطينية، أرسل السلطان رسولا إلى الإمبراطور يعرض عليه تسليم المدينة بالأمان وفي المقابل يترك له حكم مدينة ميسترا إلا أن المفاوضات باءت بالفشل بسبب رفض الإمبراطور مقترح السلطان وأبي إلا الدفاع عن عاصمته، وقاد بنفسه عملية الدفاع عن أسوار المدينة وبث الحماس وروح الوحدة بين الجنود اليونانيين والجنود الجنوبيين، والبنادقة. وفي 29 مايو 1453 سقطت القسطنطينية.

وكان على الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر مواجهة الخطر الذي يتهدد إمبراطوريته من قبل الدولة العثمانية والتي كانت تلتهم أراضي الإمبراطورية قطعة بعد أخرى حتى صارت الإمبراطورية لا تزيد على كونها مدينة هي العاصمة. سارع الإمبراطور إلى استخدام الدبلوماسية الشخصية من خلال أشخاص من داخل الدولة العثمانية لعله يتمكن من وقف المد

العثماني الذي كان أكثر إصرارًا على فتح القسطنطينية وله مبرراته خشية أن تحدث تحالفات تهدد مصالحه على الجانب الأوربي، لكن الدبلوماسية الشخصية لم تكن تلقي صدًى في وقت بدت فيه بيزنطة (القسطنطينية) على وشك السقوط.

وسارع الإمبراطور إلى طلب العَوْنِ من إمارات غربية عدة لكنها كانت في شغل شاغل عنها وإن كان حصل على دعم البندقية في الدفاع عنه، واتجه إلى البابوية التي كانت تري ضرورة موافقة بيزنطة على وحدة الكنيستين بيزنطة وروما وهو ما وافق عليه لكن وجد معارضة كالعادة من رجال الكنيسة البيزنطية.

أيًّا ما كان الأمر ، فإن دبلوماسية الوقت الضائع لم تحقق له فرصة النجاح لقلة الإمكانيات وكذلك لاعتلاء السلطان محمد الثاني لعرش الدولة العثمانية، الذي كان أكثر عزمًا من سلاطين سابقين على الفوز بالقسطنطينية وبعد حصار قصير للمدينة تمكن محمد الثاني من دخولها في التاسع والعشرين من مايو عام 1453م ويلقى قسطنطين الحادى عشر حتفه فى

الدفاع عند أسوار عاصمته وقد أعوزته أكبر وسيلتين كانتا تعملان على مدّ عمر الإمبراطورية الجيوش القوية والدبلوماسية العتيدة.

35

الانحراف عن المسار

كابرال واكتشاف البرازيل

كانت تجارة التوابل هي طريق البرتغاليين إلى الشرق وسر هذه الدولة الصغيرة.

لقد وجد البرتغاليون طريقهم عبر التجار المسلمين.

وكان الطريق الذي اتخذوه هو الإبحار حول إفريقيا، ثم إلى الساحل الشرقي للقارة السمراء قبل الإبحار إلى الهند.

وكانت عملية الإبحار بدائية وأساليب حفظ الطعام غير جيدة.

وكان من الممكن أن يؤدي الإبحار في المياه المفتوحة إلى أن تضل السفينة طريقها، وموت بحارتها جوعًا وعطشًا.

وقد حاول معظم التجار في القرن الخامس عشر البقاء بمحاذاة اليابسة، وكانت رحلاتهم محفوفة بالمخاطرة، ولكنها في النهاية مربحة.

وكانت عودة سفينة واحدة من عشر سفن محملة بالتوابل تعني أرباحًا كافية لتغطية تكاليف السفن المفقودة وتعطي المستثمرين أرباحًا تصل إلى 1000 %.

وفي عام 1500، قاد بحار برتغالي يدعى بدرو الفاريس كابرال أسطوله الخاص المكون من 15 سفينة محاولا السير في نفس المسار الذي قطعه المستكشف الشهير فاسكو داجاما إلى الهند بالطواف حول إفريقيا.

ولكن عند وصوله غرب إفريقيا كانت الرياح عاتية وغير متوقعة أطاحت بسفنه قبل أن تصل إلى الشاطئ.

وكان هذا مصدرًا لقلق كل بحارته، فأبحر كابرال جنوبًا ليدرك أنه وصل إلى منطقة لا تمت لإفريقيا بصلة وأنه في الجانب الخطأ من المحيط، وأنه سار غربًا وأن

الأدغال التي وجدها هي منطقة جديدة. هذه المنطقة هي التي نعرفها اليوم باسم البرازيل.

واستمر كابرال في محاولة الوصول للهند وبالفعل بعد عام واحد وصل إليها. ولكن التوابل التي حملها كابرال من البرازيل، والأرباح التي حصل عليها المستثمرون الذين مولوا رحلاته جعلاهم يرسلونه من جديد، وأصبحت البرازيل منطقة نفوذ للبرتغاليين، ثم للإسبان ثم تم عقد اتفاق بين الدولتين اللتين كانتا تتنافسان على زعامة العالم الجديد.

ورغم ذلك فقد ظلت البرتغال تحاول انتزاع الهيمنة على البرازيل باعتبار كابرال هو مكتشفها، رغم أنه اكتشفها بالخطأ عندما ضل الطريق إلى الهند فحط بسفنه على أرض البرازيل.

36

كسر القواعد مرارًا وتكرارًا

هنري الثامن والانفصال عن الكنيسة

هذه قصة اثنين من بابوات الكنيسة الكاثوليكية، وملك وعدة ملكات.أثناء عصور الظلام وعصر النهضة كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية دائمًا تعاني أزمات مالية، وبالتحديد قبل أن يضخ أثرياء العالم الجديد الأموال للكنيسة.

وكانت معظم أوربا تعاني نقصًا شديدًا في العملات الصعبة. لم تكن هناك في تلك الحقبة أوراق بنكنوت.

وكانت لدى الكنيسة الرغبة في دعم رجال الدين التابعين لها ومبانيها والمناطق التابعة للسلطة البابوية (بما في ذلك القوات والحرس التابعان لها) بالإضافة للجمعيات الخيرية التابعة لها.

وقد استخدمت الكنيسة كل الطرق لجني الأموال التي تحتاج إليها.من بين هذه الطرق إصدار صكوك الغفران عن الخطايا التي يرتكبها الناس حتى قبل ارتكابها!

وقد أدى ذلك إلى قيام رجال الدين بالتوسع في هذه الصكوك، كبيعها مقدمًا عن الخطايا التي لم تُرتَكب بعد، وأحيانا تخطئة الناس لسحب أموالهم، وإعطائهم غفرانًا من خطاياهم المستقبلية!

وقد بلغ الحد برجال الدين بمسامحة القتلة الأثرياء عن جرائمهم مقابل دفع الأموال الطائلة ومنحهم الصكوك.

وكانت هذه الصكوك أحد أسباب ما يعرف بالإصلاح البروتستانتي، الذي جاء بضغوط قوية من جانب البروتستانت ومعهم كبار رجال الفكر.

ومع ذلك استمرت الصكوك وتورط فيها أمراء وملوك يدفعون المال للكنيسة ليفعلوا ما يحلو لهم، مقابل أن تغض الكنيسة الطرف عن خطاياهم وأفعالهم الرهيبة.

وفي عام 1523، تم انتخاب البابا كليمنت السابع، والذي كان له موقف مغاير. فقد ورث كليمنت موقفًا سياسيًّا هشًّا في أوربا نتج عنها عدم قدرتها على منح الملك هنري الثامن ملك إنجلترا تنازلات.

وفيما بين عامي 1523 و1527، توزع ولاء كليمنت ودعمه بين فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية المقدسة وعدد من أمراء إيطاليا.

وقد أدى ضعف كليمنت إلى غزو الإمبراطور الروماني شارلز الخامس والذي أخذت قواته البابا رهينة لبعض الوقت دون أوامر منه مما أدى إلى إحراجه، ولأن هنري الثامن هو الذي حرره فقد تحول إلى تابع للملك فيما بعد يقدم له التنازل تلو الآخر في صورة صك غفران أو موافقة على زواج غير شرعي.

وهذه الأخطاء في النهاية كانت سببًا في انفصال إنجلترا عن الكنيسة الرومانية.

كان الملك هنري متزوجا بالملكة كاترين ذات الأصول الإسبانية، وقد تزوجها بعد وفاة أخيه بموجب مرسوم شرعي من الكنيسة لأنها كانت زوجة أخيه.

هنري الذي كان يرغب بالزواج من أرملة أخيه من أجل إرساء تحالف قوي بين إنجلترا وإسبانيا، يحتاج إلى إعفاء من الكنيسة كي يتمكن من الزواج بزوجة أخيه كاترين التي صرحت أمام الكنيسة بأن زواجها من آرثر لم يتم فعليًّا، وبذلك نالت الإعفاء لتتمكن من الزواج من هنري.

وبعد فترة من الزمن أحب هنري الثامن «آن بولين» وأراد الزواج «بآن بولين» فلم يستطع بسبب زواجه من كاترين، فتقدم بطلب طلاق من زوجته كاترين إلى الكنيسة.

وهنا رفضت الكنيسة مضطرة رغم سطوة هنري وضعف البابا أمامه، بسبب أن الملكة كاترين هي ابنة ملك إسبانيا، وكانت لها شعبية واسعة.

وبعد محاولات عديدة من قبل هنري للحصول على طلب طلاق وإذن بالزواج من آن بولين من كنيسة روما.

وبعد اضطرابات كبيرة في العلاقة بين هنري الثامن وبين كنيسة روما تمرد هنري على سلطة الكنيسة الرومانية وفصل إنجلترا عنها، ومن ثم تزوج ب «آن بولين».

وكانت هذه الواقعة هي سبب انفصال بريطانيا عن قوة الكنيسة الرومانية، وسببا في التطور الإصلاحي اللاحق في بريطانيا، والذي أدى إلى زيادة قوة بريطانيا في أوربا، ونقل السلطة السياسية والمالية من روما إلى العائلة الحاكمة في إنجلترا.

حيث أنشأ الكنيسة الأنجليكانية وعين نفسه رأسا لها مما جعل السلطة الدينية والسياسية في يده، وكذلك لا يلزمه السمع والطاعة لبابوات روما وكنيستهم، وكل ملوك إنجلترا إلى الآن هم رؤوس هذه الكنيسة الأنجليكانية.

37

الخرافات وانهيار

إمبراطورية الأوزتك

الخرافة يمكن أن تسبب لك المتاعب. وقد كانت سببًا في تدمير الرحلة الاستكشافية التي قام بها الأثينيون لجزيرة صقلية عام 415 قبل الميلاد، وسببًا في انتشار الطاعون (الموت الأسود) في عام 1305.

وفي عام 1521 كانت سببًا في سقوط إمبراطورية العالم الجديد بأكملها.

وقد كانت هناك عدة أسباب وراء غزو هرناندو كورتس و500 جندي للأوزتك في العالم الجديد.

وكان الأوزتك يهيمنون على إمبراطوريتهم الشاسعة لأقل من قرن من الزمان. وقد ورثوا بواسطة دخولهم في تحالفات إمبراطورية التولتيكس.

وقد ظل الأوزتك حتى عام 1431 حتى يبدأوا رحلاتهم الاستكشافية وقد فعلوا ذلك بإصرار وعزيمة.

وبحلول عام 1465، كانت إمبراطوريتهم قد سيطرت على المكسيك وأمريكا الوسطى وما يعرف اليوم بجواتيمالا ولكنه لم يكن أبدًا احتلالًا سهلًا.

فقد استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تسيطر وتهيمن عندما جعلت شعوب المناطق التي احتلتها جزءًا من الإمبراطورية ولكن الأوزتك لم يفعلوا هذا أبدًا.

كان الأوزتك يعبدون الأجسام السماوية خاصة الشمس ولكن إله الشمس لديهم كان في حاجة إلى التضحية وتقديم القرابين وكانت هذه القرابين التي يذبحونها هم الأسرى.

وكانت هذه الخرافة في النهاية سببًا في تدمير إمبراطوريتهم.

وكان يتم تقديم الآلاف كقرابين في أيام الأعياد الدينية وكان معظمهم من الأسرى. كان الأوزتك يحبون الحروب لجمع الأسرى وتقديمهم كقرابين.

ورغم أن هذه القرابين قد تكون ساهمت في الانهيار الدراماتيكي لإمبراطورية الأوزتك، إلا أنها لم تكن السبب الأساسي.

فعندما وطأت أقدام كورتيس أرض العالم الجديد وجد أراضيَ مُفعمةً بالصراعات وشعوبًا تكره الأوزتك.

وكان بمقدور كورتس أن يدمج هذه الشعوب في إمبراطوريته ويجندهم في جيوشه لغزو المناطق الأخرى في العالم الجديد ولكنه استطاع ببراعة ومثابرة أن يحظى بكرههم وعداوتهم.

وعندما وصل الإسبان للعالم الجديد، تحالفت معهم شعوب هذه المناطق ضد الأوزتك ومن هنا انتصر الإسبان وأجهزوا على الأوزتك وأنهوا إمبراطوريتهم.

38

الأحكام الخاطئة

وهزيمة الأرمادا الإسبانية

ربما يكون من الصعب تحليل ما حدث من عدسات التاريخ لأننا نعرف كيف انتهى التهديد بالغزو.

ولكن يمكن مناقشة ما حدث بعقلانية. ويمكن أن نقول كيف انتصر الأسطول الإسباني المعروف تاريخيًّا باسم «الأرمادا» في معركته ضد سير فرانسيس دارك وباقي كلاب البحر الإنجليزية حتى بعد أن ألقت السفن الحربية الإنجليزية مرساتها على الشاطئ الفرنسي.

ولكن فيما بعد فقدت إسبانيا أسطولها «الأرمادا» ليس بواسطة البحرية الإنجليزية، وإنما بالقرارات الخاطئة لقائدها.

وبهزيمة الأرمادا، تزعزعت هيبة إسبانيا أقوى دولة بحرية في العالم آنذاك.أخطاء كثيرة ارتكبها قائد

الأرمادا نتيجة الجهل.

وربما يكون الافتقار إلى المعرفة وقلة الخبرة واليد الطولى حتى وإن كان صاحبها يتمتع بالموهبة.

فالرجل الذي اختاره ملك إسبانيا لقيادة الأرمادا لم يكن ضابطًا بحريًّا ولكنه كان واحدًا من أفضل الضباط والقادة.

ولكن ما حدث على يد هذا القائد واسمه ميدينا سيدونيا يؤكد أنك قد تكون أفضل القادة في المعارك البرية ولكنك تفشل في قيادة أسطول بحري لافتقارك لجهلك بهذا المجال.

وكان هناك أمران لم يعرفهما ميدينا سيدونيا قائد الأرمادا الإسباني في عام 1588 يمثلان الفرق بين خوض المعارك في البر وخوضها في البحر.

وكان الجهل بهذين الفرقين هو سبب الفشل النهائي وانهيار أسطول إسبانيا العظيم مما جعل فيليب ملك

إسبانيا يقول في النهاية عن مَدِينا سِيدونيا قائد الأرمادا إنه بحار جاهل.

وكان ملك إسبانيا فيليب قد أمر بإنشاء الأرمادا في يناير عام 1586، فبنى سفنًا حربية جديدة كثيرة، وسلح السفن الموجودة تسليحًا ثقيلًا.

وانتهى العمل من تجهيز الأرمادا في مايو 1588 م في المرفأ البرتغالي لِشْبُونة التي كانت يومئذ تحت السيطرة الإسبانية. وبلغت سفنه نحو 150 سفينة ضخمة.

وفي نفس العام، أرسل ملك إسبانيا الأرمادا الإسبانية، أو الأسطول الحربي الإسباني، الذي كان يعد واحدًا من أكبر الأساطيل الحربية في العالم في حينها، لغزو بريطانيا، والإطاحة بعرش الملكة إليزابيث الأولى وإقامة نظام حكمٍ موالٍ للإسبان على التربة البريطانية.

وكان التنافس الديني والتجاري والاستعماري بين بلاده وبين إنجلترا هو الدافع الحقيقي وراء تلك المعركة التي تكمُن أهميتها في أنها أحكمت سيطرة بريطانيا البحرية على أعالي البحار، وأنهت الحلم الإسباني في أن تصبح إسبانيا قوة عظمى مرة وإلى الأبد.

وعندما نشبت المعركة في بحر المانش بين الأرمادا والأسطول الإنجليزي «كلاب البحر»، كانت المعركة جزءًا من الصراع الذي شهده القرن السادس عشر بين قوات ملكة إنجلترا البروتستانتية إليزابيث الأولى وملك إسبانيا الكاثوليكي فيليب الثاني. وكان القتال الذي خاضه الأسطولان الإنجليزي والإسباني في بحر المانش المعركة الأخيرة الحاسمة بين القوتين في تلك الحقبة.

وعندما وصل الأسطول الإسباني إلى شاطئ پلايموث بجنوب غرب إنجلترا، كان الإنجليز بانتظارهم.

وقد كانت السفن في الأسطولين الإسباني والإنجليزي متساوية في العدد إنما مختلفة في التصميم.

فالسفن الإسبانية كانت مرتفعة جدًّا ومزودة بعدد كبير من المدافع الثقيلة القصيرة المدى. وبدت بأبراجها المبنية في مقدمتها ومؤخرتها أشبه بقلاع عائمة. وفي ما يتعلق بالتكتيك الحربي، اقتضت خطة الإسبان أن يصعد مقاتلوهم على متن سفن العدو عند مهاجمتها.

أما السفن الإنجليزية فكانت أسرع وأقل ارتفاعًا، ومزودة بعدد أكبر من المدافع البعيدة المدى.

وقد خطط ربابنتها أن يتجنبوا الالتحام بالعدو ويقضوا على السفن الإسبانية من بعيد.

فوقعت مناوشات بين الأسطولين على طول بحر المانش وخاضا معركتين ثانويتين. وقد أثبت التشكيل الدفاعي فعاليته، فلم تغرق أية سفينة إسبانية تحت وابل نيران المدافع الإنجليزية البعيدة المدى.

فقرر الربابنة الإنجليز إيجاد طريقة لتفريق السفن الإسبانية كي تصبح في مرمى نيران مدافعهم، وحانت الفرصة المنشودة .

كان دوق مدينا سيدونيا قد التزم بتنفيذ الأوامر المعطاة له من جانب الملك، فقاد الأرمادا لملاقاة دوق «پارما» وجنوده الذي أبلغه الملك أنه سيلاقيه.

وبانتظار وصول رسالة من دوق پارما، أمر الأسطول بإلقاء المرساة مقابل مدينة كاليه على الساحل الفرنسي وهذا القرار الخاطئ كان مكلفًا.

فقد صار من السهل الهجوم على السفن الإسبانية الراسية، وأرسل الإنجليز ثماني سفن بعدما وضعوا فيها موادَّ قابلة للاحتراق وأضرموا فيها النيران. فسارع أغلبية الربابنة الإسبان إلى الإبحار نحو عرض البحر تفاديًا للخطر. لكنهم انجرفوا نحو الشمال بفعل الرياح العاتية والتيارات المائية القوية.

وفي فجر اليوم التالي، وقعت المعركة النهائية. فراح الأسطول الإنجليزي يطلق نيرانه على السفن الإسبانية من مسافة قريبة، ما أدى إلى تدمير ثلاث سفن على الأقل وإلحاق الضرر بعدد كبير منها. وبسبب النقص في الذخيرة، وقف الإسبان عاجزين أمام هجوم العدو الشرس.

غير أن عاصفة عنيفة أجبرت الإنجليز على تعليق هجومهم إلى اليوم التالي. فأتاح ذلك للإسبان أن يعيدوا في صباح ذلك اليوم تنظيم أسطولهم على شكل هلال. ورغم الذخيرة القليلة المتبقية، جابهت الأرمادا العدو واستعدت للقتال. ولكن قبل أن يطلق الإنجليز نيرانهم، دفعت الرياح والتيارات السفن الإسبانية بلا هوادة نحو كارثة بدت محتومة عند ضفاف زيلاندا الرملية مقابل الساحل الهولندي.

وعندما بدا الوضع ميؤوسا منه، غيرت الرياح اتجاهها ودفعت الأرمادا شمالا إلى عرض البحر فبات الأسطول بأمان.

لكن الأسطول الإنجليزي كان يقطع عليه طريق العودة إلى كاليه وكانت الرياح لا تزال تُبعد السفن المتضررة نحو الشمال.

فلم يعد أمام دوق مدينا سيدونيا خيار إلا أن يلغي مهمته وينقذ ما يستطيع من السفن والرجال، فقرر أن يعود إلى إسبانيا بالإبحار حول إسكتلندا وأيرلندا.

ولكن كانت رحلة العودة إلى الوطن رحلة شاقة على سفن الأرمادا المتضررة. فقد قل الطعام وشحّت مياه الشرب بسبب البراميل المشققة.

وألحقت هجمات الإنجليز ضررًا بالغًا بالعديد من السفن فلم تعد غالبيتها صالحة للإبحار.

بالإضافة إلى ذلك، واجهت الأرمادا طوال أسبوعين عواصف هوجاء مقابل ساحل أيرلندا الشمالي الغربي، فاختفى بعض السفن دون أن يبقى له أي أثر، وتحطمت سفن أخرى مقابل ساحل أيرلندا.

وفي نهاية المطاف، وصلت أولى سفن الأرمادا بمشقة إلى سانتاندير في شمال إسبانيا ولم ينجُ من هذه الرحلة سوى ٦٠ سفينة تقريبًا ونحو نصف الذين غادروا لشبونة.

فآلاف منهم غرقوا في البحر، ومات كثيرون آخرون متأثرين بجروحهم أو من جراء مرض أصابهم أثناء رحلة العودة. أما الناجون من هذه الكوارث فلم تنتهِ محنتهم بوصولهم إلى الشاطئ الإسباني.

افتقرت سفن عديدة إلى الطعام فمات ركابها جوعًا، رغم أنها كانت راسية في ميناء إسباني.

إحدى السفن أيضًا تحطمت على رصيف ميناء لاريدو الإسباني «لأنه لم يعد هنالك عدد كافٍ من الرجال ليُنزلوا الشراع ويُلقوا المرساة».

ولا شك أن الفشل الذي مُنيت به الأرمادا الإسبانية صيف ١٥٨٨ حين حاولت غزو إنجلترا كان حدثا تاريخيًا بارزًا.

فبعدما هُزمت الأرمادا بنحو ٢٠٠ سنة، صارت بريطانيا «العظمى»، أو أقوى قوة في العالم.

39

الفلوجستون..
خطأ غيَّر تاريخ العلم

دافع العلماء البارزون في القرن السابع عشر والثامن عشر عن نظرية فلوجستون للحرارة والتغير الكيميائي.

والتي تقول إن الفلوجستون عنصر موجود في كل المواد ويساعد المادة على الاشتعال ويتحد معها مكونًا أكسيد المادة وأسموه (كالكس).

وقد عزز من رواج وانتشار هذه النظرية أحد العلماء البارزين في عصره وهو جورج إرنست شتال أثناء عمله كبروفسور في جامعة هال من 1694 حتى 1716.

وقد افترضت هذه النظرية أن الاحتراق يحدث عند انطلاق عنصر الفلوجستون من المادة، وأن المواد تختلف في مقادير الفلوجستون الذي تحتوي عليها.

ولذلك فسرت هذه النظرية أن المواد التي تحتوي على كميات كبيرة أو أكبر من عنصر الفلوجستون تكون سريعة الاشتعال ولا ينتج عن احتراقها رماد كثير.

كما فسرت هذه النظرية تحول المعادن إلى كلس (أكسيد) عند تسخينها في الهواء حيث قيل إنها تفقد الفلوجستون.

كما فَسرت هذه النظرية استخلاص المعادن من خاماتها عن طريق تسخينها مع الفحم النباتي، حيث تفيد هذه النظرية أنه عند تسخين الفحم الغني بالفلوجستون مع كلس فإن الفحم يفقد ما به من فلوجستون إلى الكلس، فيتحول هذا الكلس إلى معدن.

وعلى الرغم من رواج هذه النظرية إلا أنها كانت خطأ جعل عالما كبيرا لم يقتنع بها أن يدل العالم على التفسير الصحيح ويغير مجرى التاريخ.

فقد انهارت هذه النظرية والتي شغلت العلماء قرابة قرن من الزمان، وذلك بعد أن أثبت العالم الفرنسي لافوازيه عام 1778 بتجاربه الشهيرة على احتراق الفوسفور والزئبق بأن الفلزات تحترق في الهواء وتتحد مع جزء منه وهو (الأكسجين) ويؤدي ذلك إلى زيادة في وزن المعدن، وبهذ الطريقة أثبت أنه لا يتصاعد أي فلوجستون في هذه العملية، وذلك لأنه لا يحدث فقدانٌ في وزن المعدن عند تسخينه، وقد أثبت ذلك من خلال تفاعل الزئبق مع الأكسجين.

وهكذا بقيت النظرية سائدة حتى أتى لافوازيه وأثبت خطأ هذه النظرية عندما سخن الزئبق وبرهن أن عملية الاحتراق عبارة عن اتحاد أكسجين الهواء بالمادة (تأكسد) وليس كما قالت نظرية فلوجستون.

40

شجاعة نادرة وخطة غائبة

نهاية حكم أسرة ستيوارت

في السادس عشر من إبريل عام 1746، وعلى بعد ستة أميال من إنفرنيس من شاطئ درومسي مور، واجه الأمير بوني شارلي وجيشه من الدهماء من الأراضي المرتفعة دوق كمبرلاند بهدف إقامة دولة اليعاقبة في إسكتلندا، فيما ستكون المعركة الحاسمة في قضية اليعاقبة.

وحركة اليعاقبة تعود للفترة التي كان يحكم بريطانيا فيها الملك جيمس الثاني وكانت له آراء حول وجوب قبول اليهود والكاثوليك والمسلمين من قبل الكنيسة الإنجليزية البروتستانتية.

هذا الملك تمت تنحيته من العرش وتنصيب ابنته ماري وزوجها وليام الثالث على عرش إنجلترا، ولكن أتباع جيمس ثاروا على وليام ومن تبعه من الملوك في

محاولة لإرجاع جيمس إلى العرش وسموا أنفسهم اليعاقبة لأن جيمس باللاتينية تعني جاكوبوس أي يعقوب.

واستمرت ثورات اليعاقبة في بريطانيا إلى أن تم القضاء عليها تمامًا وهرب من تبقى منهم إلى أمريكا.

وعودة إلى أميرنا بوني شارلي سر نهاية حكم أسرة ستيوارت، فسنجده حارب الملك جورج الأول نيابة عن والده جيمس فرانسيس ستيوارت الملك الملقب ب «المتظاهر» لانتزاع السلطة من جورج الأول. وكان الأمير سيقود اليعاقبة نحو المجد وإقامة دولة اليعاقبة في إسكتلندا، ولكنه بدلا من ذلك قاد جنوده إلى مذبحة، ودفن جميع أحلام أسرة ستيورارت لإقامة إسكتلندا اليعقوبية.

وكان الخطأ الذي ارتكبه هذا الأمير «أمير ويلز» أنه كان هو وجنوده يحاربون بأقصى درجات الشجاعة، ربما الشجاعة النادرة، ولكنه للأسف لم يكن لديه أية خطة، وأمام جيش أعدائه المنظم انهار بجنوده

ومعظمهم كان من الرعاع والدهماء الفوضويين، ولم تكن هناك أي خطة لتنظيم صفوفهم فكانت النتيجة مروعة.

41

لويس السادس عشر

الملك الذي دمَّر نفسه

هناك حالة نادرة يمكن اعتبارها من بين الظواهر لشخص كان يمتلك السلطة وتمكن من خلال قراراته من تدمير نفسه وإنهاء أسطورة استمرت ألف عام.

هذه الكارثة قام بها ملك فرنسا لويس السادس عشر.

وكان لويس قد اعتلى العرش في عام 1774 وورث عداء بلاده لإنجلترا. وكان أبوه لويس الخامس عشر في عام 1771 قد تمكن من تقزيم سطوة وقوة البرلمان الفرنسي حتى أصبح مجرد هيئة استشارية.

وعندما ثارت المستعمرات الأمريكية ضد إنجلترا، بدت الثورة فرصة لفرنسا لضرب إنجلترا بعيدًا عن أراضيها.

وعلى مدى خمس سنوات من بدء ثورة المستعمرات الأمريكية قامت فرنسا بإرسال المساعدات والجنود لمساعدة الأمريكيين.

وربما يكون هذا هو الأمر الذي صنع الفارق حيث أحكم الأسطول الفرنسي قبضته على ساحل يوركتاون في 1881 ليرغم كورنواليس على الاستسلام ويضمن للأمريكيين الاستقلال.

وقد أدى موقف لويس السادس عشر من ثورة المستعمرات الأمريكية إلى إشعال ثورة غضب الإنجليز.

ولكن على المدى البعيد أضر هذا الموقف أبلغ الضرر بالملكية التي يمثلها وكان تأييده للأمريكيين مكلفًا للغاية.

فقد أدى هذا أولا إلى إفلاس الخزانة الملكية ويعني هذا أن النظام المالي الفرنسي تأزم وكانت النتيجة أن

رفع لويس السادس عشر الضرائب لتمويل الخزانة الخاوية.

ودعا الملك ما كان يسمى ب «مجلس النخبة» للتصديق على رفع الضرائب ولكن المجلس رفض، فما كان من الملك إلا أن دعا البرلمان الموسع للانعقاد والتصديق على رفع الضرائب.

ومع رفع الضرائب زادت ثورة الناس. وهنا انقلب انتصار المستعمرات الأمريكية وإقرار حقوق الشعب وبالا على الملك، الذي بدأ شعبه يحاول مواجهة حكامه المستبدين واستعادة حقوقهم.

وقد راجت الأفكار الأمريكية التي صاحبت ثورة المستعمرات ومنها أن حقوق الشعب أهم من حقوق الملك.

وقد انعكست هذه الآراء - آنذاك - في كتابات المفكرين الفرنسيين ومنهم جان جاك روسو، التي كانت تلهب

حماس الشعب الذي راح يثور، وبدأت الخلايا الثورية تتشكل ضد الملك.

وراح الشعب وبخاصة في المدن يتجرأ على الملك ويعلن ثورته على الوضع القائم. بعد أن استلهم أفكار روسو، الذي كان قد ركز على أن الناس خُلقوا متساوين في البداية ثم اختلفت أوضاعهم بعدئذ وانقسموا إلى فئتين متمايزتين: فئة النبلاء والأغنياء المالكين للأرض، وفئة الفلاحين الفقراء الذين يشتغلون في الأرض كعبيد دون أن يملكوا شيئًا.

وبالتالي فالملكية هي أساس التفاوت بين البشر، وهي التي أدت إلى كل هذا الظلم الذي أصاب الفلاحين الذين يشكلون أغلبية الشعب الفرنسي.

وفي خطابه الشهير عن أصل الظلم واللا مساواة بين البشر فكك روسو كل الأفكار القديمة التي تبرر الامتيازات والتفاوتات الطبقية وقال بأنه لا أصل لها ولا شرعية على الإطلاق.

وكان هذا الخطاب بمثابة إعلان حالة حرب على النظام القائم وامتيازات الطبقات العليا.

وبينما وفي تلك الفترة كانت الأزمة الاجتماعية والاقتصادية تتفاقم في فرنسا، وكانت الجموع الفرنسية جائعة تقريبًا، في حين أن النبلاء والكهنة والأغنياء كانوا يعيشون حياة البذخ والإسراف في القصور.

وبدأت بوادر الثورة الفرنسية تلوح على أرض الواقع. وهذا ما لم يفهمه لويس السادس عشر إلا بعد فوات الأوان خاصة وأن حاشيته أو بطانته أخفت عنه حقيقة الصورة.

وزاد من تفاقم الأوضاع سوء المحاصيل الزراعية في العام الذي سبق الثورة مباشرة أي عام 1788.

وهكذا أصبح القمح نادرًا وبالتالي فلم يعد هناك خبز أو طعام. ومعلوم أن الخبز هو المادة الأساسية للشعب.

وعندما يجوع الإنسان يثور أو يصبح ميالًا للتمرد على النظام القائم.

وكانت هناك وبالتزامن أزمة أخرى وهي أن الشعب لم يعد يقدس شخص الملك كما كان في السابق.

ولم يعد تأثير الكهنة ورجال الدين قويًا كما كان عليه الحال، بعد أن انتشرت الأفكار الثورية والتنويرية في صفوف الشعب.

أما الطبقة البورجوازية فكانت قد تخلصت كليًا من الأفكار القديمة التي تخلع القُدسية على النظام السائد.

وكانت أفكار فلاسفة التنوير قد انتشرت في صفوفها وتغلغلت إلى أعماقها. وبالتالي فلم تعد تشعر بالمهابة القدسية أمام النبلاء والأرستقراطيين ورجال الدين كما كان، وهذا ما دفع بها إلى الثورة عليهم.

وفي خضم الثورة، صدرت عن البرلمان الفرنسي (الجمعية الوطنية) قرارات لامتصاص نقمة الشارع، كان أهمها إلغاء الحقوق الإقطاعية، التي تمثلت

بضريبة العشر الكنسية والعدالة الإقطاعية، ونظام السخرة، وإعلان المساواة التامة في الحصول على الوظائف العامة بين جميع المواطنين.

وكان هذا يعني انهيار النظام القديم وتدشين مجتمع فرنسي جديد، مجتمع الحرية والمساواة والإخاء.

ثم توالت الخطوات الثورية، فأعلنت الجمعية الوطنية الفرنسية وثيقة حقوق الإنسان، كحق الحرية والأمن والملكية ومقاومة الظلم، وبأن الأمة الفرنسية هي مصدر السلطات.

ورفض الملك التوقيع على هذه القرارات الثورية، واستدعى قوات المرتزقة الأجانب، إلى فرساي من جديد، واختفى الخبز من الأسواق، فقررت ربات المنازل الزحف على فرساي، وكادت تدخل القصر الملكي لولا تدخل الحرس الوطني.

وفي سنة 1793 وحاول لويس السادس عشر الفرار من فرنسا برفقة زوجته ماري أنطوانيت، ولكن أُلقي

القبض عليهما وتم إعدامهما عبر المقصلة في باريس، ليتغير مجرى التاريخ مع نجاح الثورة الفرنسية... والفضل لأخطاء الملك الكارثية.



42

تدمير البيئة..

أستراليا والأرانب

لقد رأينا كيف أن القيادة الضعيفة والقرارات الخاطئة يمكن أن تكون عواقبها وخيمة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي.

والآن فننظر إلى العواقب التي تحدث عندما يؤدي النظر إلى فكرة ما باعتبارها فكرة صائبة وتكون النتيجة تغير الحال في قارة بأكملها.

وصل الرياضي الإنجليزي توماس أوستين إلى أستراليا لكي يبدأ حياة جديدة ولكن أمله خاب.

وأمضى معظم وقت فراغه في الوطن يصطاد أنواعًا كثيرة من الطيور والحيوانات خاصة الأرانب المفضَّلة إليه.

ولأن أستراليا ليس بها أرانب، فقد كتب أوستين لابن عمه الذي عاد إلى إنجلترا أن يبعث إليه ب 24 أرنبًا، وأن يشحنها إليه في حديقة بارون بارك بمدينة فيكتوريا.

على أية حال ما الضرر الذي يمكن أن يتسبب فيه الإتيان ب24 أرنبًا إلى أستراليا؟

فبعد أوستن بدأ أصدقاؤه وجيرانه بناء على نصيحته يستقدمون الأرانب من إنجلترا، ولكن يبقى الفضل في قدوم الأرانب لأستراليا لأوستن.

وبعد أن راحت الأرانب تتوالد وتنتشر بصورة رهيبة راجت رياضة صيد الأرانب وكان من الممكن لمجموعة من الهواة اصطياد 1200 أرنب في ثلاث ساعات ونصف الساعة.

وقد ساعدت الأحوال الجوية في أستراليا على سرعة توالد الأرانب بمعدلات أكبر مما عليه الحال في إنجلترا نفسها التي كانت تسجل أعلى معدلات التوالد، ويكفي

أن البريطانيين هم من سكوا المثل الشائع «تتوالد كالأرانب».

وزادت أعداد الأرانب بدرجة كبيرة جدًّا وصارت تهدد أراضى القارة الأسترالية بنقص الخضرة ، لأنها تتغذى تقريبًا على كل أنواع النباتات التي تجدها.

وبعد أن تكاثرت الأرانب بسرعة مذهلة حيث الأراضي الشاسعة والغطاء النباتي ولم يكن للأرانب أعداء طبيعيون لحفظ التوازن البيئي.

ولأنها لم تكن على قائمه اللحوم في أستراليا فأخذت في التكاثر بسرعة جدًّا إلى أن أصبحت من ألد أعداء الزراعة في أستراليا وأصبح لها مركز لمكافحة الأرانب.

ولم يقف تهديد الأرانب على الزراعة فقط بل امتدَّ إلى المحميات الطبيعية التي يوجد بها أندر الزهور والورود والنباتات النادرة جدًّا.

وحاولت الحكومة الأسترالية السيطرة على زيادة تكاثر الأرانب بها بشتى الطرق (القتل - تفجير الجحور

- التسميم)، لدرجة أنها أدخلت فيروسًا معديًا لإصابة الأرانب بالمرض.

وقد نجحت هذه الفكرة لفترة فعلَى مدى ثلاث سنوات مات نحو 80% وتنازل العدد من نحو 600 مليون إلى 100 مليون من عدد الأرانب، لكن بعد ذلك زاد تكاثر الأرانب من جديد بدرجة كبيرة بسبب اكتساب إحدى سلالات الأرانب المناعة ضد هذا الفيروس.

وقد اتخذت تدابير مختلفة في أستراليا في محاولة للسيطرة على الأرانب ملزمة قانونيًّا كثيرًا من الناس الذين يملكون الأرض للسيطرة على الأرانب على أراضيهم.

43

القرار الخاطئ..
ونابليون بونابرت

عندما أصبح نابليون إمبراطورًا لفرنسا، دخلت أوربا حروبًا امتدت 20 سنة وعرفت باسم الحروب النابليونية لأن الأدميرال هوراتيو نلسون فجرها في عام 1798.

وبينما دمر الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون الأسطول الفرنسي الذي حمل الجنرال نابليون بونابرت وجيشه إلى مصر، فإن الكلمة التي تجسد ما حدث هي «دمره بالفعل».

لم يكن الموقف لصالح إنجلترا في عام 1798. كانت إنجلترا في حرب مع فرنسا الثورية وهزم حلفاؤها واحدًا تلو الآخر أو تم إخراجه من الحرب.وساءت الأمور بالنسبة لإنجلترا بحلول عام 1797، حيث لم

يكن لإنجلترا أسطول في البحر المتوسط لأول مرة منذ 150 سنة.

وفي الحقيقة، فقد كانت الموانئ التي يمكن للسفن الإنجليزية أن تدخلها في شواطئ المتوسِّط محدودةً.

وهذه الموانيء الصديقة هي جبل طارق ومالطا ونابلس.

وكان الفرنسيون في تلك الفترة في المقدمة وكان جنرالهم بونابرت قد صنع لنفسه اسمًا عالميًّا بعد أن غزا إيطاليا.

وعندما عاد إلى باريس لتحييه الجموع كقائد منتصر، ولكن لم يكن أعضاء البرلمان والنبلاء في الإمبراطورية يحملون له نفس المشاعر، فقد كانوا في ثورة غضب عليه.

وعندما قرر نابليون في عام 1798 التوجه إلى مصر، استحسن خصومه ومنتقدوه ومعارضوه ذلك، لعدة أسباب إلى جانب إبعاد بونابرت، ومنها قطع الطريق

على إنجلترا إلى مستعمراتها في الهند، والسيطرة على هذا الطريق الذي لا بد وأن يمر عبر مصر، أو سيكلف إنجلترا مشاقًّا وتكاليفَ الدوران حول رأس الرجاء الصالح.

كما أصبحت الهند في غاية الأهمية بالنسبة للمستعمرات الأمريكية (العالم الجديد)، كما لبريطانيا بسبب التجارة المربحة.

ورأى الفرنسيون أن حرمان إنجلترا من مستعمراتها في الهند سيصيبها بالإفلاس حيث إن استغلال ثروات الهند كان الشريان الرئيسي لتمويل حروب إنجلترا ناهيك عن دعمه اقتصادها.

وهكذا كان توجه بونابرت فرصة لخصومه لكي تتخلص منه فرنسا، وكذلك تتخلص منه أوربا التي انكوت بنار حروبه أو تهديداته.

وبحلول عام 1798، كان هناك أكثر من 31 ألف جندي و200 عالم قد تجمعوا في ميناء طولون استعدادًا

لغزو مصر.

وكان من الصعب على نابليون تجميع مثل هذه القوة الضخمة دون علم إنجلترا. فأبحر الأسطول الإنجليزي قبل بدء تحرك الفرنسيين بأسابيع وانتظروهم في المتوسط على بعد 70 ميلًا بحريًا جنوبي طولون.

لم يكن نيلسون يعلم وجهة أسطول بونابرت، وكل ما كان يعرفه أنه سيخرج في عملية غزو.

وكان لدى الإنجليز ونيلسون يقين بأن نابليون ربما يعتزم غزو أيرلندا أو مالطا أو القسطنطينية أو مصر.

ولكن خطة نيلسون لم تنتظر معرفة وجهة الفرنسيين على وجه التحديد.وساءت الأحوال الجوية لتمنع نيلسون من مواجهة بونابرت قرب طولون.

ودون توقع من نيلسون خاض الفرنسيون مغامرة وأبحر أسطولهم في الطقس السيئ ومر الأمر عليهم بسلام.

ومن ثم لم يكن لدى نيلسون الذي استغرق وقتًا في تجميع سفنه التي كانت موزعة حول طولون، لم يكن لديه أمل في ملاقاة الفرنسيين إلا بعد وصولهم إلى وجهتهم.

وعندما توقف نيلسون في نابولي لمدة ثلاثة أيام للتزود بالمؤن المختلفة اللازمة لمواجهة الأسطول الفرنسي واستقصاء المعلومات عنه، علم نيلسون أن بونابرت موجود في مالطا وقد احتلها من دون أية مقاومة.

أما قيادة البحرية الإنجليزية التي كانت تتابع الموضوع عن كثب، فاعتقدت أن نابليون مصمم على احتلال كافة المواقع الإستراتيجية الموجودة غرب البحر المتوسط تمهيدًا للانطلاق بعدها إلى غزو الجزر البريطانية، لكن توقعات الأميرال نيلسون كانت مختلفة، وكان لديه قناعة راسخة أن هدف نابوليون التالي هو احتلال مصر بهدف السيطرة على خطوط المواصلات التجارية والعسكرية الإنجليزية إلى مستعمراتها في الهند.

وكان خطأ نابليون هو توجهه إلى مصر عن طريق صقلية الغربية وبعد احتلالها، مما أتاح للإنجليز بعد أن يعرفوا وجهته أن يسبقوه إلى مصر ويتمركزوا فيها.

وعندما وصل نابليون كان نيلسون بانتظاره وحصن مواقعه ونشر سفنه ليلقنه ضربة قاصمة في موقعة أبي قير البحرية ويدمر أسطوله ولقي جنوده حتفهم في مذبحة، بصعوبة أفلت منها نابليون نفسه.

44

معركة الملوك الثلاثة

نابليون وأخطاء خصومه القاتلة

في التاريخ العسكري، قليلون هم القادة الذين قادوا جيوشهم ببراعة نادرة ومهارة فائقة كما هو الحال بالنسبة لإمبراطور فرنسا نابليون بونابرت الذي تلاعب باثنين من عتاة قياصرة وأباطرة وملوك أوربا، إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني وألكسندر الأول قيصر روسيا، وذلك في معركة أوسترليتز إحدى أهم معارك التاريخ، والتي جرت في مكان يقع إلى الشرق من برونو في تشيكيا.

ففي شهر يوليو عام 1805 شكلت بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا تحالفًا ضد فرنسا، فكان جواب نابليون المباشر غزو ألمانيا والنمسا، وفي 22 أكتوبر احتل فيينا.

وفي 28 نوفمبر 1805 واجه نابليون القوات النمساوية والروسية في أوسترليتز.

والتقى فيها نابليون بقيصر روسيا ألكسندر الأول وإمبراطورها وفرانسوا الثاني إمبراطور النمسا ودفعت أحقاد فرانسوا الثاني الدفينة لبدء المعركة قبل وصول الروس وكان هذا خطأ قاتلا.

ضم جيش نابليون 65 ألف مقاتل، بينما جيش التحالف يضم 83 ألفًا، مع ذلك حقق الفرنسيون النصر ولم يخسروا سوى سبعة آلاف من جنودهم، وخسر التحالف أكثر من 30 ألفًا.

وصل نابليون إلى أوسترليتز أولا ثم بدأ بخبرته العسكرية الكبيرة في استكشاف أرضية المعركة المتوقعة بنفسه.

وقد دقق نابليون في كل شيء الهضاب الموجودة والبحيرات المتجمدة ومعدل انحدار الهضبة إلى

البحيرات واختار مكانًا مناسبًا ليستدرج فيه الروس والنمساويين.

واختار السهل جنوب الهضبة وتمركز نابليون بقواته غرب الجدول الصغير. كما وضع بعض قواته إلى الجنوب كخط دفاع أول ولم يختر الهضبة وتركها لقوات التحالف.

لم يكن من السهل أن تدخل حيلة نابليون على قائد القوات النمساوية، لذلك كان على نابليون التمويه وخداع قوات التحالف، وقام بتوزيع ونشر قواته لكي لا يعرف الروس والنمساويون عددها الحقيقي.

وكانت هناك قوة فرنسية كبيرة على بعد نحو 110 كليومترات تنتظر الأوامر من بونابرت للتقدم والانضمام لجيش الفرنسيين في المعركة.

كما قام نابليون في الأيام السابقة للمعركة ببعض المناوشات بفرق الخيالة الفرنسية حيث هاجم خيالة الروس ثم تظاهروا بالفرار أمام الروس وتركوا

مدافعهم خلفهم ثم بدأ نابليون في التفاوض معهم على هدنة مؤقتة وأدى هذا العمل إلى إكساب القيصر قليل الخبرة انطباعًا خاطئًا عن الفرنسيين مما سيضعف فيما بعد من قوته وقوات التحالف رغم وجود قادة كبار في القوات الروسية والنمساوية.

وأعد نابليون خطة في حالة الانسحاب لكى ينسحب نحو الغرب وليس كما هو متوقع نحو الجنوب إلى فيينا.

ويعود سبب النصر لعبقرية نابليون الذي استغل أخطاء خصومه القاتلة، ومنها أن لاحظ أن جيوش خصومه مصطفة بخطوط طويلة مما جعلها ضعيفةً في العمق، فهاجم القلب وفصل بين الجناحين، ثم لاحق الجيش الروسي المنهزم بعد أن حطم الجيش النمساوي.

ولما اضطر الروس عبور بحيرة متجمدة في فصل الشتاء، وكان هذا خطأً قاتلا، وجه نابليون مدافعه على سطح الجليد حتى فتتت الجليد، فهوى الجنود في الماء، وتم النصر بعد أن تراجع قيصر من النمسا باتجاه

روسيا، ورضخ إمبراطور النمسا صاغرًا لمطالب نابليون، ووقع معاهدة برسبورج مفروضة مع فرنسا، ووصل بذلك نابليون بعد هذا النصر إلى قمة المجد، وبدأ بتنظيم أوربا سياسيًّا حسب مصلحته بعد أن قهر معظم أعدائه.

فقد كانت أوسترليتز النصر الأكبر لنابليون بونابارت، حيث أوقع الهزيمة بالروس رغم الروح الوطنية البطولية التي كان يتحلى بها قائدها الأمير أندريه فولكونسكي.

وبفضل هزيمة الجيوش النمساوية والروسية المتآلفة، سمحت معركة أوسترليتز لنابليون بالعودة إلى رسم خارطة أوربا بعد إجبار الإمبراطور النمساوي فرانسيس الثاني على التنازل عن لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة.

45

و

46

عدم التعلم من التاريخ

نابليون وبعده هتلر

ليس من المستحيل أن تنجح في غزو روسيا رغم صعوبة ذلك. وقد تحقق ذلك مرات عديدة في التاريخ.

فقد فعلها «الفايكنج» وأصبحوا حكام روسيا. وفيما بعد غزا المغول روسيا وسيطروا عليها لأكثر من قرنين.

نعم النجاح في غزو روسيا ليس بمستحيل ولكن في القرنين الماضيين اشترك اثنان من أعظم الغزاة في التاريخ في الفشل في غزو كل منهما لروسيا، وللأسف

في ظروف متشابهة وكأن الثاني لم يتعلم من فشل الأول فكرر نفس خطئه.

هذان القائدان هما نابليون بونابرت ثم من بعده أدولف هتلر.

قبل الغزو كان كل من نابليون وهتلر زعيمًا تم انتخابه ويمتلك السلطة المطلقة، نابليون في فرنسا وهتلر في ألمانيا.

وجاء غزو كل منهما لروسيا بينما كان بلداهما في حالة حرب. فرنسا كانت في حرب مع بريطانيا. وهتلر في حرب مع دول قارتها الأوروبية.

وبالتالي فقد كان كل منهما يخوض حربًا على جبهتين في وقت واحد.

ويعد كل من غزو نابليون لروسيا وهتلر من بعده أكبر حملة عسكرية في عصر كل منهما.

حملة نابليون المعروفة باسم جريناد آرمي كانت تضم 600 ألف جندي ومئات الآلاف من الأحصنة ومئات المدافع.

وحملة هتلر والتي أطلق عليها «عملية بارباروسا» بدأت بثلاثة ملايين جندي ونحو 400 دبابة و7200 من المدافع و2000 طائرة و750 ألف حصان.

والمعروف أن كل غزو كان في شهر يونيو. نابليون في الثاني عشر، وهتلر في الثاني والعشرين من نفس الشهر.

وقد اعتقد نابليون كما اعتقد بعده هتلر أن الغزو سيتم بسرعة وأن الروس سينهارون بسرعة وأن كلًّا منهما سيعود منتصرًا بعد أقل من شهر وقد حقق انتصارًا سريعًا.

وما أن بدأ كل منهما غزوه، بدأ الشتاء، وبالنسبة لنابليون فقد حاصر موسكو ولكن هذا لم يجعل الروس يستسلمون.

وقد وصلت قوات هتلر إلى حدود موسكو ثم وصلت على بعد 14 ميلًا منها ولكنها لم تتمكن من اقتحامها والسيطرة عليها.

ومع المعارك الضارية وقسوة الجو بفعل البرودة الرهيبة وبسالة الروس اندحر الجيش الفرنسي، كما اندحر الجيش الألماني وعاد كل منهما يجر أذيال الهزيمة.

وهكذا كان من الخطأ القاتل الحرب في جبهتين شديدتي التباعد، وسوء تقدير الموقف، والغزو في الشتاء.

ورغم أن هذا الخطأ كلف نابليون أقسى هزيمة، إلا أن هتلر عاد وارتكب نفس الخطأ.

47

كارثة الأنا المتضخمة

نابليون نموذجًا

ما لم تتوافق الأنا لشخص مع حسن إدراكه للأمور فإننا هنا سنكون بصدد الحديث عن نابليون بونابرت الذي حمل لقب إمبراطور فرنسا. والخطأ الذي حال دون هذا التوافق ارتكبه نابليون بونابرت بنفسه بعد معركة الأمم في أكتوبر عام 1813 في ليبزج هو أنه جعل نرجسيته أو «الأنا المتضخمة» تعميه عما يحيكه خصومه له، فيخطئ في تقدير قوتهم وقدرتهم على كسره.

ففي السادس عشر من أكتوبر كان هناك أكثر من 175 ألف جندي من أستراليا وبروسيا وروسيا والسويد في مواجهة مع الجيش الفرنسي الذي يتكون من 160 ألف جندي.

وقد واجه نابليون أسوأ التوقعات وفاز بشكل حاسم ولكن كان هناك متغيّر مهمٌّ حدث بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها جيش نابليون في غزوه لروسيا، ومن ثم كانت نوعية مستوى تدريب الجيش الفرنسي أقل مما كان عليه الحال قبل عام 1812.

كما لم تكن أسلحة قوات نابليون تعاني من تواضع المستوى وأسلحة الخصوم أفضل.

وقد تعلم الحلفاء من خصوم الإمبراطور الفرنسي أخيرًا من الهزائم التي منوا بها على يد قوات نابليون على مدى آخر عقدين من الزمان.

وكان نابليون قد هزم قوات بروسيا قرب لوتزن ولكن نقص عدد فرسانه لم يمكنه إلا فقط من دفعهم للانسحاب دون أن يطاردهم ويلحق بهم هزيمة حاسمة تردعهم عن مواصلة الحرب.

وفي 20 مايو 1813 حارب نابليون الروس وهزمهم أيضًا. والحقيقة أن نابليون كان قد نجح بدرجة جعلت

خصومه يضطرون لقبول هدنة.

وكانت هذه الهدنة بالنسبة لجيش نابليون المنتصر ولكن المنهك أيضًا والذي يحتاج إلى تحديث وتدريب ومزيد من الأسلحة مهمة وتعتبر ميزة.

وقد ساعدت الهدنة نابليون في تجنيد جنود جدد، وإعادة تدريب وتسليح جيشه.

ولكن الهدنة انتهت أخيرًا في 16 أغسطس 1813، عندما طالب الدبلوماسي البروسي المتطرف مترنيخ المعادي لنابليون بشروط جديدة كان متأكدًا من أن أي فرنسي لن يقبلها.

كليمنز لوثر فون مترنيخ كان وزيرًا لخارجية الإمبراطورية النمساوية - المجرية (بروسيا) ثم أصبح مستشارًا رئيسًا للوزراء.

وكان مترنيخ قد توصل إلى إستراتيجية لتحقيق الانتصار على نابليون ويستهدف من بها دفع الأمور إلى المواجهة العسكرية لأنه كان يدرك أن التخلص من

خطر وتهديدات بونابرت لن يحدث إلا بالحرب من خلال تحالف أوروبي كبير ومن ثم هزيمته عسكريًا.

فبعد هزيمة بلاده هزيمة ساحقة 1805 في معركة أوسترلتز على أيدي نابليون بونابرت، عمل مترنيخ على بناء التحالف تلو الآخر لمواجهة التوسعات الثورية لفرنسا.

وكانت إستراتيجية مترنيخ تقوم على حشد أوربا كلها ضد نابليون وقهره وكسر جيشه ودفعه إلى التراجع إلى داخل حدوده. أي بلده فرنسا، فيختنق بأنفاسه وينتهي أمره.

واستطاع مترنيخ بذكاء المناورة مع نابليون بالدخول في معاهدة سلام معه توهم نابليون أنها ستخرج النمسا من الحرب.

ولكن مترنيخ كان يكسب الوقت لبناء التحالف التاريخي الذي سيهزم به نابليون هزيمة نهائية وحاسمة.

وهذا هو ما حدث، فبعد ما أصبحت هزيمة نابليون مؤكدة إثر النتائج الكارثية لحملته على روسيا، تشجع مترنيخ وأعلن نقض اتفاقه مع فرنسا مما أغضب نابليون، سارع مترنيش في حشد التحالف الذي ضم كلًّا من بريطانيا وروسيا والسويد وبروسيا والبرتغال بالإضافة للنمسا، ليتمكن هذا التحالف في النهاية من هزيمة نابليون في ووترلو وإنهاء حقبة الحروب النابليونية.

48

وضْعُ الرجل الخطأ في المكان الخطأ

قرار القيادة

كان الانتصار البريطاني في موقعة ووترلو بكل المقاييس أشبه بدرجة كبيرة بوصف دوق ولينجتون له أمام البرلمان البريطاني ب «تحويل الهزيمة لنصر في اللحظات الأخيرة».وقال ولينجتون إن الانتصار البريطاني كان من الممكن أن يكون انتصارًا فرنسيًّا.

وفي مثل هذه المعارك فإن تفصيلات كثيرة تصنع الفارق وتغير مجرى التاريخ. وفي معركة ووترلو، ربما يكون العامل الحاسم في نتائج المعركة وانتصار بريطانيا هو خطأ شخصي ارتكبه الإمبراطور نابليون بونابرت قبل المعركة بأيام.

قبل المعركة كانت كل دولة تعمل على تجنيد المزيد من الجنود وتزويد جيوشها بمزيد من الأسلحة النوعية حتى تضمن تفوقها في المعركة.

وكان نابليون يستعد للتحرك لدحر الجيوش المعادية التي يقودها الإنجليزي دوق ولينجتون، وكان هذا وقت القرارات المهمة والمصيرية والحاسمة التي سيتحدد بناء عليها مستقبل فرنسا.

وقبل أن يقود جيشه من باريس، كان على نابليون شغل بعض المناصب القيادية أحدها تعيين قائد لجيشه يعمل تحت إمرته.والثاني قائد على باريس ليحل مكانه بعد خروجه في الحرب.

وكان هناك قائدان متمرسان كل برتبة مارشال وهما المارشال ميشيل ني والمارشال لويس نيكولاس دافو.وبمقارنة أحدهما بالآخر سنجد أن ميشيل ني كان شجاعا لدرجة استعداده للموت وهو يقود جنوده بنفسه، ويمكن أن يرتكب الأخطاء من فرط حماسته وشجاعته غير المحسوبة في كثير من الأحيان وكان يلقب ب «أشجع الشجعان».

وكان ني يعشق قيادة الجيش بنفسه حتى في أكثر المواقف خطورة، ولكنه كان يعتمد على موالاته

ومحاباته لنابليون وخدماته ودعمه العسكري لنابليون على مستوى الحكم والسياسة، بينما يفتقر إلى القدرة على التخطيط.

وعندما هرب نابليون من ألبا عام 1815، ونزل على الساحل الفرنسي أعلن ني الذي كان من أقرب القادة لنابليون ولاءه للملك لويس.

وأخبر الملك أنه سيحضر له نابليون في قفص حديدي وخرج على رأس جيش، حيث لاقى نابليون الذي كان يزحف نحو باريس بجيش جديد. ولكن العاطفة تغلبت على ني فعانق نابليون وشاركه في الزحف على باريس. وهرب الملك عند اقتراب جيش نابليون ودخل ني العاصمة مع نابليون. وقام نابليون بترقيته إلى رتبة مارشال. كما منحه لقب دوق إلشنجن.

أما لويس ديفو فكان قائدًا عظيم القدرة على التخطيط العسكري ورسم الخطط وتعديلها حسب مسار المعركة ومحبوبًا من جنوده، ولديه براعة في المناورات وصاحب قدرة على التحول من الدفاع إلى

الهجوم وكان الأنسب لقيادة الجيش في المعركة، ولكن نابليون وهذا هو الخطأ الأعظم عينه قائدًا لباريس، بينما اختار ني الأقل قدرة على قيادة جيشه تحت إمرته في المعركة خوفًا من تنامي شعبية ديفو الطاغية مما يؤثر على شعبيته هو كما فكر في ذلك الوقت.

وعندما اعترض ديفو برر نابليون بأنه يحتاج إليه في باريس في غيابه، ولكن هذا لم يكن بالطبع السبب الحقيقي.

وعندما وقعت المعركة وكان الفرنسيون على وشك الانتصار أفسد «ني» الأمرَ بأن اندفع بجنوده دون روية وبحماسة غير محسوبة، ودون أن يفكر حتى في احتمالات التعرض لفخ نصبه دوق ولينجتون، وهذا هو ما حدث حيث استدرجه ولينجتون حتى حاصره وأجهزَ عليه.

49

السلبية

3 رؤساء والمحصلة صفر

كل الأخطاء الواردة في هذا الكتاب تقريبًا هي أفعال. أفعال تخبرنا بأن شخصًا ما ارتكب خطأً أو وقعت له مصادفة كان من شأنها تغيير مجرى التاريخ.

ويمكن أيضًا أن تكون السلبية وعدم التحرك للقيام بعمل ما خطأً فادحًا بالضبط كما ترتكب خطأ فادحًا.

وفي القرن السابق على الحرب الأهلية الأمريكية، تحملت الولايات المتحدة كلفة وجود ثلاثة رؤساء لا يستحق أي منهم أن يتولى هذا المنصب.

في هذا الوقت كانت قضية الرق هي الطاغية على الساحة، وكان هذا منطقيًّا، ولكن الرؤساء الثلاثة لم يفعلوا شيئًا حيالها.

وكانت هذه القضية هي القضية الرئيسية في خمسينيات القرن التاسع عشر.لم تكن القضية من تلك التي يمكن تجاهلها، ولم يكن من الممكن التوصل إلى اتفاق حولها بسهولة.

ولكن كان معظم الدول الأوروبية قد حرم الرق والعبودية، وكانت الولايات المتحدة تقريبًا وعدد قليل جدًّا من الدول هي المعقل الأخير للرق والعبودية.

ونظرة على الرؤساء الثلاثة الذين حكموا أمريكا في تلك الفترة حتى انتخاب أبراهام لينكولن رئيسًا سنكتشف كيف يمكن أن تدفع الدول ثمنا باهظا عندما يظهر الرئيس سلبية في التعامل مع القضايا.

تولى ميلارد فيلمور منصبه كرئيس ليخلف زكاري تايلور، الذي قام بخيارات حمقاء.

ففي أحد أيام شهر يوليو عام 1850 أمضى تايلور ساعات تحت أشعة الشمس تحت النصب التذكاري لجورج واشنطون ثم عاد أدراجه إلى البيت الأبيض،

حيث تجرع كمية كبيرة من الماء، وأكل كمية كبيرة من الفراولة من عنقود دون غسلها، ثم كمية من اللبن المثلج.

وكانت المشكلة في ذلك هي أن النصب التذكاري كان من بين الأماكن التي يتفشى فيها وباء الكوليرا وكانت هناك تحذيرات من شرب الماء في المدينة لتلوثه، وكذلك الفاكهة دون غسلها والابتعاد عن المناطق الموبوءة ولكن تايلور تجاهل بسلبية عجيبة كل التحذيرات ومات بعد أربعة أيام متأثرًا من إصابته بالكوليرا.

وأدت وفاته إلى صعود نائبه فيلمور لكرسي الرئاسة، ولم يكن فيلمور يتمتع بالقدرة على القيادة أو الحسم كسابقه. ولم يجتهد أو يشغل نفسه بما يكفي لإنهاء العبودية فبقي الأمر على ما هو عليه.

وبينما رفض تايلور تسوية كلاي التي تقضي بحل مشكلة العبودية والرق بتخصيص مناطق للسود (معازل) يتمتعون فيها بالحرية، دون حق دخولهم

مدن البيض، قبلها فيلمور واعتبرها الحل مما أشعل غضب السود واستفحلت القضية.

فقد حدث أن اقترحت العديد من المنظمات في عام 1800 توطين السكان السود في أماكن أخرى، حيث يمكنهم التمتع بمزيد من الحرية الفردية، التي يصعب الحصول عليها في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب التحيز العنصري.

واقترح البعض بناء بعض المستوطنات الجديدة في أراضٍ أخرى، حيث يمكن تشكيل مستعمرات للأمريكيين السود، بينما اقترح آخرون هجرة حقيقية. بين عامى 1820 و1830 كانت جمعية الاستعمار الأمريكية من بين أوئل المنظمات التي اقترحت نقل الأمريكيين من الأصول الإفريقية إلى إفريقيا، حيث يمكنهم إقامة مجتمع قائم على المساواة الاجتماعية.

وفي عام 1821 تشكلت مستوطنة ليبيريا، حيث قدمت جمعية الاستعمار الأمريكية دعمًا للآلاف من الأمريكيين السود والعبيد السابقين والسود الأحرار

(ومع ذلك لم يكن لهم نفس القدر من الحرية القانونية التي يتمتع بها السكان البيض) في عملية النقل.

ورأى العديد من البيض في هذا الحل أفضل مقارنة بتحرير العبيد في الولايات المتحدة، وهذا ما رآه هنري كلاي نفسه، مؤسس جمعية الاستعمار الأمريكية، وقال إن التحيزات التي تنبع من لون بشرتهم كانت خلافًا لا يمكن التغلب عليه في المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت، وكان من الأفضل، لاحترام كرامتهم، وبقية السكان، أخذهم في أماكن أخرى.

وكان كلاي مقتنعًا بأن الأمريكان الأفارقة لن ينسجموا في نسيج الولايات المتحدة الأمريكية بسبب التحيز الذي يضرب بجذوره في السكان، وهجرتهم إلى المستوطنة الإفريقية الحرة الجديدة هو حل من شأنه أن يرضي جميع الأطراف.

وبعد فيلمور جاء فرانكلين بيرس إلى البيت الأبيض، ومنذ أيام رئاسته الأولى لم يحرك ساكنًا لعلاج القضية

المستفحلة، وبدلا من ذلك كان من أشد أنصار استمرار الرق والعبودية.

ثم جاء الرئيس الأمريكي الثالث جيمس بيوكنا، وكان رجلًا ضعيف الشخصية، وُصف بأنه «وجه العجين» لفقدانه لأي موقف سياسي معين ولعجزه عن إدارة البلاد بصورة فاعلة.

وكان بيوكانان قد رشح نفسه عن الحزب الديمقراطي مرات كثيرة لكي يكون رئيسًا لكنه فشل فيها كلها، ولم يفز بالرئاسة إلا بعد أن عُدَّ أقل المرشحين إثارة للجدل بين الشمال أو الجنوب في المرة التي فاز فيها.

وكنتيجة مباشرة لسلبيته، حدث في عهده انفصال العديد من الولايات الأمريكية عن الاتحاد الفيدرالي الأمر الذي أدى في نهاية ولايته الوحيدة إلى حرب أهلية طاحنة راح ضحيتها نحو 620 ألف شخص.

وكان بيوكانان محل سخرية بسبب ضعفه وغالبًا ما جرى التندر عليه بسبب إكثاره من قول: «ليس في

عهدي» من أجل تأجيل اتخاذ القرارات الصعبة للرئيس المقبل.

50

جيمس ريبلي..

لولاه لما استمرت الحرب

لقي أكثر من 600 ألف شخص حتفهم في الحرب الأهلية الأمريكية. الحرب استمرت نحو 5 سنوات ودمرت معظم الولايات الأمريكية الجنوبية.ولو كان الاتحاد قد ربح في المعركة الأولى في هذه الحرب، لكانت هناك فرصة طيبة لكي تنتهي الحرب خلال أسابيع حيث كانت التسويات مازالت ممكنة.

ففي المعركة الأولى كافح كلا الطرفين لفهم طبيعة القيادة والمناورة، ولم يكن لأحدهما أفضلية على الآخر من حيث التسليح، وهذا هو ما صنع الفارق.

وبسبب القدرات الصناعية الهائلة للاتحاد فإن معظم الناس اليوم على قناعة بأن جيش الاتحاد كان متفوقًا

من حيث العتاد والتجهيزات.

هذا هو الحال في عام 1862، ولكن بسبب خطأ ارتكبه الجنرال جيمس ولف ريبلي المسؤول عن تحديث أسلحة جيش الاتحاد في بداية الحرب جعل هذا التفوق لا يبدو حقيقيًّا.

فقد تولى ريبلي منصبه في يوليو عام 1861 حيث اشترى جميع أنواع الأسلحة والمعدات التي استخدمها الجيش والبحرية وتقاعس عن شراء البنادق الحديثة.

كان ريبلي يبلغ من العمر 67 عامًا وقت تعيينه قائدًا للمدفعية.وقد خاض الحرب في عام 1812 ضد اليونانيين وقبائل السيمينول (السكان الأصليين) تحت قيادة أندرو جاكسون ثم خاض قبل توليه منصبه الحرب المكسيكية.

والحرب الأهلية الأمريكية، أو الحرب بين الولايات ويطلق عليها عدة أسماء أخرى، وهي حرب أهلية قامت في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أعلنت

إحدى عشرة ولاية من ولايات الجنوب تحت قيادة جيفرسون ديفيس، الانفصال عن الولايات المتحدة وأسست الولايات الكونفيدرالية الأمريكية. وأعلنت الحرب على اتحاد الولايات المتحدة، والتي كانت تساندها كل الولايات الحرة وولايات الرقيق الخمس التي تقع على الحدود. وكان يشار للاتحاد أحيانًا بالشمال.

فقد حدث قبل معركة بول ران أن استبدل البريطانيون بنادقَ قواتهم ببنادق طراز أنفيلد وكان لديهم مخزون بنادق هائل عرضوه على جيمس ريبلي لشرائه بأسعار زهيدة. وكانت البنادق بحالة ممتازة وجيش الاتحاد أحوج ما يكون إليها، فقد كانت بالنسبة لما لدى جيش الاتحاد أكثر تطورًا ولم يكن الاستغناء عنها من جانب البريطانيين سوى للتحديث، رغم أن الفارق لم يكن كبيرًا بين البنادق المتطورة والأقل تطورًا.

ولكن ريبلي تلكأ في الشراء، ثم رفض الشراء. وهذا الخطأ الذي وقع فيه ريبلي وكلف جيش الاتحاد كثيرًا

وأطال أمد الحرب هو أن أنه لم يفكر أن البريطانيين قد يبيعوا البنادق للطرف الآخر الذي يقاتل جيش الاتحاد.

وهذا هو ما حدث، مما أعطى زخمًا وقوة وقدرة على الصمود لقوات الولايات الجنوبية.

51

التقديرات الخاطئة

والنهايات الكارثية

في الحرب الأهلية الأمريكية كان الجيش الانفصالي الجنوبي الذي يواجه جيش الاتحاد التابع للرئيس أبراهام لينكولن في أمس الحاجة إلى انتصار. فقد كانت هناك عدة هزائم تعرض لها جيش الاتحاد في الغرب قبل أن يتمركز في خليج فرجينيا. «ولي» كان يقود جيش إحدى عشرة ولاية جنوبية تريد الانفصال، ومالم تنضم للاتحاد فلن تكون هناك ولايات متحدة موحدة.

وكل ما كانت هناك حاجة إليه هو انتصار يظهر أن الجنوب لا يستطيع فقط الدفاع عن نفسه، وإنما يستطيع أن ينقل الحرب إلى الشمال. وكان هذا يعني اعتراف إنجلترا وفرنسا بالاتحاد.

ومن ثم كان قرار الجنرال روبرت لي بالتوجه بالجيش من فرجينيا إلى الشمال قرارًا سياسيًّا وليس عسكريًّا.

ولكنَّ خطأً واحدًا بدأت معه سلسلةٌ من الأحداث أدت إلى عكس ما كان يرجوه الجنوبيون. هذا الخطأ خرب القضية التي يدافع عنها الجنوبيون الانفصاليون بسبب أخطاء تالية وكلها ارتكبها الجنرال لي قرب بلدة جيتسبورج أثناء معركة سميت باسم البلدة.

هذا الخطأ هو محاولة لي غزو بنسلفانيا الحصينة، رغم نصائح قادته بأنها ستكون عملية انتحار عسكري.

ولكنه ونتيجة خطأ في حساباته، وحساباته هو فقط ذهب بجيشه إلى المجهول. وكانت الكارثة التي حلت بجيشه وأعطت لينكولن ما حلم به وهو توحيد الولايات الأمريكية ومن ثم إقامة الدولة العظمى التي نراها اليوم.

وتعد معركة جيتيسبيرج القريبة من بنسلفانيا واحدة من أهم المعارك في التاريخ الأمريكي وفي الحرب

الأهلية الأمريكية والتي استمرت نحو أربعة أعوام ما بين عامي 1861 و1865.

وقد وقعت معركة جيتسبيرج في منتصف الحرب تقريبًا، أي في أول ثلاثة أيام من شهر يوليو من عام 1863، وكانت بحق «نقطة التحول» الكبيرة في الحرب وأدت إلى ميل الكفة لصالح الاتحاد وجيشه ضد الجيش الكونفيدرالي والقوى التي سعت للانفصال، أو تكريس مبدأ عدم التدخل بشؤون الولايات الداخلية من قبل الحكومة الاتحادية في واشنطن، لا سيما الشؤون التجارية والاقتصادية والزراعية.

وعلى مدى الأيام الثلاثة الأولى من يوليو 1863، قاتل الجيش الشمالي الذي يتكون من نحو 85 ألف رجل جيشًا جنوبيًّا يتكون من نحو 65 ألف رجل، وهزمه في نهاية المعركة.

وفي 9 إبريل 1865، أعلن القائد الجنوبى الجنرال روبرت لي، استسلام جيشه المهلهل إلى الجنرال

يوليسيس إس جرانت قائد الجيش الاتحادي عند أبوماتوكس كورت هاوس، وهي مستوطنة صغيرة في فيرجينيا. وسرعان ما استسلمت الجيوش الجنوبية الأخرى.

وهكذا انتهت الحرب باستسلام الجنرال «لي» مع جيشه وتوقيع وثيقة الاستسلام الشهيرة في 9 إبريل 1865وقبل هذا قال:

«لم يعد لدي ما أعمله سوى أن أذهب إلى الجنرال جرانت قائد جيش لينكولن لتوقيع هذه الوثيقة، وأفضل أن أموت بدلًا عن موت آلاف الأشخاص ولهذا أستسلم».

52

الجنرال كاستر..

والخطأ الكارثيّ

في التاريخ الأمريكي ينسب أحد الأخطاء الكارثية إلى - وهذا وجه الغرابة - بطل من أبطال الحرب الأهلية الأمريكية.

وبسبب هذا الخطأ تحول هذا الجنرال من بطل إلى قائد كارثي قدم جنوده على طبق من فضة لأعدائه في الحرب.هذا الجنرال هو جورج آرمسترونج كاستر الذي أصبح مدعاة للشؤم والإحباط وأيضًا السخرية في تاريخ الأمريكيين.

في يوليو عام 1866 عُين كاستر مقدم لفرقة سلاحِ الفرسان السابعة. وفي العام التالي قاد فرسانه في حملة مختلطة ضد قبائل هنود الشيين في الجنوب.

وفي أواخر 1867 حوكم كاستر وأعفى من منصبه لمدة سنة لتغيبه عن الواجب أثناء الحملة.

وزعم كاستر بأنه قد جعل منه كبش فداء لهذه الحملة الفاشلة، وقد أقر الجنرال فِل شريدان صديقه القديم بذلك.

وتم استدعاء كاستر إلى الخدمة ثانية في 1868 حيث هاجم في نوفمبر الثّاني فرقة الزعيم الهندى بلاك كيتل على ضفاف نهر واشيتا.

وأرسل كاستر عام 1873 إلى السهول الشمالية حيث شارك في بضع مناوشات ضد قبائل لاكوتا في منطقة يلوستون.

وفي السنة التالية قام كاستر بقيادة بعثة مكونة من 1200 شخص إلى التلال السوداء، التي ضمنت حكومة الولايات المتحدة ملكيتها لقبائل لاكوتا قبل ست سنوات فقط.

وفي 1876 تم إدراج اسم كاستر ضمن قادة الحملة ضد قبائل لاكوتا مع الجنرالات «جون جيبون» و«جورج كروك» وقد كاد أن يتم استبداله بالجنرال ألفريد تيري بناء على توصية الرئيس أوليسيس إس. جرانت، إلا أن الاشمئزاز الشعبي أجبر جرانت لنقض قراره وانطلق كاستر غربًا للقاء قدره.

لقد كانت الخطة الأصلية لهزيمة قبائل لاكوتا هو حصر الجزء الأكبر من أهالي قبائل لاكوتا والشيين بين قوات القادة الثلاثة كروك وجيبون وكاستر لهزيمتهم هزيمة ساحقة.

وتقدم كاستر بسرعة أكبر مما يجب، واقترب مما اعتقد أنه كان قرية هندية كبيرة في صباح 25 يونيو 1876. تقدُّم كاستر السريع جعله في وضع متقدم كثيرًا على ألوية مشاة «جيبون» الأبطأ، بينما تم إجبار قوات الجنرال كروك على التراجع بواسطة الزعيم الهندى الجواد الجامح وفرقته عند روزبد جريك إلى الحد الذي بدا أن له نصرًا أكيدًا ومجيدًا للولايات المتحدة وله شخصيًا.

أمر كاستر بالهجوم الفوري على القرية الهندية محتقرًا المهارة العالية العسكرية الهندية، قام كاستر بتقسيم قواته إلى ثلاثة أجزاء لضمان أن لايفر إلا أقل عدد من الهنود.

كان الهجوم واحدا من أعظم مهازل الجيش الأمريكي، حيث أجبر آلافًا من محاربي لاكوتا والشيين والأراباهو الوحدة التي يقودها كاستر على التراجع إلى حافة طويلة ترابية موازية ل «ليتل بيج هورن» وأحاطت بها وأبادتها عن آخرها والمكونة من 210 جنود، وكان كاستر من بين القتلى.

53

رفض استخدام التكنولوجيا

الخوف من المجهول

كان من الممكن أن تنتهي الحرب الأهلية الأمريكية في عام 1863 في وجود الجنرال جوزيف هوكر الذي يعد أحد القادة العظماء في التاريخ الأمريكي. ولكن المشكلة التي أدت إلى سقوط هوكر، وكلفت جيش الاتحاد جزئيًا انتصارًا في شانسيلورسفيل هي قصة الخوف من الاعتماد على التكنولوجيا الجديدة وغير المجربة من قبل في المعركة.

في معركة شانسيلورفيل كان هناك عدد كبير من الجنرالات ولكن القائد العام لجيش الاتحاد كان هو الجنرال هوكر. والمعركة وقعت في أواخر شهر إبريل 1863. وهناك أسباب كثيرة لهزيمة جيش الاتحاد في هذه المعركة ولكن أحد أهم الأسباب كما يتفق المؤرخون هو تخلي الجنرال هوكر عن رباطة جأشه.

كانت خطة هوكر في المعركة جيدة، وكانت لديه فرصة لهزيمة قائد جيش الجنوبيين الانفصاليين الجنرال روبرت لي.

وقد تم تزويد جيش هوكر قبيل المعركة بقليل بأجهزة تلغراف جديدة لتسهيل عملية إرسال الإشارات والرسائل بين فرق الجيش.

وكانت هذه الأجهزة تشحن بإدارة ذراع الجهاز باليد ولم تكن بها بطارية.

ولكن هوكر لم يبد ارتياحًا للأجهزة. وعندما حاول بعض مساعديه إقناعه بأهميتها، أبدى رفضا للعمل بشيء لم يجربه بعد. وعندما احتدم النقاش أمر هوكر بتحطيم الأجهزة.

وفي معركة شانسلورفيل انشطر جيش الشمال الذي يقوده هوك إلى نصفين. وهنا كانت عملية الاتصال بين نصفي الجيش المنفصلين حياة أو موتًا.

وهنا تسبب انفلات أعصاب هوكر وتحطيمه جهاز التلغراف الذي كان يعمل كوسيلة اتصال تكنولوجية جديدة في هزيمته واضطراره إلى الانسحاب من تلك المنطقة.

وكانت الهزيمة قاسيةً لدرجة إعفاء هوكر من القيادة لهزيمته في معركة شانسلورفيل ضد عدو كان هو يتفوق عليه بالرجال.

54

العنصرية..

أضاعت الفرصة الأخيرة

في الحرب الأهلية الأمريكية كانت آخر فرصة للجنوبيين الانفصاليين لتحقيق انتصار لم تكن في ميدان القتال. كانت الفرصة في قاعة اجتماعات في ريشموند عاصمة الانفصاليين.كان الجنوبيون يواجهون أوقاتًا عصيبة.

وفي هذا الاجتماع تم اقتراح أن ينعم بحريته كل من ينخرط من العبيد في الجيش الانفصالي والقتال إلى جانبهم ضد جيش الاتحاد.

وكان هذا الاقتراح لو تم تطبيقه سيضخ للجيش الذي يقوده الجنرال روبرت لي نحو 30 ألف جندي جديد هو في أمسّ الحاجة إليهم.

ولكن الجنرال المتعجرف رفض ومعه البيض المتغطرسون، وكان هذا سببًا في عدم قدرة جيشه على مواجهة الجيش الاتحادي.

وكان هذا هو السبب الذي أدى بالجنرال لى في عام 1863 إلى عدم مواصلة التقدم شمالًا وغربًا بعد معركة جيتيسبيرج لنقص عدد جنوده، وسيطرة جيش الاتحاد على نهر مسيسيبي بعد معركة فيكسبيرج، وبالتالي فصلت بين قوات الولايات الجنوبية.

وظهر تفوق جيش الاتحاد من حيث عدد الرجال والعتاد في عام 1864، عندما خاض الجنرال يوليسيس جرانت معارك الاستنزاف ضد قوات الجنرال لي، في حين سيطر الجنرال وليام شيرمان على أتلانتا، بولاية جورجيا، وواصل الزحف حتى وصل إلى المحيط.

وفي يوم 9 إبريل 1865، وبعد هزيمة مروعة في معركة أبوماتوكس وبعد تناقص عدد جنوده وسلسلة من الهزائم، أخطرها معركة سايلرز كريس ومعركة

سبانيش فورت في ولاية ألاباما أدرك لي الخطأ الذي ارتكبه ولكن بعد فوات الأوان. وانتهى الأمر بأن سلم «لي» جيشه لقائد جيش الاتحاد الجنرال جرانت.

55

خطأ رجل واحد..

يشعل الحرب العالمية الأولى

نادرًا ما تجد سائقًا واحدًا يقوم باستدارة خاطئة فيغير مجرى التاريخ أكثر مما حدث بالفعل في سراييفو (عاصمة البوسنة حاليًا) في عام 1914. وبدأ الأمر فعليًّا في عام 1859 في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا تكافح لكي تكون أمة موحدة.

وكانت نتيجة هذه الوحدة انهيار التوازن التقليدي في أوربا.

وبحلول عام 1870 ومع الحرب الفرانكو بروسية لم يكن هناك توازن وحل محل التوازن تحالفات متقاطعة غالبا ما كانت تقوم على معاهدات تتضمن بنودًا سرية.

وفي عام 1914 كانت هناك توترات عرقية وسياسية في شتى أنحاء أوربا. وقد تجسد ذلك في أقصى

درجاته في الإمبراطورية النمساوية الهنجارية.

وكانت هذه الإمبراطورية المعروفة باسم «إمبراطورية هابسبورج» تعاني عددًا من المشكلات، ومعظمها كان نتيجة أخطاء ارتكبتها عدة دول وأيضًا جماعات عِرقية.

وكانت كل جماعة من هذه الجماعات العِرقية تشك فى الأخرى أو تكرهها. وكان الصرب مثلا يكرهون السلاف وجماعات السلاف تكره باقي الجماعات وكانت كل الأقليات إما تُضطهد أو تحاكم وتقتل أو تنفي.

ومما زاد من مشكلات النمسا الإمبراطور فرانز جوزيف وكان على العرش منذ خمسين عامًا ولم يكن على دراية بالقضايا المطروحة، أو يعايش عصره.

وكانت الجماعات العِرقية التي توجد في النمسا مستقطبة كل من جانب إحدى الدول مثل روسيا وألمانيا.

لذلك لم يكن الموقف داخل الإمبراطورية النمساوية مستقرًا، بل كان يسوء بشدة. وأدى ذلك إلى تفشي الفوضى والتطرف.

وفي أجزاء من الإمبراطورية مثل صربيا كانت توجد عشرات الجماعات الراديكالية، كل منها يمارس الإرهاب.

البعض كان يطالب بالحرية ومستعد أن يُقتل باسم الديمقراطية. وكان الفوضويون يفجرون مصالح أي جماعة معادية على أمل القضاء على الحكومة المناوئة لها. ومن هنا انهارت إمبراطورية هابسبورج.

ووسط هذه الأوضاع المتردية، تقرر أن يقوم وريث العرش الأرشيدوق فرانز فرديناند بزيارة لسراييفو إحدى أخطر مناطق التطرف في الإمبراطورية. وكان الأرشيدوق شخصية معتدلة وأعلن صراحة أن الإمبراطورية سوف تسمح لولايات السالفيك بتشكيل حكومتها، على أمل إنهاء عداء هذه الولايات للعرش،

وتهدئة الأوضاع فيها، ووقف التيارات المتطرفة، ووقف العمليات الإرهابية.

ولكن حدث أن نصح مستشارو الإمبراطور ابنه الأرشيدوق بعدم زيارة سراييفو حفاظًا على حياته، ولكنه بدلًا من العمل بالنصيحة توجه في نهاية يونيو عام 1914 إلى سراييفو رغم علمه بأن هذه الزيارة ستتسبب في مشكلات كثيرة وأنه سيضع نفسه هدفًا للجماعات المناوئة للسلاف وغيرها.

وكانت جمعيات سرية تخريبية قد نشأت في عام 1911 تضم السلاف الجنوبيين تحت اسم «البوسنة الشابة» وكذلك نشأت عصابة سرية للصرب اسمها جماعة «القبضة السوداء» من أجل سيادة الصرب.

وبالنسبة لجماعة «القبضة السوداء» فقد رأت أن الفرصة مواتية لاغتيال الأرشدوق ورأت أن الاغتيال هو الطريق من أجل الإطاحة بالحكومة.

ووقع اختيار الجماعة على جافريلو برينسيب من غرب البوسنة لتنفيذ العملية.

أثناء زيارة الأرشيدوق لسراييفو للاحتفال بعيد سانت فيتوس والاطلاع على المناورات العسكرية هناك.

ولو أن الأرشيدوق امتلك الحس السياسي لعرف أن عيد سانت هو الذكرى السنوية لمعركتين شهيرتين في تاريخ الصرب، لكن الأرشيدوق لم يعر اهتمامًا للأمر، تمامًا كما أهمل تحذيرات مخابراته السرية التي نصحته بعدم الذهاب إلى سراييفو.

في الأثناء، تصاعدت المؤامرة، إذ اجتمع برينسيب مع ثلاثة رجال، وقال رابع يدعى الكولونيل دراجويتن ديميتريفيتش المعروف ضمن عصابة القبضة السوداء باسم: «آيبس» بوضع خطة الاغتيال. هذا الرجل هو الذي جند المتآمرين من بين طلبة المدارس.

المتآمرون اختبأوا في منزل دانيلو إيليك عضو تلك الجماعة، وتزود الجميع بجرعات من الزرنيخ

لاستعمالها في الانتحار عند وقوعهم في قبضة السلطة.

وتدرب الفريق المكلف بعملية الاغتيال ضمن حديقة في بلجراد خلال الأسبوع الذي سبق زيارة الأرشيدوق وزوجته إلى سراييفو.

وصل الملكان إلى سراييفو يوم 26 من شهر يونيو حزيران، وحضرا البازار وحفل غداء رسمي، واستقبلتهما الجموع بكل ود.

وفي يوم الأحد 28 يونيو سنة 1914، مر الموكب المكون من ست سيارات سريعًا باتجاه قاعة الاحتفالات الكبرى للمدينة، وفي ذلك الطريق كان المتآمرون ينتظرون اللحظة الحاسمة وقد توزعوا ضمن مجموعتين، فإذا فشلت المجموعة الأولى، تتولى المجموعة الثانية إتمام المؤامرة.

وفي الساعة العاشرة وعشر دقائق، مرت السيارة المكشوفة وهي تقل الأرشيدوق وزوجته.

كان الأرشيدوق بملابسه الرسمية.في تلك اللحظة مرت السيارة بمحاذاة مجموعة التنفيذ الأولى التي ألقت قنبلةً على الموكب، وتدحرجت أول قنبلة تحت السيارة الثانية التي كانت وراء السيارة المطلوبة. دوى الانفجار وجرح عددًا من مرافقي الموكب الملكي وبعض المتفرجين. خاف الفاعل من وقوعه في قبضة الشرطة فابتلع حبة الزرنيخ.

توقف الموكب لحظات، ثم تابع طريقه، واطمأن الجميع أن مؤامرة الاغتيال فشلت. وبالفعل، لم يتحرك الرجال الآخرون من أعضاء فريق التنفيذ.

توجه غافريلو برينسيب إلى مقهى في شارع فرانز جوزيف حيث جلس يحتسي كوبًا من القهوة. وهكذا تحولت الخطة إلى فشل كامل، وانتهى كل شيء، أو هكذا بدا الأمر في البداية.

وقرر الأرشيدوق فجأة أن يزور المشفى العسكري للاطلاع على حالة الجرحى الذين أصيبوا أثناء محاولة الاغتيال. كان المشفى قريبًا من تلك المقهى.

وبسبب خلاف بين قائد شرطة سراييفو والحاكم العسكري للمنطقة، حصل ارتباك في الترتيبات الأمنية، وظل شارع فرانز جوزيف دون حراسة.

توقف الموكب قليلا أمام ذلك المقهى، وكان غافريلو برينسيب قد أنهى شرب قهوته ثم قام ليقف أمام الباب، وعلى بعد أمتار قليلة من سيارة الأرشيدوق.وهنا ودون تردد، مد يده إلى مسدسه وأطلق النار مرتين.

أصابت الطلقة الأولى الأرشيدوق في صدره، وأصابت الثانية بطن زوجته التي ماتت، وبعد دقائق مات الأرشيدوق.

وفي غضون أيام بعد الاغتيال، كانت جيوش الإمبراطورية النمساوية تغزو صربيا، وكان هذا هو سبب اندفاع روسيا لحماية السلاف المرتبطة بهم وإعلان الحرب على النمسا، ولجأت النمسا لألمانيا لتضغط على الروس لسحب قواتهم ولكن روسيا رفضت.

وبعد أن اتصل الإمبراطور فرانز بحليفه القيصر الألماني فيلهلم الثاني، وشكل البلدان حلفا لمقاتلة الصرب انتقامًا لحادث الاغتيال.

هنا تحركت روسيا التي تنتمي إلى العرق السلافي (تمامًا مثل الصرب)، ودخلت في تحالف مع بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

طالب التحالف الألماني النمساوي بنزع سلاح جماعة القبضة السوداء، ووقف الحملة الدعائية الصربية الموجهة ضد النمسا، والسماح للشرطة النمساوية بالتحقيق في عملية الاغتيال، وإيقاف عمليات تهريب السلاح.

وفي يوم 28 يوليو سنة 1914، أعلنت الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب ضد صربيا.

وفي الأول من أغسطس سنة 1914، أعلنت ألمانيا الحرب.وفي يوم الرابع من أغسطس سنة 1914،

أعلنت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا، وفي نهاية الشهر صارت الحرب العالمية الأولى أمرًا قائمًا!!

56

فلاديمير لينين..

خطأ قسَّم العالم شطْرين

هذا الخطأ يتعلق بقصور الرؤية. ففي عام 1917، دخلت حافلة تضم 19 روسيًّا وألمانيًّا قادمة من بيرن في سويسرا.وقد كان كل الروس في الحافلة من مسجلي الخطر على الأمن ليسمح لهم بالمرور عبر أراضي سويسرا أو دخولها.

ولم تكن أي دولة أوروبية ستسمح لهم بالمرور عبر أراضيها سوى سويسرا التي كانت محايدة وأكثر تسامحًا في مثل هذه الأحوال.

وكان من بين الروس التسعة عشرة فلاديمير لينين الذي هرب من روسيا إلى سويسرا وكون جماعات ثورية فيها وأعلن الحزب البلشفي الروسي تمهيدًا لقلب نظام الحكم القيصري في بلاده.

وكان الشعب الروسي يئن تحت وطأة الفاقة والعوز، وبدا أن المجاعة على الأبواب. وظهر نقص في المواد الغذائية على اختلافها حتى الخبز، والحكومة عاجزة عن عمل أي شيء، والعمال يضربون عن العمل وصفوف النسوة تطول أمام الأفران يومًا بعد يوم.

وبدأت المظاهرات العارمة، ورفض الجنود هذه المرة تنفيذ أوامر قياداتهم بإطلاق النار، ما اضطر القيصر إلى التنازل عن العرش وتسليم السلطة إلى حكومة برئاسة الأمير جورج ليفوف في 15 مارس 1917.

وعاد لينين إلى روسيا وكذلك معظم قيادات الحزب البولشفي الذين كانوا منفيين إلى سيبيريا.

وفي 16 إبريل عام 1917 وصلوا إلى بتروجراد واستُقبلوا استقبال الأبطال. وطالب لينين بإنهاء الحرب ضد ألمانيا فورًا وبأن تعود ملكية الأراضي إلى الدولة وبإسقاط حكومة ليفوف.

واستطاع استعادة زمام قيادة الحزب البولشفي إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى السلطة. في يوليو شكلت حكومة جديدة برئاسة ألكسندر كيرينسكي، وأصدرت أمرًا بإلقاء القبض على لينين بتهمة العمالة للألمان، فغادر إلى فنلندا ثم عاد لينين إلى بتروجراد في أكتوبر عام 1917 ودعا الهيئة المركزية للحزب إلى إعلان الثورة على الفور.

وكانت حكومة كيرينسكي ضعيفة، وكان ليون تروتسكي أحد القادة البارزين في الحزب يحظى بولاء مجموعات كبيرة من الجنود. وأعلن بعض فرق البحرية تأييد الثورة.

وهكذا قرر البلاشفة التحرك. سقطت بتروجراد بأيديهم دون مقاومة تذكر.وفي موسكو كانت المقاومة أشد إلا أن البلاشفة سيطروا على المدينة في أقل من أسبوع.

وهكذا صارت كل روسيا تحت سلطتهم. واستطاعوا اكتساب ثقة الأهالي بالشعار البسيط الذي رفعوه:

الخبز والسلام والأرض للجميع.

واجتمع مجلس السوفييت - فروع الحزب وضم ممثلين عن كافة الأقاليم الروسية. وانتخبوا مجلس مفوضي الشعب الذي انتخب لينين رئيسًا له.

وهكذا صار فعليًّا رئيس الدولة الروسية. وفي الاجتماع الأول سأل لينين المجلس أن يعطيه تفويضًا بإعلان إنهاء الحرب ضد ألمانيا وبإلغاء الملكية الفردية فوافق المجلس.

وهكذا بدأت مفاوضات السلام مع ألمانيا وبدأ العمل على إلغاء الملكية الخاصة للأراضي وإلحاقها بممتلكات الدولة. ليتم فيما بعد توزيعها على الفلاحين.

ومن هنا أعلنت الشيوعية التي تعتبر أسوأ ما يمكن أن يحدث للبشر، والخطأ الذي غير مجرى التاريخ نتيجة فكر رجل واحد جعل نصف العالم الشرقي يتجه نحو أسوأ كوارثه، والتي لم يستفق منها إلا في تسعينيات القرن الماضي..!!

57

التفكير قصير النظر..

الكساد العظيم

كانت أوربا تتضوَّر جوعا. الحرب العالمية الأولى كانت على أشدها. ومعظم المزارعين الأوروبيين كانوا قد انضموا إلى الجيوش.وكانت النيترات التي تستخدم في صناعة الأسمدة قد ذهبت بدلا من ذلك إلى صناعة الذخائر.

ولذلك فقد تقرر أن تقوم الولايات المتحدة بإنتاج المزيد من المحصولات، وكان ذلك يعني زراعة الأراضي التي لم تكن مزروعة بعد، لكي تنتج القمح والذرة.

وقد شهدت هذه الفترة هطول الأمطار الغزيرة مما جعل الأراضي منتجة بصورة جيدة، ولكن للأسف هذه الأمطار لم تستمر طويلا.

وقد أشرفت على إنتاج هذه المحاصيل هيئة الأغذية والزراعة الأمريكية التي كانت قد أنشئت في عام 1917، وكانت تقوم بتشجيع الأمريكيين على الزراعة واستغلال الأراضي الشاسعة التي لم تُستغَل بعد.

وكان العائد رائعًا من هذه الزراعات خاصة القمح والذرة، وتم استخدام الولايات الأكثر جفافًا لزراعة القمح كما في تكساس وأوكلاهوما ونيو مكسيكو.ولم تكن هذه الولايات الأكثر جفافًا صالحة لزراعة القمح ولكن الأمطار الغزيرة التي شهدتها جعلتها صالحة.

وانتهت الحرب العالمية الأولى وانتهى معها دعم هيئة الأغذية والزراعة للمزارعين.وبينما عجز بعض المزارعين عن إنتاج القمح الجيد، هجر الباقون الزراعة برمتها، واستبدلوا بها تربية الجياد والماشية.

وفي عام 1934، تسببت الأعاصير والرياح الرملية إلى تدمير المزارع في أنحاء كبيرة من أمريكا وسلمت الولايات التي توقفت عن الإنتاج الزراعي بعد رفع

الدعم.ومن ثم كان يمكن لو استمرت في الإنتاج الذي بدأته في الحرب العالمية الأولى لأنقذت أمريكا.

ثم حل الكساد الكبير «أو الكساد العظيم» والذي استمر من الثلاثينيات إلى الأربعينيات من القرن الماضي والذي عبر عنه الكاتب الأمريكي جون شتاينبيك في روايته الشهيرة «عناقيد الغضب».

58

التجربة النبيلة..

انتهت بكارثة!

ذرْف الدموع انتهى. الأحياء الفقيرة ستكون مجرد ذكرى. سنحول سجوننا إلى مصانع والزنازين إلى مخازن. وسيسير الناس مرفوعي الرأس. وسوف تبتسم النساء ويضحك الأطفال.كان هذا هو رأي بيلي صنداي مهندس ومحرك «قانون تحريم الكحوليات» أحد أكبر الأخطاء الداخلية في التاريخ الأمريكي حيث إنه أدى إلى عكس الغرض الذي تم سنه من أجله.

القانون كان يحظر الكحوليات في الولايات المتحدة، وكان قانونًا فيدراليًّا يحظر بيع وتصنيع ، ونقل المشروبات الكحولية في الولايات المتحدة في عام 1917في حين الملكية الخاصة للمشروبات الكحولية وتناولها لم يكن ممنوعًا.

وتم اعتماد القانون بعد التعديل الثامن العشر لدستور الولايات المتحدة والقانون التشريعي التمكيني الذي عرف «بقانون فولستيد» نسبةً لأندرو فولستيد رئيس لجنة القضاء في مجلس النواب الأمريكي.

التعديل والقانون أرسى القواعد لفرض الحظر وأنواع المشروبات المحظورة وتم إلغاء القانون بعد التعديل الحادي والعشرين لدستور الولايات المتحدة في 5 ديسمبر 1933.

وقد أثار القانون جدلًا واسعًا في الولايات المتحدة ، فالمؤيدون وصفوا الحظر «بالتجربة النبيلة» وقدموه على أنه انتصار للأخلاق الحميدة وصحة الشارع، فيما اتهم المعارضون مؤيدي الحظر بفرض توجهات بروتستانتية ريفية على أبناء المدن المهاجرين من الكاثوليك.

استهلاك الكحوليات انحدر للنصف في العشرينيات وبقي كذلك بعد إلغاء الحظر إلى أربعينيات القرن العشرين خلال الحرب العالمية الثانية.

كان فرض الحظر صعبًا على السلطات التنفيذية لغياب تأييد شعبي له ، بالإضافة إلى أن الحظر كان سببًا رئيسيًّا في نمو العديد من المنظمات الإجرامية ونشوء السوق السوداء، وارتفعت نسبة الفساد بين السياسيين الأمريكيين وجهاز الشرطة لعدم احترامهم لقانون الحظر وتقاضيهم الرشوة مقابل غض الطرف عن انتهاكات القانون.

وعلى الرغم من نجاح القانون في تقليل عدد مستهلكي الكحوليات ، إلا أنه كان سببًا رئيسيًّا في نمو الجريمة المنظمة ومايصاحبها من تداعيات.

وارتفع معدل الجريمة بشكل غير مسبوق وأحدثت مجزرة يوم القديس فالنتين صدمة للشارع الأمريكي وأخذت أعداد المؤيدين للقانون بالتضاؤل سريعًا.

وفي 22 مارس 1933 ، وافق الرئيس روزفلت على قانون يسمح بصناعة وبيع النبيذ والبيرة منخفضة الكحول وعرف القانون باسم «كولين هاريسون» تيمنًا بمتبنيه السيناتور «بات هاريسون» وعضو مجلس

الشيوخ «توماس كولين» في 5 ديسمبر 1933 تم التصديق على التعديل الحادي والعشرين للدستور والذي نقض التعديل الثامن العشر وألغاه.

ولكن أبقت الحكومة الفيدرالية على قانون يمنع تصنيع المشروبات الكحولية القوية دون استيفاء بشروط توصف بالتعجيزية لمن أراد صناعة مشروبات كحولية للاستخدام الشخصي.

59

النبات الشيطاني

خطأ لا يُغتفر!

والآن إليكم قصة النبات الشائع في الجنوب الأمريكي بأنه أحد الأخطاء الكبرى في التاريخ الأمريكي. وإذا كنت تعيش في أي مكان في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية فسوف تتأكد من ذلك.

هذا النبات اسمه (كودزو) وينمو في الأصل في جوانب جبال روكي حيث يقاوم التربة غير الملائمة والطقس البارد.وهذا يجعل النبات عدوانيا وقاسيا.

وبسبب المشكلات التي يسببها هذا النبات في ولايات أمريكا الجنوبية، حيث يصيبهم نموه السريع جدًّا وقدرته على التسلق فوق المنازل، أصبحت هناك نكات تقال عليه منها نكتة تقول إذا نسيت نافذتك مفتوحة فقد تجد كودزو الذي تركته على الأرض قبل أن تنام بجانبك في الفراش في الصباح.

كودزو أصبح وحشًا يزحف ببطء وبكل تصميم وبلا هوادة، مبتلعًا الطرقات والمنازل والسيارات خانقًا بذلك مجتمعات بأكملها.

والخطأ الذي ارتكبته الحكومة الأمريكية في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما أمرت باستيراده من موطنه الأصلي باليابان وزراعة 2 مليون شجرة في الجنوب.

الغريب أن هذا النبات يتسبب في قتل نباتات أخرى بسبب نموه السريع وبارتفاعات كبيرة لدرجة أنه يحجب الشمس عن بقية النباتات.

وحاليًا يغطي النبات الوحشي كودزو مساحات شاسعة من جنوب شرق الولايات المتحدة ويسبب مشكلات لا حصر لها.

60

لا تخطيط دقيق ولا أوامر مفصَّلة

عندما غزت أمريكا روسيا

لن تسمعها أبدًا في الولايات المتحدة ولكن تأكد في أي مرة تناقش فيها العلاقات بين البلدين مع أحد الروس حول إمكانية أن تغزو أمريكا روسيا، سيقول لك يمكن، نعم صحيح هناك إمكانية.فقد فعلتها أمريكا من قبل.فقد هبط الأمريكيون أراضي روسيا واحتلوا مدينة من مدنهم لبضعة أشهر.حدث هذا أثناء الحرب العالمية الأولى.

في عام 1917، أذعنت حكومة البلاشفة الجديدة لألمانيا، وخرجت من الحرب. وقد أزعج ذلك الموقف الروسي الحلفاء، لأن خروجهم من الحرب سيزود الألمان بقوة إضافية هي السبعين وحدة التي خصصها لمواجهة الروس لاستخدامها في الجبهة الغربية.

وقدر رأى الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون أنه لا بد وأن يتخذ موقفًا إزاء هذا التغير.

وقد ارتأى أنه سيكون من الأفضل لو تم استبدال البلاشفة بشخص ما على قمة السلطة في روسيا، وأن يتخذ هذا الشخص قرارًا بإعادة الانضمام للغرب في مواجهة الألمان.
ولكن الأمور لم تكن مستقرة في جميع أنحاء روسيا مع الحرب الدائرة بين الجيش الأحمر والجيش الأبيض. لذا قرر ويلسون إرسال قوة عسكرية إلى روسيا.

وتقرر أن تتكون هذه القوة من 9000 جندي يقودهم الميجور جنرال وليام جريفز والذي كان مسؤولا عن حماية سان فرانسيسكو من أي هجوم ألماني.

ولكن لم تكن هذه المهمة كافية لكي يقود القوة التي ستهاجم روسيا، ولكن تعيينه كان مناسبًا لأن القوة المهاجمة هي من وحدات المدينة التي كان يقودها لحمايتها.

وبالطبع وكما هو معتاد في مثل هذه الظروف فإن إرسال آلاف القوات إلى نصف العالم الآخر يتطلب تخطيطًا دقيقًا وأوامر مفصلة.

ولكن ما تلقاه جريفز كان مجرد مذكرة مقتضبة ودون أوامر محددة من بينها «هدفكم قلب نظام حكم البلاشفة» ومع المذكرة وريقة من وزير الحرب وصلت على متن القطار من تكساس وتقرأ: «رعاكم الله.. وداعًا».

ومن ثم أعد جريفز القوة من حامية سان فرانسيسكو وأبحر صوب روسيا دون مدفعية ثقيلة.

وكانت ذريعة واشنطون لإرسال القوة إجلاء 300 ألف جندي تشيكي كانوا يحاربون إلى جانب الروس، وبعد خروج الروس من الحرب أصبحوا عاطلين عن العمل في روسيا.

وكان التشيك قد تجمعوا في فلاديفستوك في شبه جزيرة كامتشاتكا الروسية. وعند وصول جريفز وجد

أن هناك ألف جندي بريطاني ومثلهم فرنسي جاءوا من أجل نفس المهمة التي أوكلت إليه «إسقاط حكومة البلاشفة».

كما وجد 72 ألف جندي ياباني ليس لديهم هدف مقنع لوجودهم.ولكن حدث أن التشيك كانوا يسيطرون على المدينة، وشك تروتسكي في أمرهم، فأمر بتجريدهم من أسلحتهم وأرسل وحدات الجيش الأحمر الروسي لهذا الغرض وقتالهم لو تطلب الأمر.

ولكن الجيش الروسي فشل ودحرهم التشيك الذين سيطروا بالكامل على المدينة وكانوا يريدون مساعدة الأمريكيين لهم في دوريات المدينة وأعمال الشرطة.

وظل الحال شهرين ثم رحل التشيك وبقي الأمريكيون وكانت تستهدفهم قناصة القوقازيين فقتل وأصيب منهم حوالي 400 وسرعان ما انتهت الحرب ولم يكن معروفًا ما هي المهمة التي أرسلت من أجلها القوة فقد مات منها من مات وأصيب منها من أصيب ولم تفعل ما طلب منها، لأن القرار لم يكن مفصلا ولم يحدد

خطة قلب حكم البلاشفة واكتفى بأن يقول: «أسقطوها ولكن لا تنجروا لأية صراعات داخلية وحافظوا على سلامتكم».

61

اللاماركيزم

ولينين وستالين

حتى بعد صدور كتاب تشارلز داروين «أصل الأنواع» كانت هناك فرصةٌ ذهبية لاكتشاف الطريقة التي ترتقي بها الحيوانات عبر العصور.

ومن خلال نظرية داروين التي تقول إن الطبيعة تفضل التنوع الذي يساعد الإنسان لكي يحيا لمدة كافية للتكاثر، كانت هناك أيضًا نظرية لامارك.

وبينما اعتقد داروين بأن الكائنات تتطور لكي تصبح شيئًا مختلفًا عما كانت عليه، آمن لامارك بأن الكائنات ترث السمات الوراثية للوالدين، وأي تغير في سمات الوالدين الوراثية سوف يحمل أبناؤهم أو أبناؤها السمات بعد التغيير.

وأكد لامارك أن الأعضاء التي تستعمل بكثرة تنمو وتقوى، بينما الأعضاء التي تُهمل تضمر، كما أكد تأثر الكائن الحي بالبيئة التي يعيش فيها، وظنَّ أن الكائن الحي عندما يتعرض لتغيرات بيئية يتطوَّر.

وقدم لامارك بعض الأمثلة ليُدلّل على صحة نظريته مثل استطالة عنق الزرافة نتيجة لمحاولتها المستمرة لتناول أوراق الأشجار بسبب جفاف الحشائش.والفراء السميك للحيوانات القطبية للتغلب على برودة الجو المحيط، واختفاء أقدام الحوت الخلفية لأنه أصبح حيوانًا مائيًّا، اختفاء الأطراف لدى الثعابين لاختفائها في الجحور والممرات الضيقة.

ورغم أن علماء كثيرين عارضوا نظرية لامارك، إلا أنها وجدت قبولا في عشرينيات القرن الماضي عند مواطنه الزعيم الروسي. آمن لينين بأن نظرية لامارك أو «لاماركيزم» يمكن أن يبني بناء عليها الدولة السوفييتية وأن ال «لاماركيزم» وأن الشيوعية يمكن أن تكون جنة على الأرض.

أما سبب تفضيل ستالين نظرية لامارك فهو واضح. ستالين يريد أن يقول إن الشيوعية ستغير الإنسانية وستجعل العالم أفضل.

ومن خلال نظرية لامارك أصبحت كل الفظائع والأهوال التي حدثت في عهد ستالين مقبولة من جانبه لأنها ستغير الجيل القادم لكي يكون شيوعيًا.

ومن ثم عمد ستالين إلى إجبار الروس على اعتناق الشيوعية حتى يضمن أن يولد أبناؤهم شيوعيين.

كانت هذه النظرية تبرر أي عمل مهما كان فظيعًا وغير آدمي ووحشيًا. فقد كان يتم نفي الملايين إلى سيبيريا من الروس أصحاب الأراضي حتى تنزع ملكيتهم وتؤول للدولة وحسب النظرية التي اعتنقها ستالين هذا ليس بثمن أمام قيمة المصادرة وتعذيب المالكين للأراضي بوحشية، لأن تحقيق الشيوعية سيفيد الأجيال القادمة ويجعل حياتها أفضل.

وفي أربعينيات القرن الماضي كان من المحظور في الاتحاد السوفييتي على أي عالم معارضة نظرية لامارك أو انتقادها ومن يفعل كان يطرد من وظيفته أو يسجن.

لقد ارتكب ستالين وقبله لينين الخطأ الأكبر بأن آمنا بنظرية لامارك وطبَّقاها في السياسة، فلم يتغير الإنسان الروسي للأفضل، ولا المجتمع الروسي للأفضل، وإنما جاء التطبيق على جثث عشرات الملايين من الروس الذين أُعدموا أو نفوا، والشيوعية انهارت بعد أن ثبت فشلها في تغيير حياة الناس للأفضل.

62

مساعدة الأعداء

صعود هتلر

حجمت معاهدة فرساي من حجم وطبيعة الجيش الألماني. وكان الهدف من ذلك هو ضمان عدم قدرة ألمانيا في أي وقت على مهاجمة جيرانها مرة أخرى بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.

ومعاهدة فرساي تعد هي المعاهدة التي أسدلت الستار بصورة رسمية على وقائع الحرب العالمية الأولى. وتم التوقيع على المعاهدة بعد مفاوضات استمرت 6 أشهر عام 1919.

ووقع الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الأولى من جانب، والجانب الآخر كان الجانب الألماني المهزوم في الحرب في 28 يونيو 1919.

وتم تعديل المعاهدة فيما بعد في 10 يناير 1920 لتتضمن الاعتراف الألماني بمسؤولية الحرب ويترتب على ألمانيا تعويض الأطراف المتضررة ماليًّا.

وسميت بمعاهدة فرساي تيمنًا بالمكان الذي تم فيه توقيع المعاهدة وهو قصر فرساي الفرنسي.

وفيما يتعلق بالقيود العسكرية على ألمانيا، فقد نصت الاتفاقية أشد الضوابط والقيود على الآلة العسكرية الألمانية لكي لا يتمكن الألمان من إشعال حرب ثانية كالحرب العالمية الأولى!

فقد نصت على احتواء الجيش الألماني على 100 ألف جندي فقط وإلغاء نظام التجنيد الإلزامي الذي كان يعمل به في ألمانيا. ولا تستطيع ألمانيا إنشاء قوة جوية والتقيد ب 15 ألف جندي للبحرية بالإضافة إلى حفنة من السفن الحربية بدون غواصات حربية.

ولا يحق للجنود البقاء في الجيش أكثر من 12 عامًا وفيما يتعلق بالضباط، فأقصى مدة يستطيع الضباط

البقاء بها في الجيش هي فترة 25 عامًا لكي يصبح الجيش الألماني خاليًا من الكفاءات العسكرية المدربة.

ولكن الاتفاقية فشلت في تحقيق ذلك فشلا ذريعا.فقد وجدت ألمانيا لنفسها طريقًا للإفلات من القيود التي تفرضها هذه الاتفاقية.

أما كيف حدث ذلك، فقد حدث بتعاون ألماني روسي وقد أدى هذا فيما بعد إلى معاناة العالم، وتغيير مجرى التاريخ.

هذا التلاقي كان مبعثه كراهية أوربا لألمانيا وكراهية أوربا أيضًا لروسيا الشيوعية.

وبعد «فرساي» كان الخطأ الذي وقع فيه حلفاء الحرب الأولى عدم مراقبة تطبيق فرساي وكانت النتيجة صعود الحزب النازي للسلطة بزعامة هتلر، وكانت الحرب العالمية الثانية.

63

غلطة أنقذت البشرية

فليمنج والبنسلين

ربما تكون هذه هي الغلطة التي غيرت مجرى التاريخ للأفضل.فقد استفاد العالم هنا من سوء تكنيك أحد المعامل.وهو تكنيك في أسوأ درجاته يتبعه العلم في أفضل حالاته.

فى شهر يوليو عام 1928، ترك عالم الميكروبيولوجيا معمله بمستشفى سانت مارى بلندن لقضاء إجازته الصيفية، وفي التسعة أيام الأخيرة من هذا الشهر، انخفضت درجة الحرارة لتصل إلى 20 درجة مئوية، ما تسبب في تنشيط نمو فطر تسرب من معمل آخر في المستشفى لينفذ من خلال كسر في زجاج شباك معمل عالم الميكروبيولوجيا وينقض على مستعمرات البكتيريا التي تركها العالم قبل بدء إجازته.

وعند العودة لاحظ وجود بقع صفراء في مستعمرات البكتيريا التي تحللت تمامًا، كما اكتشف أن الفطر الذي قضى عليها من فصيلة البنيساليم، ولذلك فقد سمى عالم الميكروبيولوجيا «فليمنج» المادة التي يفرزها هذا الفطر «بنسلين»، وهو أول مضاد حيوى عرفته البشرية.

ولقد أدت المصادفات الناتجة عن هذا الخطأ الذي جعل المعمل غير آمن بسبب ضعف عمليات التعقيم إلى هذا الاكتشاف العظيم، وذلك بأن ترك فليمنج الأطباق التي تحوي البكتيريا خارج الحضانة، وجاءت موجة البرد التي ساعدت على تكاثر الفطر الذي وجد طريقه إلى البكتيريا عن طريق كسر في زجاج الشباك.

هذا ما حدث بالضبط مع ألكسندر فليمنج عند اكتشافه «البنسلين».

وهكذا فقد تطايرت بعض الأتربة التي تحمل فطرًا يحدث عفنًا ودخلت من نافذة مفتوحة في مستشفى بلندن وسقطت في صحن زجاجي، كان فليمنج

يستخدمه في إجراء إحدى التجارب وكان يحتوي على «مكور عنقودي» من البكتريا.

نظر «فيلمنج» في الصحن بالميكروسكوب جيدًا، فوجد أن العفن الفطري يدمر الجراثيم والبكتريا، فتوصل هو واثنان من زملائه إلى اختراع البنسلين الذي يدخل اليوم في الكثير من تركيبات الأدوية التي تدخل في علاج العديد من الأمراض المستعصية.

وأحدث البنسلين طفرة في عالم الطب الحديث، واستحق مكتشفوه الحصول على جائزة نوبل عام 1945.

وهكذا تمكن ألكسندر فليمنج من اكتشاف العقار الجديد، وإن لم يقدر له أن ينال اعتراف الدوائر الرسمية أو الطبية أو الشعبية إلا بعد أن أثبت نجاحه في معالجة جرحى الحرب العالمية الثانية.

وكان ذلك بفضل جهود الكيميائيين الذِين استطاعوا تحويل الكشف العلمي ومصادفته السعيدة الناتجة عن خطأ إلى عقار دوائي مطروح في دنيا الطب والعلاج.

64

التقاعس في التعامل مع الأزمات

الرئيس هوفر والكساد العظيم

بينما كان لدى الرئيس الأمريكي هربرت هوفر في عام 1929 افتراضات خيالية يخفيها داخل عقله، كان من بين هذه الافتراضات التي خرجت للعلن قوله «نحن في أمريكا اليوم نقترب من تحقيق الانتصار النهائي على الفقر أكثر من أي وقت في التاريخ وأكثر من أي دولة أخرى على الخريطة».

وبعد أقل من عام من هذا الإعلان دخلت البلاد مرحلة الكساد لتشهد أزمة مالية تسببت في ارتفاع جنوني في معدلات الفقر والبطالة.

وشهدت الأسواق المالية انهيارات رهيبة بفضل السياسات غير الرشيدة لإدارة هوفر.وكانت سلبية وتقاعس هوفر أحد أهم أسباب تفاقم الأزمة الطاحنة.وهذا نفس ما حدث بواسطة الرئيس الذي

خلفه تيودور روزفلت والذي بلغت الأزمة في عهده ما عرف تاريخيًا باسم «الكساد العظيم» أو «الكساد الكبير».

وتعتبر أكبر وأشهر الأزمات الاقتصادية في القرن العشرين ويضرب بها المثل لما قد يحدث في القرن الحادي والعشرين وما مدى سوء الأزمة التي قد تحدث وقد بدأت الأزمةبأمريكا ويقول المؤرخون إنها بدأت مع انهيار سوق الأسهم الأمريكية في 29 أكتوبر 1929 والمسمى بالثلاثاء الأسود.

وكان تأثير الأزمة مدمرًا على كل الدول تقريبًا الفقيرة منها والغنية، وانخفضت التجارة العالمية ما بين النصف والثلثين، كما انخفض متوسط الدخل الفردي وعائدات الضرائب والأسعار والأرباح.

أكثر المتأثرين بالأزمة هي المدن وخاصة المعتمدة على الصناعات الثقيلة كما توقفت أعمال البناء تقريبًا في معظم الدول، كما تأثر المزارعون بهبوط أسعار المحاصيل بنحو 60% من قيمتها.

وكانت المناطق المعتمدة على قطاع الصناعات الأساسية كالزراعة والتعدين وقطع الأشجار هي الأكثر تضررًا، وذلك لنقص الطلب على المواد الأساسية بالإضافة إلى عدم وجود فرص عمل بديلة.

كما أدت إلى توقف المصانع عن الإنتاج، ونتج عنها أن أصبحت عائلات بكاملها تنام في أكواخ من الكرتون وتبحث عن قوتها في مخازن الأوساخ والقمامة. وقد سجلت دائرة الصحة في نيويورك أن أكثر من خُمس عدد الأطفال يعاني من سوء التغذية.

وكانت أمريكا قد بدأت بازدهار اقتصادي في العشرينيات ثم ركود ثم الانهيار الكبير عام 1929، ومن ثم عودة عام 1932.

وبعد انهيار بورصة وول ستريت كان لا يزال التفاؤل سائدًا وقال رجل الصناعة الشهير «جون روكفيلير»: «خلال هذه الأيام يوجد الكثير من المتشائمين ولكن خلال حياتي التي امتدت لثلاثة وتسعين عامًا كانت

الأزمات تأتي وتذهب ولكن يجب أن يأتي الازدهار بعدها دائمًا».

بدأت الأزمة في الزوال في كل الدول في أوقات مختلفة وقد أعدّت الدول برامج مختلفة للنهوض من الأزمة وكانت قد تسببت الأزمة في اضطرابات سياسية دفعتها لتكون إما من دول اليمين أو اليسار ودفعت أيضًا المواطنين اليائسين إلى الديماجوجية - ومن أشهرهم أدولف هتلر - وكانت هذه من أسباب اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كانت الأزمة بدأت مع انهيار مفاجئ وكامل للبورصة ومع أن الأسهم في إبريل 1930 بدأت في التعافي والرجوع لمستويات بدايات 1929 إلا أنها ظلت بعيدة عن مستويات سبتمبر 1929 بنحو 30% ومع أن الإنفاق الحكومي زاد خلال النصف الأول لعام 1930 إلا أن إنفاق المستهلكين قل بنسبة 10% وذلك بسبب الخسائر الفادحة بسوق الأسهم بالإضافة إلى موسم جفاف شديد عصف بالأراضي الزراعية الأمريكية في بداية صيف 1930 عرف بقصعة الغبار.

وفي بدايات عام 1930 كان الائتمان وفيرًا وبمعدل فائدة قليل إلا أن الناس كانت محجمة عن إضافة ديون أخرى بالاستدانة، وفي مايو 1930 كانت مبيعات السيارات قد انخفضت لمستويات منتصف 1928 وبدأت الأسعار في التراجع إلا أن الرواتب ظلت ثابتة ولكنها لم تصمد طويلًا وانخفضت بمنتصف عام 1931، أما المناطق الزراعية فكانت الأكثر تضررًا بهبوط أسعار السلع عامة.

ومن ناحية أخرى كانت الأزمة في مناطق التعدين ومناطق قطع الأخشاب بسبب البطالة وعدم وجود فرص عمل بديلة.

كان انكماش الاقتصاد الأمريكي هو العامل في انكماش اقتصاديات الدول الأخرى وفي محاولات محمومة طبق بعض الدول سياسات وقائية فقد قامت الحكومة الأمريكية عام 1930 بفرض تعرفات جمركية على أكثر من 20 ألف صنف مستورد وعرفت باسم تعريفة سموت هاولي وردت بعض الدول بفرض تعرفات انتقامية مما زاد من تفاقم انهيار التجارة

العالمية وبنهاية عام 1930 واصل الانهيار بمعدل ثابت إلى أن وصل إلى القاع في مارس 1933.

وكان هوفر الذي بدأ الكساد في عهده قد أصبح رئيسًا دون أن يخوض أي انتخابات أو تكون له خلفية عسكرية، بسبب شهرته كنائب للرئيس ودرو ويلسون، عندما نجح في تنظيم عمليات ترشيد استهلاك الطعام في الحرب العالمية الأولى، لتوفير الكميات المطلوبة لإطعام الشعوب التي كانت تتضور جوعًا في أوربا أثناء الحرب وبعدها.

وكان هوفر قبل رئاسته إداريًّا وتقنيًّا ناجحًا، لكنه فشل في حل مشكلة الكساد الكبير الذي بدأ في رئاسته.

ففي عهد هوفر الرئيس الأمريكي الجمهوري وبالتحديد في يوم 24 أكتوبر 1929 المعروف باسم «يوم الثلاثاء الأسود» انهارت بورصة وول ستريت بعد دخوله البيت الأبيض بنحو ثمانية أشهر فقط، وظلت إدارته تتقاعس عن اتخاذ ما يلزم من تدابير

وقرارات حاسمة حتى أفلت الأمر من يديها ومن يدي الإدارة التي تلتها.

ويعود ذلك إلى تفوق العرض على الطلب بشكل خيالي حيث تم عرض 13 مليون سهم تقريبًا على لائحة البيع الأمر الذي أوصل أسعار الأسهم إلى أدنى مستوى بعد ارتفاع سابق، هنالك أيضًا من يسمون الانهيار يوم الثلاثاء الأسود وذلك لأنه بعد مرور خمسة أيام، أي في 29 أكتوبر عام 1929، حدث انهيار آخر في سوق الأوراق المالية، أدى إلى تفشي الخوف في قلوب العامة من أن البلاد مقبلة على حالة من الركود أو حتى الانهيار الاقتصادي..

أما سبب الانهيار فيعود لاستثمار مبالغ ضخمة مما رفع أسعار الأسهم إلى قيم وأسعار خيالية وغير واقعية، وارتفاع الأسعار جذب واستقطب مستثمرين من شتى الطبقات والمستويات على استثمار أموالهم في البورصة، حتى البنوك اشتركت في الاستثمار حيث قامت بتمويل قروض مع شروط مريحة للمستثمرين

الأمر الذي ضاعف الاستثمارات ورفع الأسعار أكثر وأكثر.

ففي 24 أكتوبر من عام 1929، عُرض على لائحة البيع أكثر من 13 مليون سهم مما جعل العرض أعلى من الطلب واتجهت الأسهم نحو القاع، عمت الفوضى في المكان حيث بدأت أموال المستثمرين تتبخر، وازداد الأمر سوءًا حين ازداد عدد الأسهم المعروض إلى 30 مليون سهم في الأيام التي تلت، الأمر الذي جعل أسعار الأسهم بلا قيمة وجعل الكثير من المستثمرين في ديون عميقة وعبء ثقيل للبنوك التي أعلنت إفلاسها بسبب الديون العميقة التي تراكمت من كثرة القروض غير القابلة للسداد بسبب انهيار البورصة وإفلاس المستثمرين.

ويعتبر تقاعس هوفر وسلبيته هما المسؤولان عن تفجر الأزمة وتعاظم الكساد، لأنه ركز على العودة الطبيعية والتدريجية إلى تعافي الاقتصاد دون تدخل مباشر من الدولة ودون استخدام السلطات الفيدرالية الحكومية لإنقاذ الاقتصاد.

الرئيس هوفر تسبب في الأزمة بإصدار قرارات معينة الغرض منها كما يعتقد هو ومستشاروه الحد من تدهور الأوضاع، ومحاولة وقف الانهيار، ولكن تلك القرارات ربما تصيب وربما تخيب، فالاعتقاد شيء، والتجربة في أرض الواقع شيء آخر، وهذا ما فعله هوفر، فلم يكن أمامه سوى اتخاذ المزيد من القرارات، إضافة إلى استخدام الأسلوب الدعائي والتصريحات التي تمس وجدان الأمريكيين.

فبعد مرور عام على بداية الأزمة. وفي أكتوبر 1930 بدأ هوفر يلقي خطابات يركز فيها على الأسباب النفسية للأزمة، وقال في إحدى خطبه «إن الدخل المادي لفئة كبيرة من المواطنين لم يقل نتيجة الكساد، ولكنه تأثر بسبب الخوف غير الضروري، والتشاؤم».

وبنفس الوقت سمح هوفر للحكومة أن تتخذ إجراءات لإيقاف الضريبة على أرباح رأس المال، والتي ستسمح للمستثمرين الحفاظ على زيادة أرباحهم في الأعمال التجارية، وبعد ذلك ببضعة أسابيع، وبمناسبة الاحتفال بمرور عام على ذكرى الثلاثاء الأسود، الذي صادف يوم

29 أكتوبر عام 1930 أدلى هوفر بتصريحات مناقضة للإشاعات التي انتشرت بين الأمريكيين من أن هوفر سيدعو الكونجرس لعقد جلسة خاصة لاتخاذ خطوات ضد البطالة، حيث دعا الأمريكيين إلى محاربة البطالة بتبني روح العمل التطوعي قائلًا «ليس هناك ضرورة لعقد اجتماع خاص لمعالجة البطالة، كما أعلن أن روح التطوع الموجودة لدى المنظمات الإنسانية وفي نفوس الأمريكيين لم تختفِ».

وهذا يعني بوضوح أنه لا يوجد لدى الحكومة أي خطط لمعالجة مشكلة البطالة المتفاقمة، وبعد بضعة أسابيع أخرى، فقدت طبقة من الأمريكيين المتميزين وظائفهم مرة واحدة، وهم أعضاء الكونجرس الجمهوريون، حيث فقد الجمهوريون في مجلس النواب 52 مقعدًا وتركوا السيطرة للديمقراطيين، أما في مجلس الشيوخ ففقد الجمهوريون ثمانية مقاعد، وأصبح المجلس من دون أغلبية واضحة.

وفي فبراير عام 1931، أكد هوفر معارضته لإغاثة البطالة الفيدرالية، قائلًا إنه سيقبل بها فقط «إذا أتى

الوقت الذي لا تستطيع فيه الجمعيات التطوعية الأمريكية مع الحكومات المحلية في الولايات المتحدة إيجاد الموارد التي تمنع المجاعة».

وكان الاحتياطي الفيدرالي يحتفظ بذهبه في خزائن خاصة بعيدًا عن البنوك التي أخذت تنهار تباعًا، وكان بالإمكان الاستفادة من هذا الذهب في هذه الأوقات العصيبة، إلا أن هوفر لم يوافق على فتح الخزينة الفيدرالية للإغاثة إلا بعد انهيار المزيد من المؤسسات الخاصة والعامة، وكانت معارضته للإغاثة الحكومية تقوم على أساس أنه إذا قامت الحكومة الفيدرالية بتقديم المساعدة بشكل مباشر للمواطنين، فإن هذا يعني «أن الأمريكيين بدأوا يجازفون بأنفسهم بالارتماء في أحضان الاشتراكية».

ولكن هوفر، رغم قراراته تلك، يبدو أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بما يقوم به، وحاول التخفيف من إجراءاته بمنع الإغاثة الحكومية بإصدار قانون في فبراير 1931 ينص على إنشاء لجنة فيدرالية للاستقرار الوظيفي، وكانت مهمتها تنظيم الصرف من قبل الحكومة

الفيدرالية على المشاريع التي تعالج موضوع البطالة، ولكنه ساند هذا القانون بتردد.

كما أمر هوفرُ بتشديد القوانين الخاصة بمنع الهجرة، وأدت هذه الإجراءات إلى منع دخول 100 ألف أجنبي للولايات المتحدة، وفي يونيو 1931 أعلن الرئيس هوفر عن تعليق دفع الديون المستحقة لأمريكا من الدول الأخرى لمدة سنة، وكان يحاول إنقاذ ألمانيا التي كانت أوضاعها الاقتصادية تتدهور، وعلقت جريدة التايمز على هذا الإجراء بقولها «يوجد اليوم ما يشبه النظام الواحد لجميع العالم المتحضر، وأن وجود جرح في أحد الأطراف يؤثر في كامل الجسم، وأن تعليق دفع الديون المستحقة من الممكن أن يؤخر حصول انهيار دولي، ولكنه لا يوفر إغاثة آنية للأمريكيين»، وهذا ما حدث بالفعل، فهذا الإجراء زاد الطين بلّة، فازدادت معدلات البطالة سوءًا، ففي حين كانت تقدر بنحو 9% في عام، 1930 أصبحت 16% في عام 1931 و23% في عام 1932.

وفي هذه الأجواء المشحونة، حاولت إدارة هوفر إخفاء الحقائق، ووضعت مفاهيم وطرقًا جديدة لقياس وتعريف البطالة بحيث تظهر حسب ما تريد، ولكن النتائج كانت عكسية، حيث ظهرت أرقام وإحصائيات تؤدي إلى المزيد من اليأس، وفي محاولة يائسة لإعادة انتخابه، وافق خلال بداية دعايته الانتخابية عام 1932 على بعض القرارات التي اعتقد أنها سترفع الكساد متخوفًا من التهديد الذي شكله انهيار «بنك أمريكا» الذي كان مركزه في ولاية كاليفورنيا، وفي يناير 1932 وقع على قانون «المؤسسة المالية لإعادة الإعمار» برأسمال قدره 500 مليون دولار، وسمح بإصدار نقود ورقية تصل إلى قيمة 1.5 مليار دولار، وذلك لغرض الاستمرار في إقراض النقود للمؤسسات المالية لتصبح نوعًا من الدائن النشيط، وهذا القانون يعمل على أساس النظرية القائلة إن تخفيف الضغط على البنوك سيؤدي إلى تخفيف الضغط على المقترضين.

ووقع هوفر أيضًا على قانون يخصص 125 مليون دولار لنظام «بنك الأرض الفيدرالي» وهو شبكة من البنوك تأسست عام 1916 لتوفير قروض للمزارعين، وهذه القروض تساعد البنوك على مواجهة المقترضين غير القادرين على سداد ديونهم، وكذلك الذين لديهم أمانات ويطالبون باسترجاع أموالهم، وبنفس الطريقة، وقع هوفر في صيف عام 1932 على قانون لنظام آخر وهو «بنوك إقراض المساكن» لإسناد البنوك التي قامت بإقراض النقود للأمريكيين لشراء منازلهم.

ووقع على قانون آخر يسهل التقييدات على البنوك ضمن نظام الاحتياطي الفيدرالي يعطي للجنة الاحتياطي الفيدرالي مرونة أكبر في تغيير نسب الفائدة، وقد ساعدت جميع هذه الإجراءات على تقليل التقييدات على القروض، ومكنت المصرفيين ورجال الأعمال من الاقتراض بحرية أكبر، كما أنها منحت فرصًا جديدة للأمريكيين الذين لا يتعاملون مع البنوك.

وقد انتهت الفترة الرئاسية الأولى للرئيس الأمريكي هيربرت هوفر بنهاية عام، 1932 ولا أحد يستطيع

إنكار حجم الجهد الذي بذله هوفر لمواجهة الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي ضربت الاقتصاد الأمريكي في الصميم بعد مرور 9 أشهر فقط من بدء رئاسته، حيث وجد نفسه فجأة أمام مأزق تهون أمامه كل المشكلات مهما بلغت صعوبتها، وقد استغل المنافس الرئيسي لهوفر في الانتخابات ممثل الحزب الديمقراطي وحاكم ولاية نيويورك فرانكلين روزفلت كل نقاط الضعف التي رصدها في منافسه أثناء فترة رئاسته، واستفاد من أخطائه وسقطاته، ودرس طريقة مواجهته لتلك الأزمة والقوانين التي أصدرها ومدى فاعليتها.

ويبدو واضحًا أن بعض القوانين التي أصدرها هوفر كانت جيدة، وخاصة فيما يتعلق ببنوك القروض التي كان الغرض منها معاونة فئات كبيرة من الشعب الأمريكي على مواجهة الأزمة التي تحولت إلى كساد طويل فيما بعد، واستغرقت وقتًا طويلًا شمل فترة الثلاثينياتِ كلِّها.

65

القرارات الاقتصادية الخاطئة

تعريفة «سموت هاولي»!

كان الرئيس هوفر يتخبط في قراراته محاولًا إثبات جدارته، إلا أن قراراته كانت تسير بالأوضاع نحو الأسوأ، ولذلك لم ينتخبه الأمريكيون لولاية ثانية، حيث حكم خلال الفترة من 1929 لمدة أربع سنوات فقط.

كانت فكرة تطبيق تعريفة جديدة، أو بمعنى آخر فرض ضريبة جديدة على الواردات قد ظهرت للمرة الأولى عام 1928.

وكان الغرض منها حماية المزارعين الأمريكيين، والشعب الأمريكي أيضًا من المنافسة الخارجية.

ولكن هذه الفكرة لم تجد قبولًا لدى كثير من المزارعين ورجال الصناعة، وعدد من الحكومات الأجنبية، حيث

اعتقد كل هؤلاء أن هذه الضريبة الجديدة ستعزل السوق الأمريكية عن العالم، وما يتبع ذلك من تأثير في الصادرات الأمريكية لو اتخذت الدول الأخرى إجراء مشابهًا ضد الصادرات الأمريكية.

في تلك الفترة، كانت أمريكا تعيش أزهَى فتراتها الاقتصادية، وكانت دولة دائنة وليست مدينة، وعبّر أحد مسؤولي صناعة السيارات في شركة جي إم عن هذا الاقتراح بقوله «كدولة دائنة، يجب على أمريكا أن تحافظ على ازدهارها، وأن تشتري البضائع الأجنبية من كافة الأصناف».

ولكن هذه الضريبة طبقت منذ 17 يونيو 1930 كإجراء تخبطي من هوفر يأمل من خلاله إنقاذ الاقتصاد الأمريكي.

ولكن رجال الاقتصاد العقلاء كانوا يعرفون جيدًا أن إجراء كهذا لن يحل المشكلة بل سيجلب المزيد من المشكلات الأخرى، وأحد هؤلاء هو «توماس لامونت» الشريك في بنك مورجان الذي قال إنه ركع على رجليه

متوسلًا إلى هيربرت هوفر لاستخدام الفيتو ضد الضريبة الحمقاء الجديدة التي عرفت باسم تعريفة «سموت هاولي».

ولكن أحدًا لم يستمع للنصائح، ومع تطبيق تلك الضريبة على الواردات، قامت دول أخرى في السنوات التالية بالرد بالمثل وذلك بزيادة تعريفتهم على الصادرات الأمريكية.

ونتيجة لذلك، انخفضت التجارة العالمية بمقدار الربع من حجمها، كما أن منع الدول الأجنبية من دخول الأسواق الأمريكية أدى إلى صعوبة قيام الدول المدينة في الحرب العالمية الأولى من تسديد ديونها.

وشرح هذا الوضع أحد المسؤولين في صحيفة نيويورك تايمز قائلًا «لا يوجد ما يكفي من الذهب في العالم لكي يُدفع إلى أمريكا، وإذا أراد الأمريكيون أخذ استحقاقاتهم من الديون، فعليهم فتح أسواقهم»، وبهذه القيود التجارية، بدأ بيع البضائع في أمريكا بالانخفاض.

كما أن الدائنين بدأوا بخفض دفعاتهم أو تأخيرها، وكانت هذه القيود على التجارة الدولية وحركة التبادل التجاري تعني تقليل العبور الدولي للنقود المقترضة، وهذه تعد ضربة قوية لحركة الأموال في البنوك الأمريكية، وكانت النتيجة هي انهيار 20% من البنوك الأمريكية.

وبدأت التجارة العالمية بالانحدار، فقد طبقت بريطانيا العظمى التي كانت أكبر حماة التجارة الحرة منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، نظام «المعاملة التفضيلية الإمبريالي»، أي بمعنى آخر سورًا من التعريفات الجمركية قصدت منها الإبقاء على التجارة البريطانية داخل حدود الإمبراطورية البريطانية، واعتمدت دول أخرى قيودًا مشابهة، وكان حجم التجارة العالمية قد بلغ 26 مليار دولار عام 1929 أما في عام 1932، فإنه لم يتعد ال 12 مليارًا، ووصلت قيمة الصادرات الأمريكية 5.241 مليار دولار عام 1929.
أما بعد ثلاث سنوات فقط، فإنها لم تتجاوز 1.161

مليار دولار، أي ما يعادل تراجعًا بنسبة 78%، وهذا يقل عن صادرات عام 1896 إذا أخذنا التضخم بعين الاعتبار، كما أنه بمجرد تطبيق تعريفة «سموت هاولي» وإصدارها بقانون، بدأت سوق الأسهم تخسر مكاسبها، وبدأت المصارف تعلن إفلاسها بأعداد مطَّرِدة.

66

خطأ حلو المذاق

كيكة الشيكولاتة

في أحد أيام عام 1930، حاول فندق تول هاوس إن بمنطقة «ويتمان»، في بوسطن، عمل شيء مختلف كحلوى لنزلائه. وهنا يظهر اسم روث ويكفيلد الذي سأذكره هنا ويجب أن ندين بالفضل لها في اختراع كيكة أو كعكة الشيكولاتة والتي جاءت بسبب خطأ حمل للعالم أجمل حلوى.

كانت روث ويكفيلد تعمل محاضرة تغذية وقد حولت هي وزوجها منزلهما إلى فندق ومطعم.

فقد حدث أن نفدت من ويكفيلد المكسرات وهي تصنع كيكة الكوكيز. ولذلك، استبدلت المكسرات بقطعة من شوكولاتة المطبخ والتي قامت بتكسيرها إلى قطع صغيرة.

وأضافت قطع الشوكولاتة إلى عجينة الدقيق والزبدة والسكر البني. واكتشفت ويكفيلد أن الحلوى الجديدة رائعة المذاق وأن رواد الفندق تعلقوا بها.

وبدأت ويكفيلد في تقديم رقائق الكوكيز بالشوكولا أو كيكة الشيكولاتة للنزلاء والزبائن.

وسرعان ما اكتسبت هذه الرقائق شهرة واسعة بين المسافرين والنزلاء في الفندق، ثم انتقلت بعد ذلك إلى شتى أنحاء العالم.

67

الفشل في التحرك

هتلر وتشامبرلين و «الأوركسترا السوداء»

هذا الخطأ ربما يعد أخطر الفرص الضائعة في القرن العشرين. وقد حدث هذا الخطأ في أغسطس عام 1938 وتورط فيه رئيس وزراء بريطانيا نيفيل شامبرلين.

وبالطبع فإن كل من قرأ عن تاريخ الحرب العالمية الثانية قد سمع عن كيف أن التردد هو المسؤول عن تصاعد لهيب الحرب، وانتهى بغزو النازي هتلر لتشيكوسلوفاكيا في وقت لاحق من العام.

فقد حدث في أغسطس عام 1938 أن وصل إيوالد فون كليست شمينزن الحائز على جائزة نوبل والذي يحظى باحترام عالمي كبير إلى إنجلترا.

وكان شمينزن يمثل منظمة سرية في ألمانيا تعرف باسم «شوارتز كابل» أو «الأوركسترا السوداء».

وهذه المنظمة كانت تضم عددًا من أهم وأبرز القادة الألمان منهم الجنرال لودوينج بيك الذي كان رئيسًا للأركان في عام 1935 وأشرف على عملية تحديث الجيش الألماني.

وقد استقال بيك بعدما تأكد من أن هتلر في طريقه لجر ألمانيا إلى حرب كارثية.وهذه المجموعة التي كانت تتآمر للإطاحة بهتلر كانت تضم أيضًا الأدميرال كاناريس.

ووقف بجانب المعارضة ضد الحكم الاستبدادي المتزايد للنظام النازي وهتلر والسياسة الخارجية العدوانية.

ومن هنا أصبح بيك هو الرأس المدبر في المؤامرة ضد هتلر، وكان زعيم مؤامرة 20 يوليو للإطاحة بالنازي واستعادة الديمقراطية.

ولكن تشامبرلين رفض التعاون مع جماعة الأوركسترا السوداء ورفض طلب العالم الألماني الذي وصل لندن لإقناعه بدعمهم للإطاحة بالنازي.

ويتهم تشامبرلين عمومًا بخطيئتين قاتلتين. الأولى، أنه تصرف بشكل مخزٍ بالتضحية ببلد عاجز عن الدفاع عن نفسه، لصالح ديكتاتور قاس. والثانية، أنه باسترضاء هتلر جعل منه أكثر عدوانية وجعل نشوب حرب أكبر وأكثر دموية أمرًا لا مفر منه.

كان هدف تشامبرلين تجنب حرب عالمية. وكان ذلك هدفًا مشرفًا جدًا، بل كان في الحقيقة مقبولًا. فبريطانيا، على عكس فرنسا، لم يكن لديها أي معاهدة تترتب عليها التزامات مع تشيكوسلوفاكيا.

ولم تكن مضطرة لخوض الحرب، ولم تكن في وضع يمكنها من إنقاذ تشيكوسلوفاكيا. وتقبل تشامبرلين نتيجة بغيضة على أمل تجنب شر أكبر.

وفي النهاية أثبتت آماله في تجنب حرب عالمية أنها عديمة الجدوى. وبالنسبة لمعظم الناس يظل هذا الدرس الحقيقي لميونيخ: الاسترضاء عمل أحمق، فهو يؤدي فقط إلى إعطاء الجرأة للمعتدي.

وكانت أخطاء تشمبرلين هي إحدى أكبر مآسي القرن العشرين. فلو نجحت محاولة الإطاحة بهتلر لكانت ستنقذ حياة أربعة ملايين ألماني، ونحو مليون ونصف المليون جندي من الجيش الروسي، وأكثر من 100 ألف من الجنود الأمريكيين والبريطانيين الذين قتلوا بين تلك الفترة ونهاية الحرب العالمية الثانية في مايو 1945.

68

التعامل مع الشيطان

ستالين والضوء الأخضر

في شهر أغسطس عام 1939، ارتكب جوزيف ستالين خطأ انعكست آثاره السلبية بشدة ليس فقط على الاتحاد السوفييتي، وإنما بقية العالم أيضًا.

هذا الخطأ كان في 23 أغسطس عام 1939، عندما وقع الديكتاتور الشيوعي الأحمر بروتوكولًا سريًا مع النازي أدولف هتلر.وكانت هذه الوثيقة أو البروتوكول عبارة عن تحالف سياسي واضح بين روسيا وألمانيا.وتضمن البروتوكول التبادل التجاري والثقافي والتعاون العسكري أيضًا.

وهذا التحالف كان هدفه وهذا هو ما حدث هو تقسيم القارة الأوروبية فيما بين البلدين.

واتفق هتلر وستالين، خلال البروتوكول، على تقسيم العالم إلى قسمين، واحد يتبع النفوذ الألماني، والثاني تابع للنفوذ الروسي. وجاء في الوثيقة التي حملت اسم «مولوتوف ريبنتروب» وتاريخ 23 أغسطس 1939، أن كلا من فنلندا، وأستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، وأجزاء من بولندا ورومانيا ستخضع للنفوذ الروسي، أما الدنمارك، والنرويج، وهولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورج، وفرنسا، ويوغوسلافيا واليونان، وبقية بولندا ستخضع للنفوذ النازي.

وينُص هذا التحالف السري على أن يهاجم هتلر بولندا من الغرب وتهاجمها روسيا من الشرق وكل دولة تحتل أجزاء منها بمعنى احتلالها وتقسيمها فيما بينهما.

كما يضمن الاتفاق كما جاء في وثيقة البروتوكول السري أن تبارك روسيا بدء ألمانيا للحرب مقابل تقسيم الغنائم التي ستغلها ألمانيا معها.

من ناحية أخرى، سمح الاتفاق لألمانيا النازية بإرسال وحداتها العسكرية، ولاسيما الوحدات المدرعة، نحو

الغرب، من دون الخوف من هجوم سوفييتي في الشرق.

وهذه الوثيقة كانت داعمة لهتلر لبدء الحرب العالمية الثانية ومآسيها، قبل أن ينقلب السوفييت على هتلر الذي دفع في النهاية قواته لاحتلال أراضيها.

69

خط ماجينو

الخطأ القاتل

خط ماجينو هو الخط الدفاعي الذي بنته فرنسا كرد فعل للمذبحة التي راح ضحيتها مليون جندي فرنسي في الحرب العالمية الأولى.

قبل هذه الحرب، لم تكن العقلية العسكرية الفرنسية قد تغيرت منذ عهد الإمبراطور نابليون بونابرت ومفادها «إذا أردت أن تكسب المعركة عليك بالهجوم، وأن الشجاعة تتغلب على أي عدو وتضمن لك النصر».

وللحقيقة فإن هذه العقيدة العسكرية لم تنجح حتى مع نابليون في معركة الأمم أو في معركة ووترلو، ولكن فرنسا ظلت متمسكة بها.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى والخنادق.

فقد أثبتت عمليات الهجوم من خلال الأسلاك الشائكة ضد مدفعية حديثة ومدافع رشاشة فشلها وعدم جدواها بالإضافة إلى خسائرها الرهيبة في الأرواح. ولكن استغرق جنرالات الجيش الفرنسي عامين من الحرب العالمية الأولى كي يدركوا ذلك.

وبعد الحرب كان فشل عقيدة الفرنسيين العسكرية وما تبعها من خسائر فادحة سببا في أن يتجهوا إلى مسار مغاير بطريقة متطرفة أو مُغالٍ فيها.

فقد قرر قادة فرنسا العسكريون فيما بعد الحرب أنه إذا كان الهجوم الشامل كارثيًا فإن الدفاع الشامل هو الحل.

وكانت فرنسا ومنذ عهود طويلة متمرسة في بناء الحصون. ومن هنا جاءت فكرة إقامة خط دفاعي هو خط ماجينو.

فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار فرنسا عام 1918، بدأت الدراسات حول ما يجنب فرنسا أي

عدوان مرتقب، خاصة على الحدود الشمالية الشرقية مع ألمانيا، في منطقتي الألزاس واللورين.

وبعد دراسة الإستراتيجية الألمانية التي تبنت نظرية الحرب الخاطفة اتخذت فرنسا إستراتيجية دفاعية، اعتمدت على بناء خط من التحصينات القوية المستديمة «خط ماجينو». هذا الخط يكون قادرًا على وقف تقدم القوات الألمانية المهاجمة، ما يسهل قيام القوات الفرنسية المدافعة بتوجيه ضربات مضادة إليها وسحقها.

وقد أثر هذا الفكر الإستراتيجي الخاطئ على تنظيم القوات الفرنسية المدافعة عن خط ماجينو وتكوينها، وأدى إلى إهمال تطوير قواتها المدرعة والميكانيكية، والقوات الجوية وقوات الإبرار الجوي.

وقد ساعد على الاقتناع بهذه النظرية أن القيادة العليا الفرنسية، قد تأثرت لعدد القتلى والجرحى في الحرب العالمية الأولى من عام 1914 إلى 1918، وكان من نتائجها أن صار الرأي العام الفرنسي على درجة عالية

من الحساسية لفقد الأرواح، موقنة أنها إن تكررت فستكون النتيجة نهاية فرنسا.

وأصبح البرلمان الفرنسي أكثر قناعة للأخذ بالدفاعات المحصنة، التي توفر للجنود الفرنسيين الصمود والثبات.

ومع ذلك، فشل خط ماجينو في حماية فرنسا من الغزو الألماني في الحرب العالمية الثانية، إذ إن الخطة الألمانية لاجتياح فرنسا عام 1940 أخذت بالحسبان وجود هذا الخط، حيث وضع الألمان قوة شكلية في مقابل الخط لخداع الفرنسيين، بينما اندفعت قوات الألمان عبر البلدان الواطئة (هولندا وبلجيكا) وعبر غابة الأردين الواقعة شمال التحصينات الفرنسية الرئيسية.

وبذلك نجح الألمان في الولوج إلى فرنسا دون الاصطدام بشكل مباشر بخط ماجينو ومن هناك قاموا بمهاجمة الخط والسيطرة على فرنسا.

بدأ الهجوم الألماني في 10 مايو، وفي 14 يونيو 1940 كانت العاصمة الفرنسية باريس قد سقطت في أيدي النازيين.

واستمرت المعارك حول الخط حتى تم توقيع الاستسلام من قِبل الفرنسيين وأمر الجيش الفرنسي بمغادرة تحصيناته.

70

الهروب من الجحيم الألماني

معجزة نتجت عن خطأ

انسحاب دانكرك في الحرب العالمية الثانية، أو عملية دينامو هو انسحاب قامت به فلول القوات البريطانية المنهزمة في أوربا أمام القوات الألمانية خلال بدايات الحرب عام 1940 إذ انحصرت القوات البريطانية في منطقة ميناء دانكرك. وتطلب سحب هذه القوات التي كانت تربو على مائتين وخمسين ألف عملية لوجستية معقدة، بالإضافة للقطع البحرية البريطانية اشترك في هذه العملية كل مواطن يملك سفينة أو قاربًا حيث شكلت هذه الفلول النواة الصلبة التي حاربت على مختلف الجبهات خلال الحرب مما كان له بالغ الأثر على موازين الحرب وحتى يومنا الحاضر لا يزال الجدل دائرًا حول انسحاب دانكرك وأهميته من قبل بعض المؤرخين والمخططين العسكريين.

معركة دانكرك جرت على الحدود البلجيكية وحققت بريطانيا انتصارًا كبيرًا بإنقاذ 336 ألف جندي وإعادتهم أحياءً إلى الأراضي البريطانية.

وكان ضغط الألمان على قوات الحلفاء قد استمر في المحاصرة في الشمال، وفي يوم 28 مايو استسلم البلجيكيون بعد مقاومة كبيرة. ورأى رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، الذي استلم الحكم يوم 10 مايو 1940، أن الحل الأفضل هو إجلاء القوات حتى لا تتعرض للأسر، وكان أقصى ما يطمح له هو إخراج 20 ألف جندي.

فقد أمر هتلر قواته بالتوجه نحو باريس، بمقتضى خطط الغزو الأصلية وخلافا لنصائح بعض ضباطه، ما أدى إلى تطويق أكبر تجمع لقوات الحلفاء، والذي بلغ تعداده 380 ألف جندي، من قبل القوات الألمانية في دانكرك، وعلى مساحة بلغت 155 كيلومترًا مربعًا.

وبعد يومين أمر هتلر قواته بمهاجمة القوات المحاصرة في دانكرك. ولكن بدأ إجلاء القوات

المحاصرة في 26 مايو أيار، فيما عرف بإحدى عمليات الانسحاب الأكثر إثارة في التاريخ العسكري، حيث باشرت 861 سفينة وقاربًا إجلاء القوات، ليبلغ تعداد القوات التي تم نقلها إلى مكان آمن 225 ألف جندي بريطاني.

والتقط الحلفاء وهنا المصادفة المعجزة إشارة لا سلكية تخص مجموعة الجيوش التي يقودها رونتشتيت تقضي بإيقاف الهجوم، وهناك خلاف حول ما إذا كان هتلر أو رونتشتيت هو صاحب هذا الأمر، لكنه كان على أية حال الفرصة الذهبية للحلفاء لإنقاذ قواتهم، وبحلول الرابع من يونيو كانوا قد تمكنوا من إجلاء أكثر من 338 ألف جندي. لكن لم يكن جنود الجيش الفرنسي الأول لهم نفس الحظ حيث حوصروا في مدينة ليل.

71

الخطأ الذي غيَّر مسار

الحرب العالمية الثانية

في شهر أغسطس عام 1940 وقع خطأ ربما يكون قد غير مسار الحرب الحرب العالمية الثانية بأكملها، وربما لولاه لانتصر هتلر في هذه الحرب.

الخطأ ارتكبه قائد طائرة القيادة في سرب صغير من قاذفات القنابل طراز «هينكل» في الرابع والعشرين من أغسطس. كان السرب يحلق بالليل والرؤية شبه منعدمة والقصف في مثل هذه الأحوال من الصعب أن يكون دقيقًا.

وفي عام 1940 لم يكن بالطائرات جهاز تحديد المواقع أو أي وسيلة أخرى لكي يعرف الطيار أين هو بالضبط. وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة هي ببساطة اتباع المعالم الأرضية، وكان هذا أمرا ليس بالسهل في الليل.

وحتى في ضوء النهار كان الأمر صعبًا لضرب الأهداف بدقة بينما يتعرض الطيارون للمدفعية الأرضية وملاحقة طائرات العدو.

وفي الليل يمكن أن تنحرف الطائرة عن المسار المرسوم عشرات الأميال. لذلك فلم يكن من الغريب أن ينحرف سرب الهينكل وبدلا من التوجه لأهداف العدو يحلق فوق وسط لندن.

وقد حدث هذا في خضم «معركة بريطانيا» إحدى المعارك الشهيرة في الحرب العالمية الثانية.

وقد هدد الألمان بريطانيا في تلك الفترة وانتشرت سفنهم ومقاتلاتهم حول القنال الإنجليزي تمهيدًا لمهاجمة بريطانيا. وكان أمل البريطانيين في سلاح جوهم الملكي فبدونه لن يمكنهم أبدًا مواجهة النازيين.

وكان تكنيك الألمان يعتمد على إرسال قاذفات القنابل تحميها المقاتلات أثناء النهار، بينما ترسل قاذفات القنابل دون مقاتلات للحماية أثناء الليل.

وكانت الطائرات الألمانية لا تبدأ بالهجوم أثناء الليل بل تنتظر خروج المقاتلات البريطانية لتصعد إليها وتطلق نيرانها عليها، وكانت طائرة من طائرتين بريطانيتين تعود في كل ليلة، وقد دفعت هذه الخسائر رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل للإعراب عن غضبه من ذلك، وشكا من أن نقص الطيارين البريطانيين المقاتلين بسبب هذه الخسائر يصعِّب الأمر على بلاده في الحرب.

وتقرر أن تخرج الطائرات في تشكيلات. ولكن بدا وأن مقاتلات لوفتواف الألمانية على وشك أن تكسب ما عرفت فيما بعد بمعركة بريطانيا، وعرف الألمان أنهم سيفوزون.

وقبل يوم واحد من المعركة كانت مقاتلات الهينكل البريطانية تحلق فوق لندن، وكان المارشال الجوي الألماني هيلمان جورينج قد أمر المقاتلات الوفتواف بالاستمرار في التحليق ومطاردة المقاتلات البريطانية لإنهاك طياري القوات الجوية الملكية، وقد حدث هذا

بالفعل، وبدت عملية سيلوي لغزو بريطانيا أمرًا لا يمكن تفاديه.

وفي تلك اللحظات انحرفت مقاتلات الهينكل البريطانية عن مسارها تمامًا، ودخلت في قتال مع المقاتلات الألمانية الأخف والأسرع فتخلصت من حمولتها من القنابل وهي في الجو، ولم يعد بإمكانها العودة فهبطت في مطارات عسكرية فرنسية.

وهنا كان الخطأ حيث أسقطت الهينكل قنابلها لكي تتخلص من وزنها الثقيل على لندن ولحسن الحظ الخسائر كانت طفيفة ولكن الأثر كان عظيمًا، حيث شعر البريطانيون بأن الألمان خرقوا اتفاقهم معهم بعدم ضرب العاصمتين لندن وبرلين.

وصدرت الأوامر للطيارين البريطانيين بالانتقام من الألمان فأغاروا على قاعدة تيمبلوف الجوية الألمانية غرب برلين واشتركت في الهجوم 80 طائرة.

وكانت عمليات القصف الجوي دقيقة وسقطت القذائف ليس فقط على القاعدة ولكن على وسط برلين العاصمة.

وقد وضع ذلك جورينج قائد سلاح الجو الألماني في حرج بالغ أمام هتلر والشعب الألماني فتعهد بألا يروا المقاتلات البريطانية مرة أخرى.

وقد طلب منه هيملر أن يعلن هذا الوعد للشعب الألماني عبر الإذاعة عدة مرات، وكان هتلر في ثورة غضب إزاء الهجوم البريطاني.

وأمر النازي بعدم ضرب لندن وإنما التركيز على القواعد والمراكز الصناعية البريطانية، ولكن سلاح الجو البريطاني في معركة بريطانيا تلك استطاع التصدي، حيث أدرك هتلر أن غزو بريطانيا مستحيل فتراجع عن مخططه.

وهكذا، فما لم تكن مقاتلات الهينكل البريطانية قد أسقطت عن طريق الخطأ حمولتها من القنابل فوق

لندن في 24 أغسطس كان من الممكن أن يربح هتلر الحرب العالمية الثانية إذا تمكن من غزو بريطانيا واحتلالها.

72

و

73

عدم الاستعداد.. قوات هتلر

فريسة في العراء للجليد

يدلنا تاريخ الحروب التي شهدها العالم أن الإفراط في الثقة والغرور يمكن أن يقتلان، ومثل هذه الحالة تؤدي إلى إصدار أحكام خاطئة يمكن أن تقتل مئات الآلاف.

وإذا ما كان هناك شخص يشعر بمثل هذه الثقة المفرطة، ويحمل مثل هذا الغرور، أي تحرك بقوة دفع هذين الخطأين، فقد كان هذا الشخص هو النازي أدولف هتلر الذي اجتاح بولندا في عام 1939 واحتلها في أسابيع قليلة.

وفي عام 1940سقطت فرنسا في قبضة قواته التي احتلتها في غضون شهر واحد.

ثم جاءت «عملية باربروسا» أو «اللحية الحمراء» حيث غزت جيوش هتلر فيها روسيا.

وفي عام 1941، نظر هتلر إلى نفسه كعبقريٍّ وصدق نفسه وبدأ يتصرف على هذا النحو، فلم يقدر الآخرين حقهم، فيحتاط، ولم يكلف نفسه عناء التعمق في بحث الظروف والملابسات والصعاب التي يمكن أن يواجهها قبل أن يأمر قواته بالتحرك. وهذا هو الخطأ الجسيم الذي وقع فيها في عملية باربروسا متأثرًا بثقته المفرطة فلم يستعد للأسوأ.

وهكذا ففي صيف عام 1941، كانت القيادة الألمانية العليا (أدولف هتلر) قد اتخذت قرارها واعتمدت خطة عمليات نهائية لاجتياح الاتحاد السوفييتي.

هتلر كان يطمح إلى السيطرة على أوكرانيا في الجنوب ولينينجراد في الشمال وضرب الجيش الأحمر والتوغل نحو موسكو في الوسط.. غير أن هيئة أركانه كانت تدرك أن طموحات كهذه من الصعب تحقيقها بسهولة وسرعة كما هو مطلوب، خاصة على امتداد

جبهة واسعة بل عملاقة كما هو الحال.. وكان رأي المارشالات الألمان أنه لا بد أولا من ضرب الجيش الأحمر والقضاء عليه نهائيًا.. حتى يتمكن الفيرماخت من السيطرة على المناطق الحيوية المذكورة.

والمشكلة التي دائمًا ما تواجه كل قوة مسلحة تقوم بعملية اجتياح أو تحرير لأرض تتميز بمساحة شاسعة، وعمق إستراتيجي كبير، هي مشكلة الدعم والإمداد.. فأينما اتجهت فيالق المشاة والمدرعات، لا بد وأن تظل على اتصال بمراكز القيادة، ولا بد وأن تبقى خطوط الإمداد بالوقود والمؤن والذخيرة متصلة عبر هذا العمق.

وكلما توغلت القوات على الأرض لمسافات أطول زادت تكلفة وصعوبة الإمداد.

كما يزداد طول الشرايين التي تمد الأعضاء البعيدة عن القلب بالدم الجديد بصورة متواصلة.. وإذا انقطعت تلك الشرايين، فإن الأعضاء التي تعتمد عليها في

الحصول على الدماء تموت تدريجيًا، وهو بالضبط ما يحصل للقوات المسلحة على الأرض.

واستقر الرأي النهائي لوضع الخطة على الهجوم بثلاث مجموعات جيوش: مجموعة شمالية بقيادة فيلد مارشال فون ليب (وكان القائد العام للحملة) وجهتها الأساسية لينيجراد ومنطقة البلطي، ومجموعة جيوش جنوبية بقيادة فون روندشتد وتستهدف اختراق أوكرانيا والسيطرة على حوض الفولجا والمناطق القوقازية الغنية بالنفط والمواد الخام.ومجموعة جيوش الوسط بقيادة فون بوك وهي تستهدف سمولنسك ومن ورائها موسكو العاصمة.

وكانت القيادة الألمانية تستهدف التوغل شمالًا للقضاء على معقل البلشيفية السوفييتية، وجنوبًا للاستيلاء على منابع النفط وحرمان الاتحاد السوفييتي من مصادر الطاقة، وفي الوسط برأس حربة مدرعة تخترق الجيش الأحمر وتحول دون أي فرصة لانسحابه شرقًا إلى ما وراء جبال الأورال تمهيدًا للقضاء عليه نهائيًا..

وقد حشدت قوات المحور بقيادة ألمانيا لهذا الهجوم 5 ملايين جندي على جبهة بلغ طولها 2800 كلم.

واستخدم النازيون في الهجوم المباغت آلاف الدبابات والطائرات على عدة محاور، ووصفت المعركة بأنها أكبر عملية عسكرية عرفها التاريخ.

وكانت خسائر الجيش السوفييتي فادحة.

ويعزى السبب إلى تجاهل القادة السوفييت آنذاك للمعلومات الاستخباراتية عن نوايا ألمانيا بشن الهجوم.

كما أن التعليمات التي تلقاها الجيش السوفييتي بعدم الانجرار وراء استفزازات الألمان، وعدم القيام بأي ردود أفعال دون أوامر عسكرية، كانت سببًا في تعرض الجيش السوفييتي لخسائر ضخمة، كان من شأنها أن تمكن الألمان من التوغل في عمق الأراضي السوفييتية قبل أن يبدأ الهجوم المضاد.

وبالتالي مرت المعركة بالعديد من المحطات لعل من أهمها حصار مدينة لينينجراد، الذي استمر عامًا ونصف العام تقريبًا وخلف نحو 800 ألف قتيل.

ومعركة «ستالينجراد» هي الأكثر شراسة في التاريخ والتي خلفت مليونًا ونصف مليون قتيل وكانت هزيمة ألمانيا فيها مقدمة لهزائم لاحقة.

وكذلك معركة كورسك التي تعد من أكبر معارك الدبابات في التاريخ، وكان انتصار الجيش السوفييتي فيها منطلقًا لهجوم مضاد لم يتوقف إلا بالسيطرة على برلين في مايو عام 1945.

وبغض النظر عن ثقة هتلر المفرطة التي تسببت في النهاية في هزيمة قواته وتركها في العراء الروسي فريسة لاصطيادها من جانب السوفييت، وفريسة للجليد القاتل، فإن سوء تقديرات هتلر وغيره في القيادة العليا الألمانية جعلهم يتجاهلون أن الاتحاد السوفييتي لم يكن بأي حال من الأحوال بلدًا ضعيفًا.

74

تجاهل التحذيرات

فشل المخابرات

هناك أسئلة كثيرة تثور حول السبب الحقيقي وراء الكارثة التي وقعت في بيرل هاربر في السابع من ديسمبر عام 1941.

وكان السؤال الرئيسي في الثامن من ديسمبر صبيحة اليوم التالي للكارثة هو من ارتكب الخطأ ومن فشل في عمل ما طُلب منه.

وبعد أكثر من ستة عقود من الزمان وعشرات الكتب جاءت إجابات الأسئلة بسيطة ودقيقة وتفسر سر عدم تعامل الأمريكيين كما ينبغي لتفادي الهجوم الياباني الكاسح على قاعدة بيرل هاربر، والذي كان سببًا مباشرًا في دخول أمريكا بعد تردد طويل الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء الأوروبيين.

والخطأ الكارثي الذي أدى لكارثة بيرل هاربر هنا يتعلق بتجاهل أهمية توزيع المعلومات الاستخبارية في الوقت المناسب وللجهات المستفيدة في حينه.

فقد فشلت القوات الأمريكية في اتخاذ الإجراءات المناسبة للاستطلاع البحري والجوي، وحتى عندما التقطت الرادارات الأرضية الأمريكية الأهداف اليابانية الجوية المقتربة لم تعط لذلك الأهمية المناسبة وتم تحليل المعلومات بطريقة خاطئة، إضافة إلى ذلك فقد كان هناك قصور شديد في إجراء التأمين المناسب للطائرات والقطع البحرية في الميناء.

وأخيرًا كانت حالة الاسترخاء الكاملة للقوات الأمريكية في بيرل هاربر كانت أحد الأسباب الرئيسية التي لم تؤثر فقط على اكتشاف الهجوم الياباني في الوقت المناسب، ولكن لم تستطع أيضًا أن تواجه فعالياته حتى خلال موجة الهجوم الثانية التي جاءت بعدما يقرب من ساعة من موجة الهجوم الأولى.

ورغم أن القيادة الأمريكية العليا اتصلت بجميع القواعد التابعة لها في المحيط الهندي وأوصتها باتباع الحذر من أي هجمات معادية، ولكن نظرًا لقناعة الأميرال كيميل قائد بيرل هاربر باستحالة ضرب قاعدته من قبل اليابانيين بسبب ما اعتقده البعد الكبير من مصادر التهديد، فإنه لم يقم حتى بإيصال المعلومات إلى الوحدات المرؤوسة مما أدى إلى نجاح اليابانيين في مهاجمة الميناء وتحقيق عنصر المفاجأة.

وهكذا كان التأثير الصاعق للمفاجأة والخطأ في تقدير النوايا في آن واحد حيث كانت كل الشواهد والأدلة تؤكد لواشنطن أن اليابان بعد فشل المفاوضات قد أدرجت على جدول أعمالها سلسلة من العمليات الحربية للقضاء على القوة البحرية الأمريكية في المحيط الهادي وبخاصة بعد تعاظم نفوذ المؤسسة العسكرية اليابانية المتعطشة للحرب.

وكانت هذه الأهداف تتضمن احتلال جزيرة هونج كونج وماليزيا والفلبين وقصف القاعدة البحرية في بيرل هاربر بغية تدمير القوات الضخمة الموجودة بها،

ولكن وعلى الرغم من هذا فقد فشل الأمريكيون فشلًا ذريعًا في التوصل إلى تحديد تلك الأولويات التي كانت المؤسسات العسكرية اليابانية قد انتهت بالفعل من ترتيبها.

كانت خسارة الولايات المتحدة الأمريكية فادحة فقد نتج عن الغارة اليابانية تدمير البوارج الثماني وجميع الطرادات والمدمرات التي كانت ترسو بالقاعدة، والقواعد الجوية الست في الجزر المحيطة بما فيها من طائرات حيث ارتفعت أصوات الشعب الأمريكي تنادي بالثأر.

وتساءل الكثيرون ألم يكن بالإمكان اكتشاف نوايا اليابان وتجنب الكارثة، ألم يدرك القادة الأمريكيون أن العالم في حرب منذ ثلاث سنوات وأنه كان يجب عليهم اليقظة والحذر، وأعلنت بعدها الولايات المتحدة الحرب.

75

كيف هزم اليابانيون أنفسَهم

في بيرل هاربر!

لم يكن الهجوم المفاجئ للأسطول الإمبراطوري الياباني على قاعدة بيرل هاربر في السابع من ديسمبر عام 1941 فشلا استخباراتيًا وتكتيكيًا كارثيًا للولايات المتحدة، وإنما كان أيضًا أسوأ عمل إستراتيجي اتخذته اليابان في الحرب العالمية الثانية بكل المقاييس.

وحتى نفهم هذا علينا أن نسأل أنفسنا: لماذا ذهبت اليابان إلى الحرب ضد الولايات المتحدة، فلم يكن أحد يعتقد أن بمقدور اليابان أن تغزو أو تنتصر حربيًا على الولايات المتحدة الأغنى والأقوى. ولكن نية اليابانيين منذ البداية كانت تتلخص في شيء واحد هو إجبار الولايات المتحدة على إبرام اتفاق سلام مع اليابان وفق شروط طوكيو.

وتتمحور هذه الشروط حول ترك السيطرة على جنوب شرق آسيا وبعض جزر المحيط الهادي لليابان.

ولكن هنا ينبغي أن نتذكر أمرًا مهمًّا وهو أنه قبل الهجوم على بيرل هاربر لم تكن هناك حرب بين أمريكا واليابان.

كل ما هنالك أن أمريكا كانت تحتج عبر القنوات الدبلوماسية على تعامل اليابانيين مع الصين وقطعت البترول وأوقفت شحنات المعادن الأمريكية إلى اليابان، ولكن كل ذلك كان أبعد ما يكون عن إعلان للحرب.

وقد كان الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت يتوق لدخول بلاده الحرب ولكن في أوربا إلى جانب حلفاء أمريكا الأوروبيين ضد النازيين وليس دخول حرب في المحيط الهادي ضد اليابانيين، وكان يتحين الفرصة التي يحظى فيها بموافقة شعبه على دخول الحرب.

كانت أهم آثار هذا الهجوم الياباني المباشرة تخلي الولايات المتحدة عن موقف الحياد الذي كانت قد اتخذته منذ نشوب الحرب العالمية الثانية قبل ذلك بعامين.

ومن ثم ألقت بعد بيرل هاربر بكل ثقلها إلى جانب الحلفاء في القتال ضد جيوش المحور ومن بينها بالطبع اليابان.

ولا شك أن انضمام عجلة الحرب الأمريكية بكل ثقلها إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كان له أعظم الأثر في إعادة التوازن إلى جبهة الحلفاء التي تمكنت بعدها لا قبلها من الصمود لضربات الجيوش النازية الساحقة المتتالية، ثم اتخاذ موقف الهجوم الذي حقق النصر الكبير للحلفاء في النهاية، ولنا أن نطلق لخيالنا العنان لنتصور الموقف العسكري الخطير الذي كان على بريطانيا وحلفائها مواجهته إذا بقيت الولايات المتحدة الأمريكية على الحياد إذن لتغير وجه التاريخ.

76

محدودية التفكير

خيانة مزدوجة

في ديسمبر عام 1941، هاجم اليابانيون قاعدة بيرل هاربر الأمريكية، وبدأوا بذلك حربًا مع الولايات المتحدة. وكانت الحكمة من هذا القرار في واقع الحال محل شك كبير، ولكن الخطأ الذي ارتكبه النازي أدولف هتلر بعد أيام قليلة كان يعادل هذا الخطأ ويجعل العواقب وخيمة بدرجة لا يمكن تصورها.

كان هتلر يعيش سنة طيبة وكذلك الرايخ الثالث.فقد غزا الجيش النازي معظم أوربا، ولم تكن هناك نكسات عسكرية يمكن أن تؤثر على خططه.

وقد تمكن البريطانيون من صد الهجوم الجوي الألماني وبذلك تفادوا غزو بلادهم.

وفي إفريقيا تم وقف زحف هتلر نحو القاهرة وهو لم يكن بالأمر الذي يمكن أن يهز هتلر.

وقد استخدم هتلر اليابان لكي تهاجم صربيا لفتح جبهة جديدة أمام الروس الذي كان في حرب معهم كبدهم فيها مليونَيْ جندي واحتل أجزاءً من أراضيها.

وقد اقترح وزير خارجية ألمانيا على حلفاء بلاده في الحرب اليابانيين بالهجوم على صربيا الغنية بالثروات المعدنية.

وكان هتلر يريد السيطرة على صربيا وجعل الروس يعانون من جراء حرمانهم من هذه الدولة المهمة لهم استراتيجيًّا.

وعندما سمع هتلر عن بيرل هاربر، فأصبح يأمل أيضًا في أن يقوم حلفاؤه هو والطليان (اليابانيون) بعد ذلك بالحرب على روسيا.

ولكن ما لم يعرفه هتلر - آنذاك - هو أن اليابانيين كانوا يركزون جل اهتمامهم بمهاجمة الولايات المتحدة

وليس الروس في مجال اهتمامهم.

وجاء الأسوأ لهتلر وهو أن الروس بالفعل قد تم إبلاغهم بعزمه استخدام اليابانيين ضدهم بواسطة جاسوس لهم في العاصمة اليابانية طوكيو.

ولكن سارت الأمور عكس ما يرغب هتلر حيث عقد الروس واليابانيون معاهدة عدم اعتداء في أكتوبر عام 1941، وكان الخاسر من هذه المعاهدة بالطبع هتلر.

فقد توقع أن تهاجم اليابان روسيا، ثم وجد الأمريكيون بعد ذلك ينضمون إلى أوربا في حربها ضده ولم يرغب في رؤيتهم على أرض القارة الأوروبية.

وهكذا كانت توقعات هتلر غير قابلة للتحقيق، ولكنه بنى خططه عليها وبخيانة اليابانيين له بتوقيعهم المعاهدة مع روسيا، جعلوا ظهره مكشوفًا عسكريًا للروس، ثم كان ضربهم لبيرل هاربر سببًا في انضمام

الأمريكيين للحرب، وهو الأمر الذي يعني عمليًا خيانة يابانية مزدوجة.

وهنا ارتكب هتلر خطأً كبيرًا بمباركته ما فعله اليابانيون علانية ليجعل نفسه في وضع الشريك في المؤامرة على أمريكا.

ولهذا الخطأ حسم الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت أمره بمعاقبة اليابان فقط على هجومها، وأضاف إليها ألمانيا باعتبارها الشريك والمشجع والمحرض.

ومن هنا انضمت أمريكا لدول أوربا للتصدي لهتلر وهزيمته وهذا هو ما حدث بالفعل في النهاية.

77

عدم تعلم

دروس التاريخ

من غير الممكن بحث أخطاء اليابان في الحرب العالمية الثانية دون أن نذكر كيفية تجاهلها للتكتيكات البحرية الراسخة منذ 2500 سنة والتي دفعت ثمنها غاليًا. وهذه الأخطاء كان أفدحها الحرب بعيدًا عن مصادر الإمداد والتموين وحرمان الجيش منها.

وهذا هو سبب هزيمة إمبراطور الفرس في معركة سلاميس. ولكن اليابانيين لم يتعلموا الدرس.

ففي معركة سالاميس وهي معركة بحرية وقعت في عام 480 قبل الميلاد بين تحالف من المدن اليونانية القديمة والإمبراطورية الفارسية في إطار الحروب الفارسية اليونانية. وجرت المعركة بالقرب من بحر إيجه في مضيق سالاميس بين البر اليوناني وجزيرة

سالاميس، وهي جزيرة في خليج سارونيك بالقرب من أثينا.

وتمثل هذه المعركة القمة في تاريخ مرحلة الغزو الفارسي الثاني بقيادة الملك الفارسي أحشويروش الأول لبلاد الإغريق التي بدأت في عام 480 قبل الميلاد. وفيها تمكن الأثينيون وحلفاؤهم بقيادة ثيمستوكوليس من هزيمة الأسطول الفارسي الضخم الذي جاء لغزو بلادهم بأسطول صغير دون تأمين مصادر إمداده وهو البعيد عن حدود إمبراطوريته ومخازن غلاله وعتاده.

وبالرغم من التفوق العددى للجيش الفارسي، استطاع القائد الأثينى ثيمستوكوليس أن يقنع التحالف اليوناني باستدراج الأسطول الفارسي لمعركة جديدة، على أمل أن النصر في تلك المعركة سوف يمنع العمليات البحرية الفارسية لغزو إقليم البيلوبونيز. ولقد كان الملك الفارسي أحشويروش الأول أيضًا يتشوق إلى نصر حاسم على اليونانيين.

ونتيجة لحيلة محبوكة من القائد اليوناني ثيمستوكوليس نجح في دفع أسطول الفرس نحو مصيدة بحرية أعدها له الأسطول اليوناني، فأبحر الأسطول الفارسي إلى مضيق سالاميس حيث احتشدت السفن اليونانية في المياه الضيقة، وحاول سد مداخل المضيق ظنًّا منه أن اليونانيين يسعون للهروب.

كانت الأعداد الكبيرة لسفن الأسطول الفارسي في المضيق عائقًا مؤثرًا لحركة السفن وقدرتها على المناورة واتخاذ التشكيلات أثناء المعركة، فكانت السفن الفارسية تكافح من أجل المناورة في مساحة البحر الضيق وأصبحت غير منظمة. فقام الأسطول اليوناني باغتنام الفرصة، وتشكل في خط بحرى وحقق نصرًا حاسمًا على الأسطول الفارسي، وغرقت أو أسرت ما لا يقل عن 300 سفينة فارسية.

وعلى أثر تلك المعركة، انسحب زركسيز بجيوشه إلى آسيا وترك ماردونيوس لاستكمال غزو اليونان. ومع

ذلك، في العام التالي، تعرضت فلول الجيش الفارسي للهزيمة بشكل حاسم.

بعد ذلك لم يحاول الفرس غزو أراضي اليونان مرة أخرى. ولهذا فإن هذه المعارك في سالاميس وبلاتيا تعتبر نقطة تحول في مسار الحروب الفارسية اليونانية كلها. ومن ثم فصاعدًا، كانت اليونان هي التي تبادر بالهجوم.

وإذا كان الفُرس قد انتصروا في معركة سالاميس، كان ذلك سوف يقود نمو الحضارة اليونانية القديمة، والحضارة الغربية المعاصرة بالتبعية، وأدى هذا بهم إلى الادعاء بأن معركة سالاميس هي واحدة من أهم المعارك في تاريخ البشرية.

وفي الحرب العالمية الثانية ارتكبت اليابان نفس الخطأ عندما وضعت أسطولها الحربي بعيدًا عن مصادر تمويله، ولم تضع في اعتبارها احتمالات قيام الطائرات والغواصات الأمريكية بحظر وصول أية إمدادات للأسطول.

كانت منطقة المياه الضحلة «شوك لاجون» قاعدة رئيسية للقوات اليابانية أثناء الحرب العالمية الثانية لكن في عام 1944 أطلقت القوات الأمريكية هجومًا شرسًا قامت خلال اليومين اللذين استمر فيهما بقصف أكبر من 60 سفينة حربية يابانية لتنتهي في قعر المحيط.

والمنطقة التي تقع شمال شرق دولة «نيوغينيا» كانت بمثابة مرفأ طبيعي للسفن الكبيرة للأسطول الياباني.

وقد بدأ الهجوم في 17 فبراير 1944 واستمر لمدة يومين دمويين، وقد تضمنت حملة الهجوم الأمريكية 5 سفن حاملة و4 سفن خفيفة، كما كان يوجد 7 سفن حربية وغواصات ومدمرات وأكثر من 500 طائرة مقاتلة.

وقد نتج عن المعركة تدمير أكثر من 250 طائرة يابانية كان معظمها رابضًا على الأرض أو على حاملات السفن ولم تحصل على فرصة الإقلاع خاصة أنها

وصلت من اليابان في وقت قريب ولم تكن جاهزة للقتال.

وساهم الهجوم في إنهاء الخطر الذي كان يهدد عمليات قوات الحلفاء في منطقة وسط المحيط الهادئ، وتم ترك البقايا المحطمة في مكانها في قاع البحر.

78

كل الأخطاء مجتمِعة

وسقوط ياماماتو في ميدواي

غالبًا ما تعتبر معركة ميدواي، التي وقعت في مياه الباسيفيكي، نقطة تحول في مسار الحرب العالمية الثانية.

وقد تطلب الأمر ارتكاب اليابانيين عدة أخطاء أحدها سوء التخطيط من جانب قائدهم البحري العبقري إيسوروكو ياماماتو.

ولكن لم يكن هذا هو الخطيئة الكبرى التي غيرت طبيعة الأمور في مسرح العمليات بالباسيفيكي في عام 1942.

هذه الخطيئة الكبرى كانت من جانب القائد في مسرح المعركة.

فبعد أكثر من ستة أشهر من هجومهم على الأسطول الأمريكي في قاعدة بيرل هاربر كان الوقت عصيبًا على اليابان والبحرية اليابانية الإمبراطورية، حيث استسلمت قواتها في سنغافورة وبيتان حيث بدت القوات الأمريكية في طريقها للانتصار في الحرب.

وكانت اليابان في تلك الفترة تعيش فترة حداد وطني بعد إسقاط الأمريكيين قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكي، الأمر الذي جعل العسكرية اليابانية محل شك مواطنيها، مما أحرج القادة العسكريين لأول مرة في تاريخهم.

وكان الجنرال ياماماتو يمني النفس باستدراج الأمريكيين إلى معركة ميدواي وتدمير أسطولهم، كنوع من تحقيق نصر معنوي، يحفظ ماء الوجه.

وكان الهدف من عملية ميدواي، هو سحق الولايات المتحدة كقوة إستراتيجية في المحيط الهادئ، وإعطاء اليابان الحرية لكي تؤسس مجالًا مشتركًا أكبر في شرق آسيا.

وكان لدى اليابانيين الأمل بأن تُمنى الولايات المتحدة بهزيمة محبطة تُرغمهم على الاستسلام في حرب المحيط الهادئ.

وكانت خطة اليابانيين أن يغروا الطائرات الأمريكية بسحبهم إلى الفخ. وكان اليابانيون أيضًا يهدفون إلى احتلال جزيرة ميداوي كجزء من الخطة الشاملة لتحصين دفاعاتهم.

ولكن خطة ياماماتوا فشلت بسبب افتراضاته الخاطئة لقدرات الأمريكيين وتعلمهم الدرس في بيرل هاربر، وتجاهل تحسنهم لاستخباراتهم، حيث استطاعوا فك الشفرات اليابانية ومعرفة تاريخ وموقع الهجوم، مما جعل البحرية الأمريكية تجهز كمينًا لأسطوله.

وقد اختار ياماماتو ميدواي في أقصى الشمال الغربي من جزيرة هاواي متوقعا بأن الأمريكيين سيعتبرون مِيدواي موقعًا حيويًا بالنسبة إليهم وبالتالي سيندفعون للدفاع عنها ويقعون في الفخ.

ولكن الأميرال الأمريكي نيميتز كانت لديه ميزة لا تقدر بثمن وهي فك شفرة البحرية اليابانية، حيث كانت الولايات المتحدة تعترض رسائل مشفرة مفادها أنه سيكون هناك قريبًا عملية في الهدف «إي إف». وتمكن القائد جوزيف جي روكيفرت وفريقه في المحطة هايبو من التأكد من أن ميدواي هي هدف اليابانيين، وذلك بإيعازهم للقاعدة في ميدواي.

ونتيجة لذلك، دخل الأمريكيون المعركة ولديهم خلفية جيدة عن نقاط قوة اليابانيين وأماكن تواجدهم وحجم قوتهم. وعلم نيميتز بأن اليابانيين قد أهملوا أفضليتهم العددية بتقسيم ياماماتو - في سقطة كارثية - سفنهم إلى أربع مجموعات متباعدة بشكل كبير بحيث لا يمكن أي منها أن تساند الأخرى.

وطبقًا لحسابات نيميتز، فإن الطائرات الموجودة على متن ناقلاته الثلاث بالإضافة لتلك الموجودة على جزيرة ميدواي جعلت الولايات المتحدة في حالة تكافؤ مع ناقلات ياماموتو الأربع، يعود ذلك بشكل

رئيسي إلى أن فرق الطائرات الأمريكية كانت أكبر حجمًا من مثيلاتها اليابانية.

وعلى النقيض تمامًا كان «ياماماتو» في غفلة شبه تامة عن قوة وعتاد وتشكيلة خصمه القتالية الحقيقية، حتى بعد بدء المعركة التي لقي فيها اليابانيون أكبر هزيمة في تاريخهم البحري وخروجهم من قتال البحر.

79

الرجل الثاني

محنة هتلر

ماذا لو؟!..إذا كنت قائد أمة في حالة حرب ففي من تثق لكي يكون الرجل الثاني في القيادة؟

كانت أمام الزعيم النازي أدولف هتلر أثناء خوض الحرب العالمية الثانية قيادات كثيرة ولكنه اختار هيرمان جورينج الأب الروحي لجهاز البوليس السري «جيستابو»، وأحد أبرز مهندسي الجيوش الألمانية النازية ليكون وزير حربه وموضع ثقته وخليفته حال حدوث مكروه له.

وقد كلف هذا الخطأ هتلر الكثير، ولكن هذا الخطأ كان له فضل عظيم في مساعدة الحلفاء على إسقاط نظام النازي.

ورغم أن جورينج كان هو المسؤول في بداية الحرب العالمية الثانية عن الخسائر التي تكبدتها ألمانيا في محاولتها لإخضاع التاج البريطاني عن طريق الغارات الجوية الفاشلة التي أمر بها، مما ساعد على هبوط شعبيته في الأوساط الألمانية الشعبية.

ورغم ذلك كان هتلر يريده بشدة لهذا السبب، فقد كان النازي يخشى من شعبية قادة جيشه مثل الفيلد مارشال إروين روميل.

كان جورينج هو المسؤول عن الإبادة الجماعية للمدنيين فيما عُرف بخطة «الحل الأخير» الرامية لترحيل المدنيين ترحيلًا قسريًا إلى معسكرات العمل ومن ثم إبادتهم.

وقبل سقوط برلين وانتحار هتلر، اكتشف النازي خيانة الرجل الثاني في القيادة، والذي وثق به، وتأكد من أنه كان يفاوض الأمريكيين والبريطانيين من خلف ظهره، ولكن الوقت قد فات، وأصبح هو هدفًا لقوات الحلفاء، فكل ما فعله هو إصداره أمرًا يائسًا بتجريد جورينج

من رتبه العسكرية والإدارية واتهامه بالخيانة العظمى للتفاوض مع العدو بدون موافقة أو تشاور مسبق معه.

وكان جورينج لاحقًا قد استسلم للقوات الأمريكية في ٩ إبريل ١٩٤٥ في النمسا وبهذا يصبح جورينج أعلى رتبة نازية تمثل أمام محاكم نورمبرج، حيث دافع عن نفسه باستماتة أمام المحكمة إلا أنها حكمت عليه بالإعدام.

وفي ١٥ أكتوبر ١٩٤٥، انتحر بتجرع السم ومات قبل يوم واحد من تنفيذ حكم الإعدام فيه.

80

لا تراجع عن الأخطاء
هتلر وكارثة ستالينجراد

يمكن القول إن شتاء عام 1942 هو شتاء الروس.ففي الجليد والأجواء المتجمدة، احتجزوا النازيين بين جنبات الجليد ثم ردوهم على أعقابهم خائبي الرجاء.ولكن في ربيع عام 1943، أعد النازيون الذين هُزموا من قبل أمام الروس، ولكنهم كانوا لا يزالون أقوياء، أعدوا العدة لمعاودة غزو روسيا، وبعد محاولاتهم الفاشلة في موسكو ولينينجراد اتجهوا بأنظارهم صوب الجنوب الروسي.

فقد أدى صمود الجيش السوفييتي بعد استيعاب الضربة المفاجئة الأولى التي أدت إلى تحطيم القوات الجوية والبرية السوفييتية في يوم واحد من عملية «بربروسا»، إلى فشل الهجوم الألماني على موسكو في نهاية عام 1942، بعد ما كان الألمان يقدرون أن احتلال العاصمة السوفييتية سيتم خلال فترة لا تزيد

على أربعة أشهر، حيث حدث استقرار نسبي على الجبهة السوفييتية الألمانية في شتاء عام 1941، وتخلى هتلر عن محاولة الاستيلاء على موسكو، وخاصة بعد أن اختفى طابع المفاجأة عن الهجوم.

فقد توصل هتلر إلى استنتاج مؤداه أن هجومًا آخر على موسكو لا يمكن أن يفاجِئ القيادة السوفييتية. لذلك بدأت القيادة الألمانية في التخطيط لشن هجمات في اتجاهات أخرى.

ومن أهم تلك الاتجاهات كان جنوب الاتحاد السوفييتي حيث كان الجيش الألماني يتوخى فرض السيطرة على حقول النفط القوقازية في منطقتي باكو وحروزني وكذلك على نهر الفولجا بصفته طريقًا رئيسيًّا تمر به المواصلات بين القسم الأوروبي للبلاد ومنطقتي القوقاز وآسيا الوسطى.

ولو نجح الألمان في تنفيذ خططهم هذه، لكان بوسعهم توجيه ضربة موجعة إلى الاقتصاد السوفييتي والآلة العسكرية السوفييتية.

أما القيادة السوفييتية، التي ارتفعت معنوياتها بعد نجاحاتها في معركة موسكو.فقد حاولت انتزاع المبادرة الاستراتيجية من أيدي الألمان في مايو عام 1942 فحشدت قواتٍ كبيرة في منطقة مدينة خاركوف الأوكرانية، أي في الموقع ذاته الذي اعتزم فيه الألمان شن الهجوم في اتجاه نهر الفولجا والقوقاز.

لكن الألمان تمكنوا من محاصرة القوات السوفييتية المهاجمة، الأمر الذي تسبب في أسر ما يزيد على 200 ألف جندي سوفييتي وفتح جبهة جنوبي مدينة فورونيج وتوجهت نحوها جحافل القوات الألمانية واحتلت مدينة روستوف التي تعتبر مفتاحًا لجبال القوقاز.

ثم أمر هتلر قواته بالانقسام إلى قسمين: قسم يواصل الهجوم صوب القوقاز. أما القسم الثاني الذي يتضمن الجيش السادس بقيادة المارشال باولوس وجيش الدبابات الرابع بقيادة الجنرال جوت، فأوكل بهذا

القسم مهمة التوجه نحو الشرق بهدف الاستيلاء على مدينة ستالينجراد.

كانت مدينة ستالينجراد تعد أقصى مدى بلغه الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي إبان الحرب العالمية الثانية، لقد كان حصار المدينة والدفاع عنها ثم انتزاعها من أيدي الألمان نقطة تحول تاريخية في تلك الحرب الطاحنة. فعلى حدود تلك المدينة استنفد الألمان كل طاقات اندفاعهم وتقدمهم، وكان ذلك إلى غير رجعة.

ومن تلك النقطة انتقلت القوات السوفييتية من الدفاع إلى الهجوم على طول الجبهة الممتدة إلى الجنوب من لينينجراد، ومنها أظهر الجيش السوفييتي تفوقه في العمليات الهجومية بمثل ما أظهر من براعة في العمليات الدفاعية العميقة.

وتعتبر ستالينجراد من أهم مدن روسيا الصناعية. فهي تقع على بعد أربعين ميلا شرق منحنى نهر الدون، وتمتد نحو عشرين ميلا على ضفة نهر الفولجا.

وزحفت الجحافل العسكرية الألمانية صوب تلك المدينة التي اشتهرت بمصانع الدبابات والجرارات.

استمر حصار الألمان لمدينة ستالينجراد 66 يومًا. واستخدموا لذلك الغرض الجيش السادس الألماني المكون من 22 فرقة عسكرية، كما استخدموا جميع أنواع الأسلحة من طائرات ودبابات ومدافع الهاوتزر ومدافع الهاون، واقتحم مشاة الألمان أغلب أجزاء المدينة، واستمر القتال على مدى شهرين واشتد إلى أقصى درجة من العنف والضراوة.

وإذا كان الألمان قد احتلوا في البداية مسافة نحو أربعة أميال من الضفة الغربية لنهر الفولجا، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخراج القوات السوفييتية من المدينة أو إبعادها إلى ما وراء نهر الفولجا.

وصدرت الأوامر لقوات الجيش الثاني والستين السوفييتي تحت قيادة الجنرال تشويكوف أن يتشبث بالدفاع عن المدينة، ومن ثم دافعت الوحدات السوفييتية عن كل شارع وكل مصنع وتشبثت

بمواقعها الدفاعية خلف الجدران ووراء أنقاض المباني وفي الحفر الناجمة عن القنابل، وتحولت ستالينجراد إلى أنقاض وكتل من الحديد وأكوام من الحجارة، ولكنها رغم ذلك أبت الاستسلام ومع ذلك، فإن الضربات الرئيسية لتحرير المدينة جاءت من خارجها، وكانت على هيئة هجوم أعده المارشال جوكوف لمحاصرة القوات الألمانية في داخل المدينة.

كما قام الجيش الأحمر السوفييتي بحصار مزدوج سمي ب «المنجل والمطرقة» لإحكام الطوقِ على الجيش الألماني، فجاءت الضربات الأولى من الشمال، ثم جاءت عملية الاختراق من الجنوب.

أما في الشمال فقد تمكن الجيش السوفييتي من القضاء على ثلاث فرق من الجنود الإيطاليين والمجريين خلال تقدمه السريع صوب الجنوب الغربي عبر نهر الدون.

وأطبقت التشكيلات السوفييتية على هذه الفرق من جميع الجهات. فسدت أمام الألمان كل طرق

الانسحاب، وبذلك تمت محاصرة الجيوش الألمانية حصارًا محكمًا.

ووجهت القوات السوفييتية ضرباتها القاضية من الغرب صوب نهر الفولجا، وشطرت القوات الألمانية شطرين، لتنهار بالكامل.

وكانت هذه المعركة التي بدت فيها أخطاء هتلر كارثية فاصلة في التاريخ، حيث عجلت بهزيمة النازية.

وكانت نقطة تحول تاريخي في مجرى الحرب العالمية الثانية، إذ أخذ الجيش السوفييتي في الاندفاع بعد ذلك صوب الغرب حتى طرد الألمان من جميع الأراضي السوفييتية، وتتبع تقهقره السريع في شرق أوربا حتى سقوط برلين عاصمة الرايخ الثالث على يد الجيش الأحمر السوفييتي، وتم استسلام ألمانيا النازية بدون قيد ولا شرط.

81

التردد في اتخاذ ما يلزم

روسيا تدفع الثمن غاليًا

في بداية الهجوم الألماني على روسيا تكبدت موسكو خسائر فادحة بسبب الأخطاء التي ارتكبها قادة جيوشها عندما تنازعوا حول جدوى تحديث دباباتهم لمواجهة الهجوم الألماني الذي يمكن أن يتعرضوا له.

وانتهى الأمر بأن فضَّل القادة الحرب بما لديهم في عملية إفراط عجيب للثقة بدلا من الأخذ بعين الاعتبار تفوق الألمان من ناحية دباباتهم.

فالدبابات السوفييتية لم تكن حديثة وافتقرت للصيانة وكان يقودها أطقم أقل قدرة من نظيراتها الألمانية مما كبد الروس خسائر كبيرة في مراحل الحرب الأولى.

فقد تعرض الجيش الأحمر وسلاح الجو السوفييتي لهزائم كبيرة في عام 1941 لأسباب عدة أهمها عدم جهوزيته للهجوم المفاجئ الذي قامت به قوات المحور والتي كانت حينها أكثر الجيوش خبرة في العالم وأفضلها تدريبًا وامتلاكهم لعقيدة قوية واتصالات ممتازة بين القوات وثقة بالنفس جاءت بعد تحقيق عدة انتصارات وبخسائر قليلة بينما افتقرت القوات السوفييتية إلى القيادة والخبرة والتدريب واعتقادهم الخاطئ أنه لن يكون هناك حرب قبل عام 1942.

كما أن الأخطاء التكتيكية التي ارتكبها السوفييت في الأسابيع الأولى من الهجوم الألماني عليهم كانت كارثية، إذ كان الجيش الأحمر مخدوعًا بثقته بقدراته القتالية فعوضًا عن اعتراض دروع الألمان وصد الهجوم وقعت الفيالق السوفييتية في كمين قوات المحور وتم تدميرها بعد أن دكها الوقتقاف وألحق بها خسائر ثقيلة.

ففي السادس من يوليو عام 1941، قام السوفييت بهجوم من 700 دبابة على جيش البانزر الثالث

الألماني، إلا أن الألمان سحقوا هذا الهجوم بفضل تفوقهم الجوي الكبير فوق الأراضي السوفييتية.

عبر جيش البانزر الثاني نهر الدنيبر وقام بالإغلاق على مدينة سمولينسك من الجنوب، بينما قام جيش البانزر الثالث بعد سحق الهجوم السوفييتي بالإغلاق على المدينة من الشمال.

وعلق بين فكي هذه الكماشة 3 جيوش سوفييتية وفي 26 من يوليو قامت مجموعات البانزر بتضييق فكي الكماشة وأسرت 180ألفًا من جنود الجيش الأحمر.

82

الرأي يغلب الواقعية

ثمن تجاهل واقعية روميل

أدرك القائد الألماني الشهير الفيلد مارشال إروين روميل أن عليه إيقاف الحلفاء على الشاطئ عندما قاموا بغزو فرنسا التي كان الألمان يحتلونها أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان السبب في ذلك تفوق البريطانيين والأمريكيين الجوي.

وكان روميل قد رأى أثناء قتال الحلفاء في شمال إفريقيا كم الخسائر التي يمكن أن تسببها المقاتلات الجوية لأي طابور دبابات على الأرض.

وأدرك روميل أنه لو استطاع الحلفاء أن يجدوا موطئ قدم على الشاطئ الفرنسي فسوف يتقدمون بقوة داخل عمق فرنسا المحتلة بمساندة سلاح الجو البريطاني والأمريكي.

والحقيقة أن التاريخ يدلنا على أن روميل كان واقعيًا فيما توصل إليه هنا. وكان موقف روميل واقعيًا.

وقد رأى أنه سيكون في حاجة إلى ضخ أموال كبيرة ومزيد من القوات والدبابات والمدفعية إذا أراد ردع أي محاولة من جانب قوات الحلفاء لاجتياح الشواطئ الفرنسية.

ولكن القادة الألمان الآخرين لم يشاطروا روميل رأيه، ولم ينضموا إليه في موقفه الذي يعتمد على منع نزول الحلفاء أصلا للساحل الفرنسي.

ومن هؤلاء الفيلد مارشال جيرد فون رونستيد الذي رأى أن الألمان يجب أن يسمحوا لسفن الحلفاء بدخول السواحل الفرنسية ثم تدمير قواتهم عن آخرها من خلال المدفعية الأرضية والبحرية.

عام 1944، عرف النازيون أن هجوم الحلفاء أمر حتمى، ولكنهم لم يعرفوا موعده أو مكان انطلاقه،

كانوا يعتقدون أن الهجوم سيتم من أضيق منطقة في القنال على ساحل مدينة كالي.

نتيجة لذلك تركزت أقوى قواتهم هناك، أما الهدف الفعلى فكان من أفضل ما حفظ من أسرار الحرب، إذ كان الهجوم سيكون على طول 50 ميلًا من شاطئ مقاطعة نورماندى، حيث يندفع بقوة غرب نهر الأورن إلى شاطئ في شبه جزيرة كوكونتا الذي يشرف عليها مرفأ شربورج الحيوى.

في تلك الفترة تراجعت القوة العظيمة للقوات الجوية النازية اللوفتواف.

وانتصر هذا الرأي على واقعية روميل وهذا هو الخطأ القاتل الذي كلف الألمان خسارة الحرب العالمية الثانية.

فقد ارتاح قادة الألمان المعارضون لواقعية روميل لوضع الألمان العوائق والتحصينات والأسمنت المسلح وزرعوا ملايين الألغام على طول الساحل وتعزيز

«حائط الأطلسي» الجدار الذي شيدوه على الساحل الفرنسي بناء على أمر هتلر الذي انحاز لرأي جنرالاته ورفض العمل وفق ما طالب به روميل، وقام روميل بنشر ثلاثة جيوش على الشاطئ ووضعت هذه الجيوش تحت قيادة ثعلب الصحراء روميل.

وبالفعل، بدأ إنزال قوات الحلفاء في السادس من يونيو على سواحل نورماندي، حيث تقدم أكبر حشد عسكري في التاريخ إلى الشواطئ الفرنسية.

ورغم أن القوات الألمانية أبدت شراسة غير معهودة في القتال، إلا أن تجاهل واقعية روميل وتفكير القادة الألمان في تدمير قوة الحلفاء بعد دخول السواحل الفرنسية مستغلين وجودهم على الأرض كجيش احتلال لفرنسا كلفهم الثمن غاليًا.

وتعد هذه المعركة بداية الزحف نحو أوربا وتحريرها من القوات الألمانية وكانت نقطة البدء في فرنسا ثم هولندا وبلجيكا وصولا إلى احتلال قلب ألمانيا برلين.

وصحت واقعية روميل وتوقعاته التي لم تجد آذانًا مصغية في برلين من أن خسارة المواجهة الأولى مع الحلفاء ستفتح القارة الأوروبية أمام الغزو وهذا ما حصل بالفعل.

فبعد ثلاث ساعات من بدء الهجوم ضمن الحلفاء موقع قدم لهم على الشاطئ، وأذيع أول إعلان عن ذلك من لندن. تدفقت الإمدادات والجنود والعتاد إلى الشاطئ بكميات كبيرة، وخلال 12 يومًا تدفق إلى الشاطئ ما يزيد على 600 ألف جندى وأكثر من 90000 عربة مدرعة استعدادًا للهجوم العنيف على الألمان داخل فرنسا.

وكان الألمان عاجزين عن حشد القوات اللازمة لشن هجوم مضاد شامل بسبب القصف العنيف والمركز من قبل الحلفاء.

وفي يوم الإنزال في نورماندي، كان هناك مائة وسبع وخمسون فرقة ألمانية تتواجد على الجبهة الشرقية وست فرق في فنلندا واثنتا عشرة فرقة في النرويج

وست فرق أخرى في الدنمارك وإحدى وعشرون فرقة في البلقان وست وعشرون فرقة في إيطاليا وتسع وخمسون فرقة في فرنسا وبلجيكا وهولندا إضافة إلى تسع فرق في ألمانيا.

العقبة في طريق الحلفاء كانت القنال الإنجليزي والذي عرقل عبوره الأرمادا الإسبانية وبحرية نابليون إلى جانب الجدار الأطلسي الذي أمر هتلر ببنائه وكان رومل قد عزز من قوة الجدار بحشود من الدبابات، ولكن إجراءات رومل الدفاعية كانت معرضة للمخاطر بسبب الجدال حول عقيدة دور الدروع في المعركة القادمة. وكان إلى جانب مجموعتي الجيوش تحت قيادة روميل كانت مجموعة قيادات البانزر الغربية تقع تحت قيادة فون روندشتايت.

وهذا التشكيل كان من الناحية الإدارية، وأعيدت تسميته لاحقًا بالجيش الخامس المدرع وسحب إلى نورماندي. وكان هناك خلاف بين رومل والجنرال فون شويبنبيرج الذي كان يعمل تحت قيادة فون

روندشتايت حول كيفية نشر واستخدام الفرق المدرعة.

كان رومل يدرك بأن الحلفاء سيمتلكون تفوقًا جويًا وسيتمكنون من إلحاق أضرار كبيرة بتحركاته من الجو.

لذا اقترح نشر الفرق المدرعة قريبًا من الشواطئ. وكان يقول بأنه من الأفضل أن تكون هناك فرقة مدرعة واحدة لمواجهة الغزو في اليوم الأول بدلًا من ثلاث فرق مدرعة في اليوم الثالث، حيث يكون الحلفاء قد انتهوا من بناء جسر عبور ثابت.

أما الجنرال شويبنبيرج فكان يفضل حشد الفرقة المدرعة بين باريس والرون، وفي النهاية وضعت الخطتان أمام هتلر ليقرر أيهما أفضل، فأصدر قرارًا بوضع ثلاث فرق مدرعة تحت تصرف رومل، وهي أقل بكثير لتغطية المناطق المهددة أما البقية فقد اعتبرت من ضمن الاحتياط.

كانت عملية الإنزال في نورماندي هي أول عملية ناجحة عبر القنال الإنجليزي منذ ثمانية قرون وكانت مكلفة في الخسائر البشرية ولكن الهزيمة التي أُلحقت بألمانيا كانت الأكبر منذ بدء الحرب وإستراتيجيًّا أدت الحملة إلى فقدان ألمانيا موقعها في معظم فرنسا وأمنت قيام جبهة رئيسية جديدة. وبالمغزى العام فإن إنزال نورماندي ساعد السوفييت في الجبهة الشرقية والتي كانت تواجه الكتلة الرئيسية من القوات الألمانية، وهو إلى حد ما ساهم في تقليص فترة الحرب على هذه الجبهة.

وكان الحلفاء يمتلكون تفوقًا واضحًا على الجيوش الألمانية. فعلى صعيد القوات كان هناك تفوق بنسبة 7 إلى 2، وفي مجال الدروع 4 إلى 1، كما أن أجهزة استخبارات الحلفاء لعبت دورًا كبيرًا في تركيز انتباه القادة الألمان على كاليه، حيث احتفظوا فيها وبعيدًا عن نورماندي بخيرة القوات.

كما لعب السلاح الجوي التابع للحلفاء دورًا كبيرًا في إنجاح الغزو من خلال الدعم التكتيكي وضرب خطوط

التموين الألمانية، فكان يمنع التحركات في أوقاتها المحددة سواء كانت بهدف التجهيز أو الإمدادات، وبصورة خاصة إلحاق أضرار كبيرة بفرق البانزر وتعطيل دور سلاح الجو الألماني في «نورماندي».

83

الاستعلاء سر الهزيمة

عقدة التفوق العِرقي للألمان واليابانيين

يمكنك الحديث مطولا عن الأخطاء التي ارتكبها اليابانيون والألمان في ميادين القتال، والتي كلفتهما خسارة الحرب العالمية الثانية.

ومن خلال رؤية إستراتيجية فإن كلتا الدولتين وقعت تحت تأثير وهم التفوق. فقد خسرت اليابان الحرب لأنها لم تستطع منافسة القوة الصناعية الهائلة للولايات المتحدة.

وبغض النظر عن الطريقة التي خاض بها اليابانيون القتال.فقد أَسقطت من حسبانها أن دولة كأمريكا تضخ لأسطولها حاملة طائرات جديدة كل شهر في تلك الحقبة.

كما كانت بريطانيا تتمتع بتفوق من حيث سلاح الجو، وروسيا أيضًا كانت متفوقة من حيث القوات والمعدات، وهذا لم يكن في صالح دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان).

ومشكلة اليابانيين والألمان الأساسية، أو الخطأ الذي هزم الدولتين هو السقوط فريسة للشعور بالتفوق العرقي.

فعند انتخاب هتلر في عام 1933، ثم انقلابه على الديمقراطية، وتحويله النظام السياسي الألماني إلى ديكتاتورية صريحة، تبنى هتلر عقيدته النازية التي فرضها بقوة القمع، وأظهر آراء عنصرية شديدة التطرف عن سمو الجنس الآري على غيره من الأجناس. وأخطر من ذلك نظرية دونية الشعوب الأخرى باعتبارها متخلفة وبدائية إذا ما قورنت بالسمو الألماني والعبقرية الآرية!

كما تأثر «هتلر» الغارق في أحلام العظمة بفكرة الصراع بين الأجناس مقتنعًا بأن البقاء للأصلح، حتى

إنه طالب بإبادة الضعفاء حتى يكون المجتمع أصح وأفضل وأقوى مما هو عليه، وأيضًا طالب بإعدام السلالات الضعيفة من البشر واستيلاد سلالات قوية.

وعرفت فترة حكم هتلر لألمانيا بعهد «الرايخ الثالث»، وأتاحت الفرصة لبث معتقداته بين الألمان بما يشبه غسل الأدمغة.

وقد قاد حزبه حملة مركزة هدفها إقناع كل الناطقين بالألمانية بتكوين عرق آري متفوق على سواه.

وكانت خطة هتلر أن يخلي بلاده من كل الأجناس الأخرى. وقد سمَّى خطته «الحل الأخير».

وبدأت الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت ألمانيا الأراضي البولندية 1939 كمقدمة لتوحيد كافة الناطقين بالألمانية.

وقد أدت الظروف والأوضاع الدولية آنذاك إلى تحالف إيطاليا واليابان مع ألمانيا، مقابل التحالف الفرنسي الأمريكي البريطاني السوفييتي، ما أدى إلى نهاية

الحرب بهزيمة قاسية لهتلر وحلفائه بعد خمس سنوات من القتال الذي راح ضحيته ملايين البشر.

وبالنسبة لليابان، ساهمت النزعة القومية اليابانية إلى حد التطرف، ، والتي تعتبر الإمبراطور الياباني سليلًا لآلهة الشمس، في استعلاء اليابانيين على الشعوب الأخرى، واندفاعهم خارج حدودهم ثم احتلال واستغلال الدول الآسيوية الأخرى.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وتجاهل اليابانيون القوة الأمريكية وتعاملوا باستعلاء معها، واعتدوا على أراضيها، مما جعل الولايات المتحدة تستخدم لأول مرة السلاح الذري ضدها.

84

الخضوع للابتزاز..

ستالين - تشرشل - روزفلت

أثناء مؤتمر يالطا، كانت الحرب العالمية الثانية تقريبًا انتهت. وبحلول فبراير عام 1945، كان آخر ما فعله الألمان المنهزمون هو شن هجوم مفاجئ على أردينز ولكنه فشل.ولم يكن هناك من فرصة للألمان لكي يشنوا أي هجمات مضادة أخرى. وكان الزعماء الثلاثة الرئيسان الأمريكي والسوفييتي فرانكلين روزفلت وجوزيف ستالين ورئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل الذين اجتمعوا في يالطا يعرفون ذلك.

وكانت المناقشات والاتفاقات في هذا الاجتماع تتركز أكثر على شكل أوربا فيما بعد الحرب وليس على مجريات الحرب التي انتهت لتوها.

وكان هناك أمران محل اتفاق في يالطا أحدهما إنشاء الأمم المتحدة والآخر من سيحتل أي أجزاء من ألمانيا

ومصير بقية أوربا المحتلة.

وكانت بولندا تحت سيطرة الروس الذين لم يدخروا جهدًا على مدى عشرات السنين لاحتلالها والسيطرة عليها وبودهم لو ظلوا فيها للأبد.

وكانت هناك تفصيلات كثيرة، ولكن ستالين وافق على أن تشكل دول أوربا الشرقية حكوماتها المنتخبة خلال عام.

ويدلنا التاريخ على أن الديكتاتور السوفييتي لم تكن لديه النية للحفاظ على كلمته، أو السماح بأي انتخابات حرة في هذه الدول.

وطلبت الولايات المتحدة موافقة ستالين على دعم مهاجمتها اليابان ووافق بالفعل. على دخول الحرب ضد اليابان لاستعادة سيطرته على جزر الكوريل، والنصف الجنوبي لجزيرة سخالين.

وعشية انعقاد مؤتمر يالطا هو رجحان كفة الحلفاء العسكرية وذلك بعد انضمام الاتحاد السوفييتي

والولايات المتحدة الأمريكية إلى بريطانيا في مواجهة دول المحور، حيث كان الاتحاد السوفييتي قد دخل الحرب عمليًّا مع اجتياح القوات الألمانية لأراضيه فجر يوم الأحد الواقع في 22 يونيو 1941، فيما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بعد إقدام الأسطول الياباني في 7 ديسمبر من عام 1941 على تدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر.

وقد أدت هذه الأحداث إلى توقف انتصارات دول المحور منذ عام 1942، وذلك بعد أن توقف الزحف الألماني في الشرق على إثر معركة ستالينجراد في ديسمبر من عام 1942، وبعد معركة العلمين التي أوقفت زحف رومل نحو مصر في 23 أكتوبر من عام 1942، وبعد تدمير الأسطول الياباني في بحر المرجان في صيف عام 1942 الذي أوقف الزحف الياباني نحو الهند.

وبعد استسلام إيطاليا بتاريخ 3 سبتمبر 1943 نزل الحلفاء في منطقة النورماندي بتاريخ 6 يونيو 1944،

وفي منطقة البروفانس بتاريخ 15 أغسطس من العام نفسه، وهو ما كان فعليًا بداية النهاية لمعسكر المحور.

كان الوضع السياسي الدولي في الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر مضطربًا والعالم منقسمًا إلى معسكرين: الحلفاء والمحور، علمًا أن كثيرًا من دول العالم كانت قد سيقت إلى هذه الحرب رغمًا عن إرادتها وبفعل احتلالها من قبل الدول الكبرى الأطراف الرئيسية في هذه الحرب.

ولم تكن العلاقاتُ بين الحلفاء أنفسهم أكثر استقرارًا، إذ كانت تشوبها الكثير من الخلافات بسبب أزمة الثقة بين الدول الليبرالية والدولة الشيوعية، وهو ما ظهر جليًّا من خلال عدم الاتفاق على الكثير من القضايا المهمة والمصيرية، ومنها المدة الزمنية التي ينبغي أن تستمرها الحرب، وأيضًا مصير ألمانيا بعد الحرب، فضلًا عن الخلافات حول آلية إنشاء منظمة الأمم المتحدة وكيفيتها.

وفيما بين شهر فبراير ونهاية شهر إبريل، اندفعت جيوش الحلفاء إلى قلب ألمانيا. وبنهاية إبريل كان السؤال هو: مَن سيحتل برلين من قوات الحلفاء. وتم التوصل إلى أن تتولى روسيا برلين الشرقية والغرب الشطر الغربي منها.

وكان هذا خطأ كارثيًا من جانب الحلفاء الغربيين الذين لا تخفى عليهم أطماع ستالين، ولم يهتموا بأن تسيطر روسيا على شرق أوربا وتفرض عليها الشيوعية.

ومن ثم اندلعت «الحرب الباردة» مباشرة بعد النصر في الحرب العالمية الثانية بين المعسكرين الوليدين شرقي تتزعمه موسكو وغربي بزعامة واشنطن، والتي أدت إلى تقسيم أوربا.

85

قدرات هائلة..

ولغة خطاب ضعيفة!

الكلمات هي أداة الدبلوماسيين. ومن المنطقي أن نفترض أن تمت تنشئته ليكون دبلوماسيًّا كبيرًا للولايات المتحدة يعني دائما ما يقوله.

لذلك، فعندما قام الزعيم السوفييتي جوزيف ستالين والرئيس الكوري الشمالي كيم إيل سونج بغزو كوريا الجنوبية شعرا بالصدمة والغرابة لرد فعل الأمم المتحدة والولايات المتحدة.

والحقيقة كان لدى كل منهما الحق في هذا لأنهما حصلا على تصريح من الولايات المتحدة بالهجوم على كوريا الجنوبية بواسطة وزير الخارجية الأمريكي.

ففي الثاني عشر من يناير عام 1950، ألقى وزير الخارجية الأمريكي دين أتشيسون كلمة أمام نادي

الصحافة الأمريكي، وكانت بمثابة خطاب سياسي أكثر منها ملاحظات عابرة.

وبدا الخطاب وكأنه إنذار موجه لروسيا الشيوعية والصين وأقمارهما الاصطناعية.

وفي هذا الخطاب وصف أتشيسون النفوذ الأمريكي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأنه يمتد إلى شتى أنحاء العالم.

وجاءت المشكلة عندما وصف أتشيسون المصالح الأمريكية في المحيط الهادي وذكر اليابان ولكنه لم يذكر كوريا الشمالية.

وتخيل فرحة الرئيس الكوري الشمالي عندما سمع من أتشيسون أن الولايات المتحدة لا تحمي كوريا الجنوبية.

وكان تصريح أتشيسون يجسد تعقيدات السياسة الأمريكية في ذلك الوقت، حيث كان الرئيس هاري

ترومان من الحزب الديمقراطي وكان الكونجرس يسيطر عليه الجمهوريون.

وعندما طلب ترومان من الكونجرس تخصيص 60 مليون دولار كمساعدات لكوريا الجنوبية رفض الكونجرس طلبه.

كما رفض الكونجرس تقديم أسلحة حديثة ومستشارين عسكريين أمريكيين كدعم لجيش كوريا الجنوبية وكان التصويت ضد القرار بنسبة 192 إلى 193 صوتًا. وكانت هذه رسالة قوية بأن الولايات المتحدة قد تخلت عن كوريا الجنوبية.

ثم قام الرئيس ترومان في 25 إبريل عام 1950 باستصدار توجيه الأمن القومي رقم 68 الذي يلزم الولايات المتحدة باستخدام الموارد الأمريكية لمواجهة أي عدوان شيوعي على أي مكان بقارة آسيا.

وكان هذا التوجيه بمثابة قرار قوي وشجاع. ولكن المشكلة أن كل توجيهات الأمن القومي سرية بمعنى

أنها غير معلنة.

وحدث أن أراد مبعوث الرئيس ترومان الخاص إلى آسيا جون «فوستر دالاس» تحذير الشيوعيين ولكن بيانه كانت كلماته ضعيفة ومهترئة ودبلوماسية أكثر من اللازم.

وبعد هجوم السوفييت والكوريين الشماليين على كوريا الجنوبية - كما أسلفنا - صدم ستالين وكيم إيل سونج من رد الفعل الأمريكي. وكانت لغة الإدانة ضعيفة ولو كانت منذ البداية قوية وبكلمات حاسمة ودقيقة لفكر ستالين ألف مرة قبل أن يهاجم الكوريين الجنوبيين.

86

الأنا فوق الحكمة

ماك آرثر والصين

الخطأ الذي غير مسار الحرب الكورية وكلف الأمريكيين 10 آلاف قتيل كان سببه «الأنا» أو «النرجسية».

وليس الأمر هنا يتعلق ب «أنا» شخص واحد رغم أنه كان هناك رجلٌ تضخمت الأنا عنده بصورة هائلة كما تضخمت شهرته. هذا الرجل كان هو الجنرال دوجلاس ماك آرثر.

وكان هناك أيضًا رئيس أركانه الذي كانت الأنا المتورمة تدفعه لإصدار أحكام خاطئة ولا تزال أخطاء ماك آرثر ورئيس أركانه في الحرب الكورية ماثلة في أذهان الأمريكيين.

جاء غزو كوريا الجنوبية مفاجئًا للولايات المتحدة وباقي القوى الغربية ففي الأسبوع الذي سبق الحرب أعلن دين أتشيسون وزير خارجية الولايات المتحدة في الكونجرس الأمريكي يوم 20 يونيو بأنه لا يوجد احتمال لحدوث حرب.

كان القرار الأمريكي بالتدخل نتيجة لعدة أسباب.

فهاري ترومان كرئيس ديمقراطي تعرض لعدة ضغوط داخلية حيث اتهمه العديد من بينهم النائب الجمهوري جوزيف مكارثر بأنه يتعامل مع الشيوعية بمرونة شديدة.

وكان الصرحاء منهم قد اتهموا الديمقراطيين بخسارة الصين لصالح الشيوعيين كذلك كان التدخل هامًا لتحقيق مبدأ ترومان الجديد - الذي أيد محاربة الشيوعية في أي مكان تحاول الانتشار فيه - وقد تأثر القرار الأمريكي بالدروس المستخلصة من اتفاقية ميونخ عام 1938 التي قادتهم إلى الاعتقاد أن مهادنة

الدول المعتدية لن يشجعها سوى على التمادي والتوسع في العدوان.

وبدلًا من أن يقوم ترومان بالضغط للحصول على موافقة الكونجرس لإعلان الحرب - والذي اعتبره ترومان تنبيهًا للآخرين دون داعٍ ومضيع للوقت الذي هو أهم شيء في القضية - اتجه إلى الأمم المتحدة للحصول على موافقته للتدخل في كوريا.

وفي اليوم الذي بدأت فيه الحرب رسميًا سارعت الأمم المتحدة بوضع مسودة قرار مجلس الأمن رقم 82 والذي طالب بإنهاء كافة العمليات العدائية وانسحاب كوريا الشمالية إلى خط عرض 38.

وبالرغم من أن الرأى العام الأمريكي كان مؤيدًا لضرورة التدخل إلا أن ترومان تلقى انتقادات شديدة بعد ذلك لعدم حصوله على إعلان حرب من الكونجرس قبل إرسال القوات إلى كوريا، لذلك وصف البعض حرب ترومان بأنها خالفت روح ورسالة دستور الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرغم من أن تسريح قوات من الولايات المتحدة والحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية قد سبب مشكلات خطيرة في تزويد الجنود الأمريكيين في المنطقة، لكن ظلت الولايات المتحدة لديها قوات ضخمة في اليابان لمواجهة جيش كوريا الشمالية ومعداته السوفييتية العتيقة.

وكانت هذه القوات تحت إمرة الجنرال دوجلاس ماك آرثر كجزء من قوات الكومنولث البريطاني.

وبمجرد إعلام هاري ترومان باندلاع أعمال عدوانية على نطاق واسع في كوريا أمر ماك آرثر بإرسال العتاد الحربي لجيش كوريا الجنوبية واستخدام غطاء جوي لحماية عمليات إجلاء المواطنين الأمريكيين.

وبسبب الأنا لم يوافق آرثر على ما اقترحه مستشاروه بعمل غارات جوية من جانب الولايات المتحدة فقط على قوات كوريا الشمالية.

كان أول تدخل هام للقوات الأمريكية من خلال قوة المهام سميث التي كانت جزءًا من الفرقة 24 مشاة بالجيش الأمريكي المتواجد باليابان.

ودخلت أولى معاركها في 5 يوليو بمدينة أوسان حيث هُزمت وخسرت خسائر فادحة لتستمر قوات كوريا الشمالية المنتصرة في التقدم نحو الجنوب وإجبار نصف قوة الفرقة 24 للتقهقر لمدينة تايجون التي وقعت أيضًا في أيدي القوات الشمالية ليتم أسر الجنرال ويليام إف دين - الذي يعتبر أكبر رتبة تم أسرها في الحرب الكورية بواسطة الشماليين.

وبحلول أغسطس كانت قوات كوريا الجنوبية والجيش الثامن للولايات المتحدة قد تقهقروا إلى منطقة صغيرة في الركن الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الكورية حول مدينة بوسان ومع تقدم قوات كوريا الشمالية قاموا بجمع الموظفين المدنيين وقتلهم.

وأرسل دوجلاس ماك أرثر رسالة إلى كيم إيل سونج في 20 أغسطس يحذره فيها بأنه سوف يحمله مسؤولية أي أعمال وحشية ترتكب ضد قوات الأمم المتحدة.

وقد تمكن قائد الجيش الثامن الجنرال والتون واكر من المناورة بقواته لمقاومة الشيوعيين الذين حاولوا تجنب هذه المناورات بدلًا من حشد قواتهم والذي كان من الممكن أن تؤدي إلى إبادة قوات الأمم المتحدة.

وبالرغم من تلك المناورات إلا أنه في شهر سبتمبر كانت المنطقة المحيطة ببوسان فقط - نحو 10% فقط من شبه الجزيرة الكورية - هي التي ظلت في أيدي القوات المتحالفة.

وبفضل المساعدات الأمريكية الضخمة والمساندة الجوية والتعزيزات الإضافية تمكنت قوات الولايات المتحدة وجيش جمهورية كوريا (كوريا الجنوبية) من الاحتفاظ بخطٍّ دفاعي على طول نهر ناكدونج، وأصبح هذا الخط معروفًا في الولايات المتحدة باسم محيط

بوسان. ومع أن المزيد من الدعم جاء من الأمم المتحدة إلا أن المشهد العام كان يوحي باليأس والسبب منذ البداية هي الأنا المتضخمة للجنرال ماك آرثر.

وقد خسر ماك آرثر بسبب الحرب وتم اتهامه في واشنطن ب «الفشل في تقديم الدعم الكامل لسياسة الولايات المتحدة والأمم المتحدة»، وأعفي من جميع مناصبه.

87

خطأ أدى إلى اختراع

اختراع المطاط الاصطناعي

كان العلماء في شركة «ثري إم» بولاية مينيسوتا الأمريكية يحاولون ابتكار مطاط صناعي.

وقد جعلت أزمة نقص المطاط في الحرب العالمية الثانية الأبحاث الرامية إلى ابتكار هذا المطاط الصناعي مهمة على مدى السنوات التي تلت انتهاء الحرب وحتى الخمسينيات من القرن الماضي.

وكما يحدث أحيانًا في المعامل، فقد حدث أن في إحدى المحاولات لعمل مطاط اصطناعي لأنابيب مد الوقود للطائرات أن أراقت العالمة الأمريكية باتسي شيرمان - واحدة من العلماء بشركة ثري إم. - قطرات من مركب أولي كانت تعده ولم تنته من إعداده بعد بالخطأ على الحذاء الجلدي لمساعدها.

ومع مرور الوقت لاحظا أن الجزء الذي سقطت عليه المادة هو الجزء الوحيد من الحذاء الذي لم يتسخ. ونتيجة لهذه الحادثة تم اكتشاف المطاط الاصطناعي المقاوم للخدش والاتساخ.

ومنذ عام 1956، بدأ إنتاج هذا المطاط وبيعه في الأسواق وسرعان ما انتشر إنتاجه في العالم منذ ذلك الحين.

88

أسطورة المعركة الحاسمة

الجنرال الفرنسي نافار

يعد التورط الأمريكي في فيتنام أكثر الأحداث المأساوية على المستويين الاجتماعي والعسكري في التاريخ الأمريكي.

فقد تركت فيتنام من الندوب التي أثرت على القرارات العسكرية الأمريكية حتى في القرن الحادي والعشرين.

وقد ارتكبت الولايات المتحدة كثيرًا من الأخطاء التي كفلت لها خسارة هذه الحرب، ولكن يبقى الخطأ الحقيقي الذي بدأت به المأساة برمتها لم يكن خطأً يمكن لأي أمريكي أن يفعله.

وهذا الخطأ ارتكبه رجل فرنسي. وبالتحديد جنرال فرنسي. اسمه هنري نافار ويكره الهزيمة.

وقد تكون هذه صفة حميدة في أي جنرال ولكن في هذه الحالة فإن هذه الصفة قادته لارتكاب خطأ كبد الفرنسيين آلاف القتلى وفيما بعد عشرات القتلى من الأمريكيين والفيتناميين.

كان الجنرال نافار هو القائد العام الفرنسي لفيتنام التي تحتلها فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية.

وعندما انتهت الحرب عادت بعض وحدات القوات الفرنسية المشاركة في الحرب إلى مستعمراتها في الهند الصينية وبالتحديد بعد هزيمة القوات اليابانية المحتلة لفيتنام وعودتها إلى بلادها.

وكانت هناك توقعات لدى الفرنسيين بعد عودتهم للهند الصينية بأن الأمور ستعود لطبيعتها ولكن هذا لم يحدث لأن الأزمنة تغيرت.

فقد أحرج اليابانيون الغرب باحتلالهم مناطق شاسعة من آسيا بسهولة غريبة في الحرب الثانية.

وكان الأمريكيون قد شجعوا على قيام جماعات مقاومة لليابانيين ودربوا بعضها ومدوا معظمها بالسلاح.

ولكن رفض الفيتناميين استبدال بالسيد القديم (فرنسا) السيد الجديد (أمريكا).

وحدث أن قامت ثورة شعبية على الفرنسيين للاستقلال تقودها حركة الجركة فيات- مين الشيوعية بزعامة الجنرال فو نجوين جياب.

وفي الحقيقة فقد كانت الحكومة الفرنسية تميل إلى فكرة إمكانية التخلي تدريجيًّا عن احتلالها لفيتنام من خلال التفاوض، حتى ارتكب نافار الخطأ الكبير، حيث كانت لديه فرصة لقبول عرض المطالبة بالاستقلال، بتشكيل حكومة ائتلافية أو إبرام تسوية بسيطة تعطي فيتنام حكمًا ذاتيًا، وسط توقعات جياب بتشكيل فيتنام لمستقبلها السياسي بعد رحيل الفرنسيين فيما بعد.

ولكن «نافار» رأى أن الموافقة على مطلب جياب بمثابة هزيمة له هو شخصيًّا وفشل ذريع لا يليق به.

ولعلمه بأن الاتجاه في بلاده يميل لحل دبلوماسي، فقد أدرك نافار أنه إذا تدخل الدبلوماسيون الفرنسيون فسوف يكون هو خارج الصورة.

وتوصل نافار إلى أنه إذا تمكن من تحقيق انتصار عسكري على قوات منظمة الجنرال جياب في معركة حاسمة وإخضاعها فسوف يعزز موقفه ويجعله هو المفاوض الذي يفرض ما يريد باعتباره المنتصر.

وأشعل نافار الموقف، ودق طبول الحرب. وبالفعل كان له ما أراد. وحدث أن حرك نافار، تحت اسم «عملية كاستور» قواته المحمولة جوًّا إلى ديان بيان فو، في أقصى غرب فيتنام على حدود لاوس، ليقطع الطريق على القوات الفيتنامية المتقدمة هناك، ولكن الهدف الأول كان استدراج الفيتناميين إلى فخ وإجبارهم على خوض معركة حاسمة بعيدًا عن قواعدهم.

وكانت خطة الجنرال نافار تتضمن القيام بهجوم عام، يستهدف تحطيم القوة المنظمة للثوار.

وتضمنت الخطة تركيز القوات المتحركة في دلتا النهر الأحمر، وذلك لمحاولة الاشتباك مع قوة الثوار الضاربة وتدميرها في خلال خريف وشتاء 1953. وفي الوقت نفسه، احتلال ديان بيان فو في الغرب، واستعمالها كقاعدة لتسديد ضربات قوية للمناطق الشيوعية المجاورة.

وفي ربيع 1954، كان من المفروض أن يكون الثوار منهكين، فتقوم وحدات أخرى مشكلة حديثًا بالاستيلاء على مناطق في جنوبي فيتنام، وأخيرًا يأتي الهجوم العام في الشمال ويؤدي إلى إنهاء الحرب بنصر كامل في معركة حاسمة خطط لها نافار الحالم.

وتجمعت أربع وأربعون كتيبة فرنسية في الدلتا، من أجل المرحلة الأولى في خريف 1953، ونشبت سلسلة من المعارك الشرسة. وفي كانون الثاني 1954، احتل المظليون ديان بيان فو، وبدأ إعداد هذه القاعدة فورًا.

وفي الوقت نفسه شن الفيتناميون هجومًا مضادًّا، وحاصروا ديان بيان فو، وسارعوا لاختراق في مرتفعات لااووس.

ثم وقع في يناير هجومان آخران، أحدهما في الجنوب، والثاني في الشمال، ونجم عن ذلك تحرير حوض نام هو، وتهديد عاصمة لاوس.

وتجمع الفرنسيون في مارس لاستئناف هجومهم، فبدأ الفيتناميون انقضاضهم على ديان بيان فو لمدة 55 يومًا وكانت الهزيمة الكارثية لنافار وقواته.

وانتهت مع نهاية هذه المعركة حربُ الهند الصينية في يوليو من عام 1954، وخسرت فرنسا فيها 172 ألف شخص بين قتيل وجريح، وتحطمت إلى الأبد سيطرة فرنسا على فيتنام.

89

كارثة التسويق

فورد والسيارة «إدسل»

في رواية بيلي جويل «نحن لم نبدأ إطلاق النار» يسخر المؤلف بقوله «إدسل سيارة لا تسير». وكان يشير إلى السقطة الرهيبة لشركة فورد موتور في نهاية عام خمسينيات القرن الماضي والتي كبدت الشركة خسائر مالية هائلة، وأصبحت مضرب الأمثال في فشل الشركات الذريع في بعض الأحيان.

وكانت السيارة الجديدة لفورد «أدسيل» هى محور هذه السقطة أو هذا الفشل، والتي جعلت مجلة «تايم» الأمريكية تضعها بين قائمة «أسوأ 50 سيارة في التاريخ».

فقد فكرت الشركة في صنع سيارة جديدة، توفر تقنيات حديثة وغير مسبوقة في السوق الأمريكية،

واختارت الشركة تسمية هذا الطراز المنتظر على اسم الابن الوحيد لمؤسس الشركة الشهير هنري فورد.

في هذا الوقت، كان لدى فورد 3 مجموعات من السيارات، فورد الاقتصادية الرخيصة، ميركوري المتوسطة، لينكون الغالية الفاخرة. كل مجموعة من هذه الثلاث كانت تتضمن ثلاثة أو أربعة طرازات، فمثلا فئة لينكون تضمنت كونتيننتال وكابري وبريمير، وهكذا.

وذهب تفكير فورد لخلق فئة جديدة، محصورة ما بين الرخيصة والمتوسطة، وكذلك جعلوا لهذه الفئة من أدسل أربعة طرازات. وعند تسعير هذه الطرازات، جعلت الشركة سعر أدنى طراز في فئة أدسل متساويًا مع سعر أعلى سيارة في الفئة الرخيصة فورد، ثم تساوت الطرازات الأخرى مع أسعار فئة ميركوري المتوسطة.

وببساطة شديدة، صنعت الشركة أعداء ومنافسين لها بنفسها. ليس هذا فحسب، إذ كان من الصعب أيضًا

على المشتري الأمريكي العادي تصنيف أدسل مقارنة ببقية طرازات الشركات الأمريكية المنافسة في السوق.

وعند بدء طرح طرازات أدسل للبيع في 1958، حققت مبيعات لا بأس بها، ربما بفضل الحملات التسويقية والإعلانية، لكنها سرعان ما أظهرت مقاومة شديدة واستعصت على البيع والتسويق لها، وكأن مشكلة التصنيف لم تكن كافية، حيث بدأت مشاكل أخرى في الظهور، سببها قلة جودة المكونات والتجميع، الأمر الذي جعل العديد من المشترين يشتكون من جودة السيارة.

الطريف أنه تبين أن عدم وضوح طرازات أدسل، وكان تصنيعها يتم على مراحل في عدة مصانع، ذلك أن شركة فورد لم تخصص مصنعًا بعينه لإنتاج هذه الطرازات، الأمر الذي أدى لرداءة التصنيع وتدهور المستوى بشكل عام، حتى إن العديد من السيارات خرجت من المصانع ناقصة التجميع، وبعضها الآخر

كان يحوي الأجزاء الناقصة في صندوقها الخلفي، ثم تأتي لفورد لتستكملها.

وبدأت النكات تصدر والسخرية الأمريكية تنصب على الشكل الخارجي للسيارة، ذلك أن السيارة لم يكن لها شكلها الفريد، بل استعارت من كل بستان وردة، فالمقدمة كانت تشبه طراز كذا، وكذلك المؤخرة والواجهة والمقاعد ولوحة العدادات والإطارات، فأصبحت أدسل سببًا للتندر والسخرية، وأصبحت مرادفًا للقبح في أعين الأمريكيين.

ومن أسباب فشل أدسل أيضا أنه كان قد جرى تصميم هذه السيارة في بداية الخمسينيات، لكن طرحها جاء في نهاية الخمسينيات، وهذا الفارق الزمني جعل فورد تقدم سيارة كان الناس يريدونها في الماضي لا الحاضر.

وكانت دراسة السوق التي أجرتها فورد قبل طرح السيارة سببًا رئيسيًا في الفشل، تجاهلت حقيقة أن السوق الأمريكي كان يتخلى عن السيارات العملاقة

كبيرة الحجم، بسبب الزحام المروري والاهتمام بتكلفة الوقود والصيانة وغير ذلك. «وأدسل» كانت من السيارات كبيرة الحجم.

90

القيادة غيرُ الحاسمة

خليج الخنازير

كانت الخطة الأصلية لعملية خليج الخنازير تقتضي قيام مجموعة صغيرة من المتمردين بالهبوط قرب الجبال في كوبا.

وكان من المفترض أن يكون هؤلاء البذرة التي من خلالها تجري عملية عصيان كبرى تطيح بالرئيس الكوبي فيدل كاسترو.

وكانت هذه الخطة من تصميم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية العتيدة «سي.آي.إيه» التي كانت قد تمكنت من الإطاحة بحكومة جواتيمالا اليسارية قبل سنوات قليلة. وقد وضع خطة الإطاحة بكاسترو معظم أفراد الفريق الاستخباراتي التي كان قد وضع خطة قلب نظام الحكم في جواتيمالا.

وكلتا الخطتين كانتا في الأصل من بنات أفكار ريتشارد بيزل الذي كان يشغل منصب رئيس العمليات السرية في «سي.آي.إيه» وكان يتمتع بقدرات عالية في هذا الصدد ظهرت منذ أن شغل منصبه لأول مرة في عهد الرئيس الأمريكي أيزنهاور.

وكان لدى الجميع في الوكالة يقين بأن كاسترو ستتم الإطاحة به.

وكانت هناك إلى جانب هذه الخطة عمليات أخرى تستهدف التخلص منه، منها استخدام قتلة مأجورين لاغتياله. وكانت خطة خليج الخنازير تحظى بدعم كبير من الرئيس ونائب الرئيس الذي كان يعد نفسه للرئاسة في الانتخابات التالية.

ولكن جاء الرئيس جون كنيدي إلى البيت الأبيض بعد فوزه في الانتخابات وكان من شأن ذلك أمران أولهما أن على بيزل أن يسوق خطة خليج الخنازير إلى الرئيس الجديد، الذي كان يافعًا وفي حاجة لإثبات جدارته بالرئاسة. وكان يتعرض لضغوط شديدة من

الصقور في كل من الحزب الديمقراطي والجمهوري على حد سواء لعمل كل ما يبين تشدده تجاه الشيوعية.

الأمر الثاني أن خروج نيكسون من الرئاسة جعل بيزل بلا سلطة عليا تشرف عليه، فقد كان كنيدي مشغولًا للغاية بأمور كثيرة.

وحدث أن تحولت الجماعة المتمردة التي أنشأتها المخابرات الأمريكية للإطاحة بكاسترو حسب عملية خليج الخنازير ووفق الخطة الموضوعة إلى جيش صغير، في الوقت الذي تم فيه استبدال عملية الإنزال على الجبال عبر الجو إلى هجوم برمائي.

وبدأ 2000 كوبي من المتمردين التدريب في قواعد سرية أمريكية على العملية.

ووافق كنيدي على الخطة واستمر في تأييدها شريطة أن تكون سرية وسوف تتنصل منها الولايات المتحدة حال فشلها.

وفي ذلك الصيف كانت صحيفة «ميامي هيرالد» على وشك الكشف عن معسكرات تدريب المتمردين الكوبيين السرية، ولكن تعرضت لضغوط من المخابرات لعدم النشر واستجابت.

وفي نهاية شهر أكتوبر عام 1960، نشرت صحيفة جواتيمالية القصة برمتها، وقالت إن معسكرات التدريب على خطة الإطاحة بكاسترو أقامها الأمريكيون على أراضي جواتيمالا.

ونشرت صحيفة نيويورك تايمز تفصيلات معسكرات جواتيمالا في صدر صفحتها الأولى ولكن وكالة المخابرات الأمريكية وبيزل تمسكوا رغم ذلك بالخطة وظلوا واثقين من نجاحها.

وفي فبراير عام 1961، ضم بيزل للخطة الأصلية عددًا من مشاة البحرية الأمريكية «المارينز» وقاذفتي قنابل من سلاح الجو الأمريكي ومدمرات بحرية أمريكية. ومع ذلك فلم تكن هناك خطة يمكن اتباعها فيما إذا تمت الإطاحة بكاسترو.

فلم تكن هناك حكومة كوبية في المنفى، أو أي جماعة قادرة على حشد الشعب الكوبي وتشكيل حكومة صديقة لواشنطن.

وحدث أن رفض كنيدي اشتراك أي قوات أمريكية فيها وأن تكون العملية مقصورة على الكوبيين.

ولكن ريتشارد بيزل لم يتراجع، وفي 11 مارس عام 1961 وضع خطة تتوافق مع رغبات الرئيس، وتقضي بإنزال عدة آلاف من الكوبيين على الجزيرة يقودون الشعب الكوبي لهزيمة 200 ألف جندي هم تعداد الجيش الكوبي.

وتحدد مكان إنزال المتمردين في مكان جديد على الشاطئ الكوبي على بعد 60 ميلا من الجبال وهي منطقة آمنة، وأكد بيزل لكنيدي أن الخطة ستكون كوبية مائة في المائة وسوف تنجح.

ووافق كنيدي ثم انشغل بقضية مقتل مارلين مونرو.

ورغم أن القوة الجوية الكوبية كانت تقريبًا بدائية إلا أنه كان بمقدورها الحيلولة دون إنزال الكوبيين المتمردين ما لم يتم تحييدها. ورتبت المخابرات الأمريكية مرافقة مقاتلة أمريكية طراز بي 26، ولا يدري أحد من أعطى بيزل موافقة على ذلك.

وهنا أصبحت وزارة الدفاع الأمريكية مشتركة في الخطة فقامت بمراجعتها، وتوصلت إلى أن نسبة نجاح عملية الإنزال لا تزيد على 30 %. ولكن المخابرات ووزارة الدفاع أبلغوا البيت الأبيض أن فرصة النجاح «جيدة».

وفي بداية شهر إبريل تم نقل 1500 متدرب كوبي من جواتيمالا إلى نيكاراجوا على متن طائرات قديمة لا تثير الشبهات حول الأمريكيين ثم الإنزال في كوبا.

وكان مخطَّط العملية يقوم على البدء بضرب أهم القواعد الجوية الكوبية قبل يومين من عملية الإنزال بطائرات تحمل إشارة الطيران الحربى الكوبى ويقودها طيارون كوبيون، وتوجه ضربة ثالثة لهذه القواعد

الجوية في صبيحة يوم الإنزال، بهدف شل حركة الطيران الكوبى وتمهيد الطريق للتدخل، ومن ثم ضرب الجسور البرية والحديدية في هافانا والمناطق المجاورة.. فضلت أمريكا في تلك الفترة البقاء بعيدة عن أضواء العملية، والتظاهر بأن العملية منظمة من قبل القوات المسلحة الكوبية وليست بتوجيه من الخارج.

وفى يوم الهجوم في 19 إبريل، تم القيام بغارة 4 طائرات B-26، ولكن الكوبيون أسقطوا طائرتين B-26 وقتلوا 4 أمريكيين، وثم تم إسقاط طائرة B-26 أخرى.

ومع غياب الدعم الجوى، ونفاد الذخيرة، انسحبت قوات اللواء 2506 إلى الشاطئ، وقامت سفن الدعم القريبة من الشاطئ بمحاولة إخلاء تلك القوات إلا أنها لم تتمكن من ذلك.

وانتهت بذلك عملية خليج الخنازير بالفشل الذريع. وكان من نتيجة هذه العملية أن الجيش الثورى الكوبى

أسر 1179 شخصًا من مجموعات الإنزال، واستولى على خمس دبابات ثقيلة وعشرات من الأسلحة الفردية وثمانية رشاشات ثقيلة والكثير من الرشاشات والأسلحة المضادة للطائرات وعشر سيارات نقل عسكرية، وتم إغراق أربع سفن وإسقاط 12 طائرة قاذفة.

وبالتحقيق مع الأسرى تبين أنهم جميعًا من أنصار باتيستا وأنهم جميعًا صرحوا بأن الاستخبارات الأمريكية قد دربتهم، وكان لفشل العملية صدمة حقيقية للقيادة الأمريكية، وللرئيس الأمريكى جون كينيدى نفسه.

91

ما أحلى هذا الخطأ

الشريط اللاصق

في عام 1968 قرر سبنسر سيلفر العالم «3 إم» العمل على تحسين أحد أهم منتجات الشركة الناجحة وهو الشريط اللاصق. وكان كل ما يحتاج إليه سبنسر صمغًا أفضل يلتصق بقوة أكبر.

وفي عام 1970، وبدلًا من ذلك طور سبنسر شيئًا مختلفًا ولكنه غير ذي فائدة للشريط اللاصق. وما استطاع سبنسر إنتاجه هنا كان الصمغ الذي يمكن إزالته بسهولة، وبدا أنه سيكون غير مجدٍ ما لم يجد سوقًا له.

وبعد أربع سنوات، شكا عالم من زملاء سبنسر من أن الأوراق التي يحدد بها صفحات الكتاب تسقط، وأنه لو وضع صمغًا عليها فسوف لن يستطيع إزالته فيما بعد مما يضر بصفحات الكتاب.

وبالصدفة، حاول زميل سبنسر سيلفر استخدام مادة سيلفر على وريقة صغيرة، فوجدها تلتصق وتزال بسهولة أكثر من مرة.

وهكذا أصبح هناك شريط لاصق ضعيف لكنه يقبل اللصق لأكثر من مرة وهو الذي أصبح أشهر منتج لهذه الشركة حتى يومنا هذا والفضل لخطأ بسيط وقع فيه عالم الشركة سبنسر.

92

فضيحة ووترجيت

المخاطرة دون داعٍ

تحت تأثير غرَّقه حتى أذنيه في أوحال أكبر فضيحة سياسية كانت تهدد بتدمير رئاسته، اضطر الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون إلى أن يعلن على الملأ في لقاء مع 400 صحفي ومراسل في مؤتمر صحفي عقده في شهر نوفمبر عام 1973 وكان ينقله التليفزيون على الهواء: «أنا لست محتالًا».

ووترجيت هو اسم لأكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا. وبدأت تنسج خيوطها في عام 1968 الذي كان عامًا سيئًا على الرئيس ريتشارد نيكسون، حيث فاز بصعوبة شديدة على منافسه الديموقراطي همفري، بنسبة 43.5% إلى 42%، مما جعل موقف الرئيس ريتشارد نيكسون أثناء معركة التجديد للرئاسة عام 1972 صعبًا جدًّا.

وقرر الرئيس نيكسون التجسس على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافس في مبنى ووترجيت. وفي 17 يونيو 1972 ألقي القبض على خمسة أشخاص في واشنطن بمقر الحزب الديمقراطي وهم ينصبون أجهزة تسجيل مموهة.

كان البيت الأبيض قد سجل 64 مكالمة، فتفجرت أزمة سياسية هائلة وتوجهت أصابع الاتهام إلى الرئيس نيكسون.

وقد استقال على أثر ذلك الرئيس في أغسطس عام 1974. تمت محاكمته بسبب الفضيحة، وفي 8 سبتمبر 1974 أصدر الرئيس الأمريكي جيرالد فورد عفوًا بحق ريتشارد نيكسون بشأن الفضيحة.

وقد بدت الفضيحة كعملية سرقة، فقد لاحظ أحد حراس مبنى ووترجيت في 17 يونيو عام 1972، وجود شريط لاصق يغطي أقفال عدة أبواب في المبني ويقوم بازالته، لتتم إعادة وضعه على الأقفال من جديد.

وقام الحارس باستدعاء الشرطة بعد أن ساوره الشك حول الشريط اللاصق، واقتحمت الشرطة المكان لتلقي القبض على خمسة أشخاص يقومون بزرع أجهزة تنصت على المكالمات الهاتفية للجنة القومية للحزب الديموقراطي.

وفي نهاية العام، وجهت هيئة المحلفين تهم التجسس والشروع في السرقة والاقتحام للأشخاص الخمسة، بالإضافة إلى رجلين آخرين على علاقة بالقضية.

في شهر يناير من عام 1973: أدين المتهمون في القضية وقاضي المحكمة وكثير من الشهود ولجنة المحلفين يساورهم الشك في تورط الرئيس نكسون ومنظمي حملة إعادة انتخابه.

وبعد ذلك، أرسل جيمس مكورد «أحد المدانين السبعة» رسالة إلى قاضي المحكمة تشير إلى تورط جهات كبرى بالقضية.

وأشارت التحقيقات إلى وجود مبالغ مالية بحوزة المدانين تثير الشكوك، وعند تتبع الحسابات المالية وجد أن لها علاقة بمؤسسات ممولة لحملة إعادة انتخاب الرئيس نيكسون.

ثم تلقَّى الصحفيان كارل برنستين وبوب وود ورد من واشنطون بوست معلومات من شخص مجهول اصطلح على تسميته في تلك الفترة ب «ديب ثروت» تشير إلى أن هناك علاقة بين عملية السطو والتجسس ومحاولة التغطية عليها وبين جهات رسمية رفيعة، مثل وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية، وصولًا إلى البيت الأبيض، والصحفيان يقومان بنشرها.

وبدلًا من أن تنتهي القضية بإدانة المتهمين توسع التحقيق أكثر فأكثر، ليشمل التحقيق طاقمَ البيت الأبيض.

وبعد شهر، أقال الرئيس نيكسون اثنين من كبار مستشاريه لعلاقتهما بالقضية، ثم أشارت التحقيقات

إلى وجود نظام للتسجيل بالبيت الأبيض ولجنة التحقيق تطالب بالأشرطة والرئيس يرفض تسليمها مستخدمًا سلطته التنفيذية.

وقام البيت الأبيض بتسليم الأشرطة بعد حذف مقاطع مهمة منها؛ مدعيًا أنها حذفت عن طريق الخطأ، في الوقت الذي كانت فيه المخابرات الأمريكية تعرقل الحصول على أجزاء أخرى بحجة أنها تحوي تفاصيل تمس بأمن الدولة.

وفي يوليو 1973حكمت المحكمة العليا بعدم دستورية استخدام الرئيس لسلطته التنفيذية لحجب أجزاء من الأشرطة، ثم تم الكشف عن محتويات الأشرطة كاملة.

28 من يناير 1974: الرئيس نيكسون يدان بتهمة الكذب على مكتب التحقيقات الفيدرالي «إف.بي.آي».

وجاء في النهاية الحكم النهائي في حق المتهمين السبعة في قضية التجسس، وتتم الإشارة إلى الرئيس

نيكسون كمشارك في تلك القضية.

ومع ازدياد سقوط نيكسون - دستوريًّا - بدأ الكونجرس مناقشات لعزله عن منصبه.

بعد أن بات من المؤكد أن أغلبية أعضاء الكونجرس سيصوتون مع عزل الرئيس فأعلن هو من جانبه عشية الثامن من أغسطس 1974 في خطاب متلفز استقالته رسميًّا.

93

التغيير غير المدروس

كوكاكولا تدفع الثمن

في عام 1985، اخترعت كوكا كولا ما اعتبره كثيرون كأكبر حملة دعائية فاشلة في التاريخ بتغيير تركيبة المشروب تحت اسم نيو كوك لكي تنافس بيبسي ذات الطعم الأحلى، مع دعاية تجارية مكثفة، لكن هذا المنتج الجديد لاقى فشلا كاملا، فعادت الشركة إلى التركيبة القديمة مرة أخرى تحت اسم كوكا كولا كلاسيك.

وكان غضب الناس عظيمًا وأُجبرت كوكا كولا على إعادة المشروب القديم بعد 79 يومًا فقط من طرح المشروب الجديد.

وكان روبرت جوازوتا أوستن قد تولى رئاسة كوكاكولا في عام 1981، وقام بعد أقل من سنة على توليه منصبه بشراء شركة كولومبيا بيكتشرز التي تهتم

بالتسلية والترفيه لإيمانه بأهمية التسلية في رفع احتمالات النمو وتحقيق الأرباح، كما طرح بعد ذلك مشروب الكوكا دايت بأسلوب شعبي، ووعد جوازوتا بأن كوكاكولا سوف تستمر في التحدي وأرباحها ستنمو بشكل كبير وسيزداد العائد على حقوق المساهمين وسيتضاعف صافي الدخل ليصل إلى مليار دولار، ولكن جاءت تركيبة كوكا كولا الجديدة لتشكل ضربة مُوجِعَة للمشروب.

والخطأ الكبير هنا هو تغيير صيغة ناجحة دون خطة مدروسة والاستسلام للرغبة الدفينة للانتصار على المنافس دون روية.

94

الشيوعي البيروقراطي

سبب انهيار سور برلين

كان الرجل المسؤول عن انهيار حكومة ألمانيا الشرقية، وإعادة توحيد ألمانيا كان شيوعيًّا بيروقراطيًّا. وجاء الخطأ الذي دفع إلى سقوط الحكومة وتوحيد ألمانيا من خلال علاقة الحكومة بسور برلين.

فقد بنت حكومة ألمانيا الشرقية السور حتى تحمي المد الشيوعي، ومنع الكفاءات من الانتقال للغرب، واستمرت الحكومات الشرقية في قمع من يحاول عبور السور، حتى أصبح السور أوروبيًّا وعالميًّا رمزًا للقمع والوحشية، واستمرت المطالبات بهدمه.

ولعبت المنظمات الدولية دورًا مهمًّا في إسقاط نظام «ألمانيا الشرقية» سابقًا. فقد تحولت الاحتجاجات إلى مظاهرات حاشدة أدت إلى سقوط جدار برلين الشهير.

وكان قد تم تشييد هذا الخط لوقف تدفق اللاجئين من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية.

وكان الألمان الشرقيون المهرة والمدربون جيدًا في مهنهم يهربون إلى الغرب عبر السور بحثًا عن أجور أكبر تصل إلى عشرة أضعاف ما يتقاضونه في الشرق.

وبقيت احتجاجات السياسيين الألمان الغربيين على بناء جدار برلين بلا جدوى. وعليه، فإنهم أقدموا على البحث عن سبل أخرى لكسر الستار الحديدي الذي قسم أوربا.

وكانت وسائل الإعلام في شرق ألمانيا تخضع لرقابة وتوجيه الحكومة، وكان ينظر إلى الصحفيين من الغرب على أنهم يشكلون تهديدًا للنظام الاشتراكي الشيوعي.

سقوط جدار برلين وتوحيد ألمانيا وقبله سقوط حكومة برلين في الشرق ما كان يحدث لولا بيروقراطية وجمود وتشدد مسؤولي حكومة ألمانيا

الشرقية وتصلبهم في مواجهة الاحتجاجات، فقلبت عليها العالم، ليضغط في اتجاه الوضع المأساوي الإنساني القائم.

بحلول منتصف العقد 1980 كان الشعور السائد بين الألمانيين الشرقيين والغربيين حول إعادة التوحيد بأنه أمل بعيد صعب التحقيق طالما بقيت الحكومات الشيوعية مسيطرة على أوربا الشرقية.

ولكن هذا الأمل بدا فجأة وكأنه بمتناول الأيدي نتيجة للتغييرات السياسية التي حدثت في الاتحاد السوفييتي.

كان ذلك نتيجة قدوم ميخائيل جورباتشوف إلى الحكم والذي أدت سياساته إلى موجة من التغييرات في شتى أرجاء الكتلة الشرقية مما أحيَا أمل الاتحاد مرة أخرى في ألمانيا الشرقية.

وفي شهر أغسطس من عام 1989 قامت المجر بإزالة القيود على حدودها مع النمسا الأمر الذي نتج عنه

هرب ما يزيد على 13 ألف ألماني شرقيٍ إلى ألمانيا الغربية عبر المجر في شهر سبتمبر.

وفي أواخر العام نفسه بدأت مظاهرات ضخمة ضد المنطقة الألمانية الشرقية كان أكبرها ما عرف بمظاهرات الإثنين في ليبزج.

وأجبرت الاضطرابات الشعبية رئيس ألمانيا الشرقية إيرك هونكر على تقديم استقالته في 18 أكتوبر 1989.

وقد تبع ذلك عدة استقالات أخرى عندما أعلن كافة أعضاء الحكومة الشرقية استقالتهم في 7 نوفمبر.

وهنا يأتي دور الشيوعي البيروقراطي الذي أسقط الحكومة الشرقية والجدار لينتهي الأمر بإعادة توحيد ألمانيا.

هذا الرجل هو جونتر شابوفسكي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الألماني الشرقي.

فمع الضغوط الدولية التي تزايدت بشدة، استقال إيريك هونيكر رئيس ألمانيا الشرقية وزعيم حزبها الشيوعي في الثامن عشر من أكتوبر 1989.

وهنا وبعد هذه الاستقالة، أعلن جونتر شابوفسكي عضو المكتب السياسي للحزب أن بلاده فتحت الحدود مع ألمانيا الغربية. هذا الإعلان غير المقصود وكان فقط للتهدئة، مما دفع عشرات الآلاف من الألمان للذهاب إلى الجدار الفاصل وبدأوا بهدم أجزاء من ذلك الجدار. وفي النهاية، سقط السور الفاصل بعد 28 عامًا من بنائه، والذي قسم بلدًا إلى شطرين لأربعين عامًا. وهذا اليوم لم يغير تاريخ ألمانيا فقط، بل أوربا بأسرها، وهو ما يعتبر من أهم الأحداث في القرن العشرين.

95

ثمن النفط

غزو الكويت

في صيف عام 1990، كان لدى الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب اعتقاد راسخ هو ومساعديه بأن صدام ليس لديه أية نية لغزو الكويت.

وعندما كانت التقارير تتحدث عن أن صدام سيفعلها، لم يكن بوش الأب يهتم، فقد كان لديه قناعة بأنه لن يفعل. ولكن صدام غزا الكويت.

وقد جاء هذا الغزو لأسباب اقتصادية فنظام صدام البعثي كان يعتبر نفسه القائد الحقيقي للعرب في أعقاب الثورة الإيرانية عام 1980.

وشن صدام حربًا مع إيران استمرت 8 سنوات بددت موارد كلتا الدولتين وانتهت بدون فائز واضح ولم يحقق أي طرف أيةَ مكاسب إقليمية.

وقد اعتمد صدام أساسًا على القروض التي يتلقاها من السعودية والكويت ودول أخرى في حربه مع إيران. وصور صدام نفسَه كمن يحارب نيابة عن العرب في مواجهة التهديد الإيراني.

وقد استخدم هو هذه الحجة للضغط على العرب لمواصلة وزيادة الأموال التي يقدمونها له.

وفي مؤتمر للدول المصدرة للبترول «أوبك» في أعقاب الحرب، سعى العراق بشدة لزيادة أسعار النفط لكي يسد ديون الحرب، ولكن الكويت عارضت ذلك، ونظر صدام إلى هذه المعارضة كعمل اقتصادي عدائي.

وبالإضافة إلى ذلك اتهم صدام الكويت بسرقة مليارات الدولارات من العراق كقيمة - كما قال - لما تحصل عليه من نفط منطقة روميلة، رغم حقيقة أن هذا الحقل النفطي يقع في منطقة حدودية ولكنها داخل الأراضي الكويتية.

وحاول صدام الحصول من الكويت على تنازلات في مجالات عدة ولكنه لم يتمكن فما كان منه إلا أن لجأ لتكتيكات عسكرية.

وهدد صدام الكويت بأنها ستلقى من جانب بلاده إجراءات انتقامية، بعد اتهامها بممارسة أعمال عدائية ضد بلاده.

ونشر صدام 100 ألف جندي على الحدود بين البلدين. ورغم ذلك اعتقدت المخابرات البريطانية والأمريكية أن صدام يناور وأنه لن يلجأ للقوة.

وقد أظهر هذا الموقف أو الاعتقاد الخاطئ من البريطانيين والأمريكيين افتقادهم إلى معرفة وفهم التاريخ الوحشي لصدام.

فصدام كان يفترض أن يكون بتاريخه الوحشي شخصًا يمكنه ببساطة الاعتداء على جيرانه عسكريًا لتحقيق مكاسب اقتصادية. وهذا هو ما بدا جليًا من

حربه ضد إيران الطويلة المدى ناهيك عن معاملته الوحشية لأكراد العراق.

96

الرعونة في اتخاذ القرار

بوش الأب وصدام

بعد عملية استعراض غير مسبوق للقوة العسكرية، كان ديكتاتور العراق الراحل صدام حسين في متناول يد الرئيس جورج بوش الأب.

فبعد غزو صدام للكويت في عام 1990، وبعد شهور من المساعي الدبلوماسية المطولة لدفع صدام للانسحاب دون جدوى، كان للتدخل العسكري الذي قادته أمريكا في شهري يناير وفبراير عام 1991، أكبر الأثر في وضع أمريكا في موقف يسمح لها بخلع صدام واستبدال حاكم آخر به.

ولكن عدم تحرك بوش الأب لتحقيق ذلك سمح للديكتاتور بإحكام سيطرته أكثر على السلطة في بغداد.

ولو لم يكن جورج بوش الأب قد أخطأ في ذلك، ولو كان قد خلع صدام، وكان الأمر سهلًا للغاية، فقد كان الأمريكيون في جنوب العراق والشيعة مستعدون للمساعدة، وكل الظروف مهيأة لذلك.

لو لم يرتكب بوش الأب مثل هذا الخطأ الذي يجسد نوعًا من الرعونة في اتخاذ القرار، لما آلت الأمور لما أصبحت عليه فيما بعد في عهد خلفه ابنه جورج بوش الإبن، ولما شنت أمريكا حربًا كلفتها الكثير من أرواح جنودها، واستنزفت ميزانياتها، في حرب لا طائل منها.

فقد استمر صدام كديكتاتور، بل تحول إلى أساليب حكم أكثر توحشًا وقسوة وهذا هو ما سمح به جورج بوش الأب.

من نتائج الإبقاء على صدام أيضًا الخسائر الكارثية في الأرواح التي نتجت عن استمرار نظام صدام الوحشي في السلطة، وكان من الممكن تفادي سقوطها لو تمت الإطاحة بصدام من جانب بوش الأب أثناء حرب الخليج الأولى.

وكانت نتيجة ذلك، غزو أمريكا للعراق في عام 2003، وهو يمثل أول حرب كبرى في القرن الحادي والعشرين، وكان أيضًا من الممكن تفاديها لولا رعونة بوش الأب.

وفي الأشهر التي سبقت حرب الخليج الأولى، وكانت الأخطاء في الحسابات والتقديرات هي عنوان اللعبة.

فقد أخطأت المخابرات الغربية في توقع غزو صدام للكويت، بل قللت من احتمالاتها، وأظهرت سوء تقدير للموقف.

في ذات الوقت كان لدى صدام سوء تقدير للموقف، ولم يكن ليصدق بأن الغرب سيتصدى له إذا ما غزا الكويت.

فعندما نجحت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا - آنذاك- في استصدار قرار من الأمم المتحدة يعطي مهلة لصدام للانسحاب في موعد أقصاه 15 يناير

1991 وإلا سيتم استخدام كل الوسائل اللازمة ضد العراق.

وهكذا، جاءت حرب الخليج الثانية التي شنّتها قوات التحالف المكونة من 34 دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق، بعد أخذ الإذن من الأمم المتحدة، وذلك من أجل تحرير الكويت من الاحتلال العراقى.

وقد بدأت في 17 يناير سنة 1991، وجاءت بعدما بدأ الرئيس الأمريكى جورج بوش الأب بإرسال القوات الأمريكية، لتنفيذ العملية المسمّاة ب «درع الصحراء»، ونجاحه في إقناع عدد من الدول الأخرى بإرسال قواتها إلى مسرح الأحداث.

وفى فجر 16 يناير سنة 1991، بعد يوم واحد من انتهاء المهلة النهائية التي منحها مجلس الأمن للعراق لسحب قواته من الكويت، شنت طائرات قوات الائتلاف حملة جوية مكثّفة وواسعة النطاق، شملت العراق كله من الشمال إلى الجنوب، بمعدل 2555

غارة يوميًا، وفي 17 يناير أصدر الرئيس العراقي صدام حسين بيانًا أُذِيع عبر شبكة الإذاعة العراقية وأعلن فيه أن «أم المعارك قد بدأت»!!

وقد بدأ العراق باستهداف قواعد قوات التحالف بالإضافة إلى استهداف إسرائيل، والتي كانت على ما يبدو محاولة من القيادة العراقية لجرّ إسرائيل إلى الصراع أملًا منها في أن يؤدي هذا إلى صدع في صفوف الائتلاف، وخاصة في صفوف القوات العربية المشاركة فيه، وبعد استمرار الحرب لعدة أيام - تحديدًا في 26 فبراير سنة 1991 - بدأ الجيش العراقي بالانسحاب بعد أن أشعل النار في حقول النفط الكويتية.

وهنا، لم يستمع بوش الأب للرأي المطالب بالإطاحة بصدام، فالإطاحة بصدام من - وجهة نظره - لم تكن من ضمن التفويض الذي منحته له الأمم المتحدة لتحرير الكويت.

كما أن ذلك من شأنه أن يفتت التحالف العربي الذي شارك معه في طرد القوات العراقية منها، وسيؤدي إلى حرب أهلية سيكون لها تبعات على المنطقة برمتها.

وارتاح بوش الأب للرأي القائل إن نظام صدام لن يعيش طويلا بعد الهزيمة العسكرية، وفي ظل ما فُرض عليه من حصار، وإن إرسال قوات أمريكية لاحتلال واحدة من أهم العواصم العربية لهي حماقة كُبرى أصر ابنه على أن يرتكبها من بعده.

وكان موقف بوش الأب فيه الكثير من سوء التقدير، وجاء بوش الابن وبمنتهى الرعونة أيضًا تملكه شعور جارف بأنه سيصحح خطأ الأب، رغم اختلاف المرحلة والظروف.

وقد عارض الكثيرون حملة غزو العراق 2003 لكونها وبرأيهم تخالف القوانين الدولية. قبيل بدء الحملة العسكرية حاولت الولايات المتحدة (بريطانيا) والمملكة المتحدة الحصول على تشريع دولي للحملة العسكرية من خلال الأمم المتحدة ولكن هذه

المحاولات فشلت. نظمت الولايات المتحدة تقريرًا لمجلس الأمن واستندت في هذا التقرير على معلومات قدمت من قبل وكالة المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية تزعم امتلاك العراق لأسلحة دمار شاملة وقت نفت الحكومة العراقية هذه المزاعم بصورة متكررة.

وفي 12 يناير 2005 حلت الولايات المتحدة فرقها للتفتيش لعدم عثورها على أي أثر على أسلحة الدمار الشامل.

واستنادًا لدستور الولايات المتحدة لا يمتلك الرئيس صلاحية إعلان الحرب وأن هذه الأمر هو من صلاحيات الكونجرس الأمريكي ولكن حسب قانون صلاحيات الحرب الأمريكي لعام 1973 يمكن لرئيس الولايات المتحدة إرسال الجيوش إلى دولة أجنبية لمدة 60 إلى 90 يومًا دون الرجوع إلى الكونجرس.

وفي 3 أكتوبر 2003 حصل جورج بوش الابن على موافقة الكونجرس بعد خلافات عديدة من أعضاء

الكونجرس من الحزب الديمقراطي.

وأصدر مجلس الأمن القرار رقم 1441 الذي دعا إلى عودة لجان التفتيش عن الأسلحة إلى العراق وفي حالة رفض العراق التعاون مع هذه اللجان فإنها ستتحمل «عواقب وخيمة».

لم يذكر كلمة استعمال القوة في القرار رقم 1441 وعندما وافق عليه مجلس الأمن بالإجماع لم يكن في تصور الدول المصوتة أن العواقب الوخيمة كانت محاولة دبلوماسية من الولايات المتحدة لتشريع الحملة العسكرية.

وقد صرح السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان بعد سقوط بغداد أن الغزو كان منافيًا لدستور الأمم المتحدة.

ويوم انسحاب آخر جندي أمريكي من العراق كان شاهدًا على محصلة كارثية لكل الأطراف، فحتى ذلك اليوم سقط ما يقرب من مليوني عراقي، وتم تهجير

مليونين آخرين من منازلهم، بينما خسرت الولايات المتحدة 500 ألف من جنودها، وأصيب 32 ألفًا، معظمهم بعاهات مستديمة، فيما أنفقت على الحرب 1000 مليار دولار، فضلًا عن سجل حافل بالفضائح تمثل في أكذوبة أسلحة الدمار الشامل، وفضيحة التعذيب في سجن أبو غريب، والاستعانة بأعداد غير معروفة من المرتزقة للقتال بدلًا من القوات الأمريكية النظامية، التي تحطمت معنوياتها في الكثير من الأوقات في أثناء الحرب.

97

بوش الأب..

الإبقاء على صدام

ليست هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها وزير الدفاع الجديد روبرت جيتس عن قلقه من احتلال العراق والتداعيات السلبية المحتملة على الوجود الأمريكي هناك وعلى المنطقة ككل.

فقد سبق أن لعب جيتس دورًا مهمًا في ديسمبر 1991 عندما كان يشغل منصب نائب مستشار الأمن القومي، حيث شكل مع مجموعة من المسؤولين لجنة داخل الإدارة الأمريكية أجمعت على خطورة الحرب وحثت الرئيس الأمريكي بوش الأب على الاكتفاء بتحرير الكويت ودحر الجيش العراقي، دون السعي إلى تغيير النظام، لأن الفكرة السائدة حينها لدى أغلب السياسيين هي الحفاظ على استقرار المنطقة، خدمة للمصالح الأمريكية.

وهو رأي عبَّر عنه خليفته دونالد رامسفيلد قائلًا: «كان انشغالنا الأساسي هو أنه بعد قصف الجسور وإلحاق الدمار بالبلد، فمن المفترض أن نصلح كل ذلك، والواقع أننا لم نكن نرغب في توريط أنفسنا في أي إصلاح».

في تسعينيات القرن الماضي، وخصوصًا خلال استعدادات إدارة الرئيس بوش الأب لدخول معركة تحرير الكويت، وما تخللها من مناقشات حادة بين أركان الإدارة انتهت بتغليب رأي الواقعيين الذين آثروا تحرير الكويت دون تغيير النظام. فقد اعتقد مستشار الأمن القومي حينها برينت سكوكروفت أن إلحاق الهزيمة بذلك النظام العدائي دون الزحف على بغداد، سيساعد على حفظ التوازن في الشرق الأوسط، وهو ما كان مطلوبًا للحفاظ على المصالح الأمريكية وتأمين مستقبل إسرائيل في المنطقة.

غير أن انشغال إدارة بوش الأب بمسألة الاستقرار وضبط موازين القوى في الشرق الأوسط، لم يرق لمسؤولين آخرين كانوا في الإدارة، وقد انتظروا فرصتهم مع قدوم الرئيس جورج بوش الابن إلى

البيت الأبيض ليمتد انشغال الإدارة الجديدة إلى خارج دائرة الحفاظ على الاستقرار في المنطقة، والسعي إلى إعادة تشكيلها وتغيير ملامحها.

وبدأ الصراع الذي يتشكل في دهاليز صناعة القرار، بين الجناح الواقعي بزعامة مستشار الأمن القومي برينت سكوكروفت، ونائبه روبرت جيتس، المحذرين من مغبة الاندفاع وراء إغراء تغيير النظام في بغداد، وبين تيار آخر يمثله نائب وزير الدفاع بول ولوفويتز المنحاز إلى تغيير النظام وإعادة تشكيل الشرق الأوسط. لكن رغم الانقسام في إدارة بوش الأب، كان القرار النهائي بعدم استهداف النظام العراقي للرئيس بوش الأب.

وكان موقف «بوش الأب» هو الإبقاء على صدام وعدم الإطاحة به، وكان ذلك يسيرًا، وكانت النتيجة الأحداث المأساوية التي تلت ذلك وانتهت بغزو العراق وتكبد أمريكا خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

98

تصديق الأشخاص الخطأ

البحث عن أسلحة الدمار الشامل

في عام 2002، قال نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني إنه ليس هناك أدنى شك في امتلاك الرئيس العراقي صدام حسين لأسلحة دمار شامل. ولم يمر وقت طويل حتى غزت أمريكا العراق في عام 2003.

ومع الغزو والاحتلال لم يثبت أن أحدًا قد ارتكب خطأ مميتًا سوى ديك تشيني نفسه ومن قبله بوش ومستشاروه.

فقد اضطر بوش لاحقًا إلى الاعتراف بأن أجهزة استخباراته فشلت عندما توصلت إلى أن صدام يمتلك تلك الأسلحة.

وقد أثبت غزو العراق أن مبرراته كانت مفبركة، كما تعكس ضعف التخطيط العسكري، والفشل في جمع

المعلومات واتخاذ القرار الصائب وخداع الشعب وهو ما يستقر في مخيلة الجميع حتى يومنا هذا.

وقد كان تاريخ صدام ينم عن سعيه لامتلاك هذه الأسلحة، ولكنه لم يمتلكها، وسيظل جورج بوش ولأمد طويل مسؤولًا عن حرب لم يكن لها ما يبررها كما كان يزعم لتبريره غزو واحتلال العراق.

99

عدم الاهتمام بالتحذيرات

تم تصميمها لتنهار!

في يوليو عام 2006، أعلن فريق التحقيق في إعصار كاترينا الذي ضرب ولاية نيو أورليانز المعروف بلجنة ليفي نتائج تحقيقه حول سبب الفشل في التعامل مع الإعصار، الأمر الذي حوله لكارثة وطنية هائلة.

ومن السهل اتهام البيت الأبيض والحكومة وقوات الجيش هنا، ولكن الخطأ الحقيقي والأساسي يعود تاريخه إلى وقت طويل مضى.

فقد تم تصميم السدود الترابية في نيو أوليانز لكي تحمي مناطق الولاية من الأعاصير العنيفة.

ولكن كارثة كاترينا كانت في حكم المتوقَّعة، لأن منطقة العواصف على ساحل الخليج في جنوب شرقي الولايات المتحدة المطلة على مياه المحيط الأطلسي

تعد من أضعف مناطق القارة الأمريكية الشمالية هشاشة من حيث الموقع والتكوين الجغرافي والتضاريس، ومن ثم أشدها تأثرًا بكل ما يصدر عن الطبيعة من ثورات وأنواء.

نيو أورليانز، المدينة والمنطقة تدنو في معظمها عن سطح البحر، وهي محاطة بالمياه من جميع الجهات، وقد حذرت نماذج الحاسوب الإلكتروني لوقت طويل من مغبة كارثة طبيعية جديرة بأن تقع، إذا ما تعرضت المدينة لاجتياح إعصار من طراز كاترينا.

وسلوك حكومة بوش وكبار معاونيه بأنه كان دون المستوى بكثير من حيث القدرة على تدبير أمر هذه الكارثة القومية بكل ما تعنيه الكلمة، وهم الذين ابتدعوا علمًا وتخصصًا يتم تدريسه في كبرى جامعاتهم تحت عنوانه الشهير: إدارة الكوارث أو احتواء المخاطر، أو تحجيم المشكلات، إلى آخر هذه السلسلة من المزاعم.

إن المؤلف يعترف بأن «شيرتوف» الوزير المسؤول عن وزارة الأمن الداخلي، وهي دائرة حكومية ابتدعت بعد أحداث سبتمبر 2001، لم يكن يتلقى معلومات صحيحة عن حجم الكارثة المهولة التي حاقت بالمنطقة المنكوبة على الأرض الأمريكية.

ومن ذلك مثلا أن مسؤولي المنطقة كانوا لا يفتأون يبعثون برسائل غاية في الأمان إلى السيد شيرتوف بشأن السدود الترابية التقليدية التي طالما كانت مستخدمة بوصفها دفاعات نيو أورليانز ضد تفاقم الفيضانات الناجمة عن العواصف والأعاصير. وكان مجمل الرسائل لا يلبث أن يردد معزوفة مكررة تقول: «اطمئن يا معالي الوزير السدود منيعة وكل شيء على ما يرام.»

وبديهيٌّ أن السدود لم تكن على مستوى الكارثة وأن كل شيء لم يكن على ما يرام، بل كان الأمر على خلاف ذلك، كان يكتنفه قدر غريب حقًّا من سوء الإدارة، وسلبية الارتباك وتضارب الآراء والمعلومات.

100

الذين لا يتعلمون من التاريخ

أخطاء الماضي تتكررُ

لم يكن هناك من شخص في العالم عام 2008 إلا وعانى من انهيار البورصات العالمية وانهيار كامل لبنوك العالم.

وقد تولدت هذه الكارثة الكونية برمتها كصدمة مفاجئة لكل شخص، لأننا تربينا على أن النظام المالي الأمريكي يحظى بإجراءات حماية كثيرة تحول دون عودة عصر الركود أو ما يشابهه.

ولكن المحبط والمؤلم معًا أن يعرف العالم أن إجراءات الحماية التي تم اتخاذها بعناية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي فشلت ووقعت الكارثة.

والحقيقة أن الإجراءات لم تفشل لأنها وقت وقوع الكارثة لم تكن موجودة أصلا.

فباسم التحديث وفي غياب الرؤية البعيدة المدى جرت عملية إزالة الإجراءات والقيود واحدة تلو الأخرى.

فقد كان هناك دائمًا قانون «جلاس ستيجال» الذي صدر عقب أزمة اقتصادية عالمية ويضمن تقليل المخاطر على ودائع العملاء وإبعاد المصارف التجارية قدر الإمكان عن منافسة المصارف الاستثمارية.

وعلى مدى خمسين عامًا بعد انقضاء أزمة الكساد الأعظم التي اندلعت في ثلاثينيات القرن العشرين، كانت سلطة المال مسؤولة أمام سلطة الحكومة الموازنة.

وكان قانون جلاس-ستيجال الصادر في أمريكا عام 1933 بمثابة القلب لهذا القيد السياسي.

كان الهدف من قانون جلاس-ستيجال يتلخص في منع البنوك التجارية من المقامرة بأموال المودعين من خلال تفويض الفصل المؤسسي بين خدمات التجزئة

والخدمات الاستثمارية في العمل المصرفي. وكانت النتيجة ذلك الاستقرار المالي النسبي الذي دام 65 عامًا.

وفي إطار ما أطلق عليه خبراء الاقتصاد في وقت لاحق النظام المصرفي «المكبوح»، مارست بنوك التجزئة الوظيفة الضرورية المتمثلة في الوساطة المالية من دون خوض مجازفات انتحارية، في حين أبقت الحكومة الطلب الكلي عند مستويات مرتفعة بالدرجة الكافية للحفاظ على مستوى من الاستثمار كفيل بضمان التشغيل الكامل للعمالة. ثم وجهت سلطة المال ضربتها الفتاكة، بمساعدة وتحريض من جوقة الأنصار من خبراء الاقتصاد.

ويبدو أن هناك من الزعماء من لا يدرس التاريخَ أو يتعلم من أخطاء التاريخ. فقد جاء الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون ليرفض الاستمرار بالعمل بالقانون وسمح بتنظيم سندات مقايضة العجز عن سداد الائتمان، وسمحت لجنة البورصة والأوراق المالية الأمريكية للبنوك بمضاعفة مستويات الاستدانة إلى

ثلاثة أمثالها. ولقد أدت هذه القرارات الثلاثة مباشرة إلى مهرجان الرهن العقاري الثانوي الذي أسقط النظام المصرفي في الولايات المتحدة في الفترة من 2007-2008. ومنذ ذلك الانهيار الذي انتقل للعالم.